صلاح صلاح

إستلوجيا

رواية

التنوير

صلاح صلاح

إستلوجيا

لوحة الغلاف: الفنانة نوال السعدون

التنوير

صلاح صلاح

إسـت لوجيا

الكتاب: **إست لوجيا/ رواية**
المؤلف: **صلاح صلاح**
عدد الصفحات: 256 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-31-3

الطبعة الأولى: 2012

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:

للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني – هاتف وفاكس: 009611843340

تونس: هاتف: 0021274407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

صلاح صلاح

إسـت لوجيا

رواية

"ليدٍ قتيلة تحت نخلة هنا
لغائباتٍ، لعيونٍ، لرأسٍ مقطوعٍ
لقتلى بلا صياحٍ، لمدينةٍ من الكُتب
لأُمّةٍ من الجُنونَ
أكتبُ كلمتِي الأخيرة "

صباح العزّاوي

"يا طيورًا، تُفَضّضُني بالعناد
هلِ الدّمُوع القديمة بريدٌ مُرتَجع؟"

إبراهيم البهرزي – من مجموعة: "صفير الجوال آخر الليل"

الفصل الأول

فجأةً، تَطرق الباب، الملائكةُ ترتعش، أُلاحِظُها. تسير جدَّتي مثل ربَّانٍ على وشْك الغرق، أصابعها دم، يا إلهي! دمٌ أسود وشمع ذائب، تصل الباب وتنظر إلى الوراء، تحديدًا إلى وجهي.

أصابعي والملائكة التي تقف خلفي، كلُّها تذوب مثل شمعةٍ كبيرة، أينَ نحن؟ صراخٌ كبير، في السّماء؟ على الأرض؟ في الجحيم؟ في الغابات البعيدة والأنواء السوداء؟ لا أدري...لا أدري.

تُفتح الباب، ويهجم الصّوت والرجالُ مثل عاصفة محطّمة.

- هل ابن القحبة موجود؟

- من أنتم؟

- هل هو موجود؟

***

تنطلق سيّارة الفرقة الحزبيّة اللاندكروز- بجنون، أنا في حلاقيم الوطن، أنا بين حيوانين وأُنوف. آلاف المطبّات، عشرات الاستدارات، إنّها لا

تسير، السيارة، بل تطير في شوارع بغداد، مثل رخّ بلا أجنحة، بلا ريش، بلا عيون. كل العيون تغرق في التساؤل، في الحيونة. معدتي تنقلب، البنكرياس يتمزّق، المرارة تنفثُ السائل الأسود دون السيطرة عليها.

أقول: أريد أن أزوّع أرجوك، نحن فوق الأكوان، فوق المجرّات الحيوانيّة، فوق الغابات والوحوش وأسمع من المجرّات صوتَ العُواء والتوسُّلات. أسأل: إلى أين؟ إلى أين؟ يستديرالسائق صارخًا: خونة، قشامر، سن..... خواتكم، ويضحك بهستيريا واللّعاب يسيل من فمه. إلى الجحيم ياخرى يبكي ثم يضحك وأنتبه إلى أنّ ضحك السائق يشبه مغارة لصوص وأنّي أنا الوحيد الذي سيصعد إلى النّفق.

***

ضبابٌ، سماءٌ من رصاص ذائب، وذئاب تكريتيّة تتفرّج على سقوطك المُدوّي. لا حياة، بل صمت كونيّ. فقط الرئيس بأقاليمه المتعدّدة يُفرد أجنحته على الفضاء. أنت تسير مثل خرافة، مثل قنديل بحر، مثل فزّاعة في الحقول الجرداء، والمهيب الركن بتمثُّلاته النرجسيّة يُمزّق الأحشاء بمناجله الكبيرة.

***

منذ البدء، كان ينبغي أن أروي قصة الأشياء السخيفة التي حدثت في حياتي أو حياتها الملعونة. كان يجب أن أنتحر أن أفعل شيئًا ما، لكنّ الأشياء غير المُمكنة هي الوحيدة التي نستطيع أن نطلق عليها: ازدراء. لذلك فإنّي أزدري حياتي وأزدري هذا الوجع، الوجع الكبير يوم فُلقت إلى فلقتين، في واحدة كنتُ أنا وفي الثانية عقابي الشّديد وغير الممهور بالرحمة، ذلك لأني ضعت في لحظة زمنيّة نحو الغطس الكليانيّ للروح وهي تموج في بحر اسمه العراق. قد أكون مُغاليًا في بعض الأحيان، وقد أكون بائسًا إلى درجة الشفقة وإلى الحدّ الذي أُثير فيه مشاعر النحلة والنملة.

لم أعرف منذُ متى أصبت بالشيزوفرينيا أو العوز النفسيّ، ربّما في طفولتي وربّما في ريعان الشباب، كما يقولون. وفي كل الأحوال فأنّي أضحك من كلمة ريعان، أيّ ريعان؟! وهذا الكابوس يغلف الوطن، الوطن الممتدُّ شرقًا وغربًا ويمتطي صهوة المجد. لكنّ هذا المجد ليس عنوانًا للنجاح ولا للهيبة التي يتبجح بها الرئيس، إنّما الإذلال الذي عانيناه طوال حياتنا. لا أعرف على وجه التحديد كيف حُملت بهذا الألم؟ الألم الشنيع عندما تغزوني تلك النوبة الحقيرة. في الواقع، ما كانت نوبة بالقدرالذي كانت فيه استمرار الحياة بشكل آخر.. أنا أهلوس غالبًا، أنتقم، أوشوش في أذن الريح، أفتن على العاصفة وأثيرُ شفقة الرياح. وهنا ينبغي القول: إنّ اللعنة التي نامت على ظهري جعلتني أكفر بكلّ شيء، أكفرُ بالأرض والتربة والأشجاروالوطن أيضًا. لكنّ يجب وفي كلّ الأحوال أن أجد تبريرًا لما فعلت، وأيّ تبرير يمكن أن يُقدّم للخروج من المحكمة كشاهد وليس مجرمًا؟ جريمتي ليست كما جرائم الآخرين. إنّها مُبرّرة لي شخصيّا وهذا مُهم. ربّما سأُتَّهم بأني حقير، كلب، قوّاد، سرسريّ، خائن. أي شيء يمكن أن يطرأ إلى ذهنك، لكنّي في الحقيقة لست هذا الشرير الذي طعن ولا المجرم الذي قبَّل خدّ يسوع القُبلة الأخيرة. لا لست واحدًا من هؤلاء قطعًا. وذلك لأنّ تبريري الوحيد الذي لم يفهمه الجميع أنّي فعلت كلّ هذا تحت غريزة غريبة، غريزة مجهولة وضائعة بين آلاف الحشرات في هذا العالم.

إنّ ما يراه بعضهم سخافة، تجده أنت أروع الأشياء. هكذا هو العالم وهكذا هي نظرتي التي تعتمد على الإحساس الفرديّ بألم الروح وليس كما يتصوّره بعضهم. وفي النهاية، فإنّ هذه البقعة، الشيء الذي يُسَّمى- الوطن- وأنت خرجت من حيامنه، سيبقى هو الأجمل وستبقى- برغم الوجع- مسكونًا بهاجسه الغريب، مهما مورست بحقّك سلطة الإبعاد

واللؤم؛ لأنّه، ببساطة، يضمُّ أكثر الأشياء إثارة في حياتي، زهرة الراسقي، أمّي التي قَطفت ربّما عن خيبة أملٍ أو عن يأسٍ وغالبًا عن حرص روح وريحان وجنّة نعيم حياتُها وهذه هيَ المشكلة.

من جهتي أعتبر أنّ الحياة لا تستحق أن تعاش في غالب الأحوال ونادرًا ما كنت أبكي وعندما أعيش حالة الانشطار الذهنيّ، أفرغ جُلّ الألم في مهبل الوطن وهذا الإله الذي اسمه السيد الرئيس، والسيد الرئيس عندما كان نائبًا يستمرّ في ممارسة عزف البيانو على مؤخّرتِي.

***

بغداد في شتاء (1979 – 1980) مثل مراحيضَ كبيرةٍ خاليةٍ من الدَّسم لكن بوجوه مُتعدّدة، مثل آلهة الهنود ومثل الميثالوجيا الإغريقيّة لكن لا شاروبيم في السماء ولا ساروفيم مجرد هو، هو وعواء في مقتبل الأيام ومنتهاها.

الخنازير تفتك بالكروم، تقتحم عينك وحدقتك وأنت غريب على باب السلطان حيث لا وجوه ولا حياة ولا موت. إذا لم ينجّني الله من فوق سبع سماوات أسبل على هذه المدينة بُصاقي.

أين أنت الآن يا أمّي؟ ألهث وأنزلق على مراجيح الوطن كما الهباء الإلكترونيّ الذي تطلقه أشعّة الشمس المتوارية خلف وجوه العَوز النفسيّ. حشرجة قويّة، تفحّم الحنجرة، اختناقات وعيون مليئة بذروق- فضلات- العصافير. أشرب ظِليم النفس وأنتهب روحي التي تكره هذه المدينة السافلة. أسير كتافهٍ ومخذولٍ؛ لأنّ الزّمن ينتهبُني. أسكرُ الآن من (بُطل عرق)

منحتني إيّاه الآلهة العظيمة لصحراء العرب. أتبرّز على كلّ الشواهد في حياتي الموتى، السكارى، الوجوه الحديديّة، أصحاب العاهات المؤقّتة، العميان، البرصان، العوران، العاهرات، اللقالق تخفق وترتفع،

الزرازير تفرّ هاربة في مجموعات مليونيّة، الفخاتي تنام في الكاظم والأعظميّة، رقبة الجسر، حلويات نعوش، نوارس، عصافير تلتقط روث البغال في خان دلة. خيّاطون في شارع ضيق يُعربدون وأصوات ماكيناتهم تصمُّ الآذان. نادي نواب ضباط الجيش العراقيّ الجنائزيّ عند نهاية جسرالأحرار. مراوح معلّقة تتحرّك بجنون في البارات، كلاب تزمجر في المقابر. غربان تلتهم الخمس بجنون، فروخ. سيّارات موسكوفيتج وفولغا تتعطّل بسبب الحرّ والبرد. بطّاريات سيّارات متروكة. شعرة مرميّة على حافّة مرحاض. باعة لبن أربيل وقيمر وذباب يطوف على الوجوه. شلغم، لبلبيّ، عصير رمّان، سراويل مفتوحة، محلبيّ، لافتات على الجدران تقول: البول للحمير. يا ناظري، صلِّ على النّبي، محروسة سبع الدجيل، لا سيف إلا ذو الفقار، أدركني يا عليّ. فيضان بشري أسود ورمادي يدور حول مراقد مقدّس. ماء أسود في العيون، كَهَنة يُقدّمون القربان الأحمر، شرجيّ يتدفّق إلى الزواريب والدرابين ونساء بعباءات كالحة تتطاير في الهواء واستجداء بعاهات الأطفال مع مخاط يلوّث الأنوف.. أتسكع في شارع الرشيد منحدرًا إلى الميدان. المدينة مبهمة تمامًا، النهر يشهق شهقاتِه الكبيرةَ ويتحسّر على الأرواح التي تذوب في الفراغ وعناق خلف سكك القطارات وفيما وراء سدرة المنتهى. أريد أن أشمّ رائحة بغداد قبل أن تلوّثها حضارة رعاع العوجة. أين أجدُك أيّتها الرائحة؟ في الروح، في الطرقات، في الدرابين، على الوجوه الملتوية للبشر بفعل الشرجيّ. مُتّخم بحبّك يا أمّي أرشق بعيون زهرة الراسقي وهي تضيع إلى الأبد تحت أقدام الرعاع المحشورين معنا في علبة تنك اسمها العراق.

بردٌ شنيعٌ، وبغداد تتحرك في داخلي مثل أفعى. التجمُّدات والصليل والعيون الجاحظة تراقبك في مداخل ومخارج المدن. رشاشات، مسدسات، بدلات عسكرية، رتب مجهولة، رفاق حزبيين، شاحنات

تُزمجر والسعي إلى الموت يصطدم برغبة الجَيَشَان المُرّ للمشاعر المخرومة. أهجس أن صوتًا عارمًا يرتفع إلى السماء متوحِّدًا يقول: مَن الذي وشيَ بكِ يا أمّي؟ مَن الذي ثقب مراكب الآلهة وهي تُبحر في انفلات دجلة والفرات ومواسم الحزن البابليّ؟ أنا والجراثيم والبكتريا وصديقي ميري مشوّهان في زمن الرِّدة. ما الذي تفعلونه يا أبناء القردة والخنازير وأمّي زهرة الراسقي وحيدة هناك؟

حنجرتهم قبرٌ مفتوح، بألسنتهم قد مكروا، سُم الصّلال تحت شفاههم وفمهم مملوء لعنة ومرارة جسدك يا خضرالياس يذوب في حامض التنتريوك والتيزاب وكل السوائل المذيبة في هذا العالم الخرائي. ناظم كزار في العلية يشرب القنداغ مع لوسيفر وقنينة العرق ملاذي الوحيد. أين أنت يا برزان ووطبان وسبعاوي وعدنان خيرالله وأرشد ياسين وحسين كامل وعلي حسن المجيد، أين أنتِ أيّتها الأفاعي المُزنّرة بالأسلحة القاتلة وأنا مثل بيضة عليها جلس العالم وسأموت من ضراطكم وحيوانيتكم. أقف مترنّحا أمام ساعة القشلة، متحسّرا. أبوس أقدامكم أيها الإنكليز- الليبراليون- أبوس طيزكم وطيز كل عاهراتكم وأحصنتكم. الإنكليز أرادونا أن نكون ليبراليين لكننا شعوب غارقة في البداوة والحيْونة. ميري وأنا الأحصنة الوحيدة في هذا العالم التي تبول نائمة، أمّا أنا شخصيّا فأبول على المسنايات والزوارق البغداديّة والوجوه اللاهفة والبُصاق والأمراض والنوستالجيا والتاريخ الخرائي للعراق وكل آيات وسور الدهشة التي تُميتُني..

ضباب بلا نهاية، وسماء رماديّة ثقيلة لا تنقشع تفاهتها وأنا أرتعش. برد يغزو عظامي فأغدو مثل بعير يبول في الصحراء. هكذا أفكّر، في طرقهم اغتصاب وسحق، بدو، وحوش، ثقافتكم ثقافة السحق والتنكيل والولدان ونكاح الحمير. ضباب وموت بطرق مختلفة ثم تلفني التّائهات والغاديات

والعاهرات. أين أنت يا الله؟ في المُدن الما ورائيّة؟ أم لم تزل أقدامك على أرض أهل العوجة والشيوعيّين؟ ميري، أين أنت الآن يا صديقي في هذه الكبرياء المغالية للسماوات وهي تمنحني موتها بلذّة الارتعاش؟

تكريت نكحتنا يا أرميا وخضرالياس. نكحتنا من الخلف والضباب فظيع وغير مرئي وبلا نهاية، لماذا عيونك مُرمَدة يا بغداد؟ لمَ تتراكضون مثل الثعالب والضباع؟ تُنبشون الأسواق المركزيّة بحثًا في مزبلة الوطن وقُبلات ضاعت قبل الأوان في خراء المدينة الشفيف. أبصق عليكم أيُّها الرعاع، أبصق على مدنكم ومنائركم المحلزنة المليئة بالصراصير والمخبرين السريين ورجال الجيش الشعبيّ والمخابرات والأمن العام والخاصّ.

سيارات ومدن مصفحة بالتيزاب والحميرالنافقة وجيف في كل مكان، ملفات سريّة لكل شيء، مخبرون من كل الألوان والأصناف، مخبرون مجانيّون يخدمون فقط للهاجس البعثيّ- التكريتيّ-لأن لا صوت ممكن أن ينطلق في العماء؛ لذا أطير فوق بغداد مثل عصفور مهلوس.

***

شتاء (1979 – 1980) في بغداد بارد جدًّا، نزيفيّ، زمهريريّ، ديماغوجيّ، دكتاتوريّ، لم نشهد بردًا قاسيًا ومعربدًا مثل هذا... يا سرجون الآكدي وأمّ معبد. أتبوّل عليكم أيّها الملاعينُ وعلى مدنكم وحميركم ومطالكم وأحزابكم وثقافتكم، أبول واقفًا عليك أنت أيضًا يا تيتو وماوتسي تونغ وفلاديمير ايلتش لينين وميكي ماوس، وربما أضفت ميشيل عفلق. ميشو أين أنت؟ و.... أبول عليكم كلكم أيّها الرفاق، ضمنا الشيوعي ف خ وهذا النغل عزيز.. وأسير في الشوارع تصدمني الأجساد. حشود غريبة، حشود دوديّة، تعبث بكل شيء وتدهس كل شيء وهي تتراكض مثل الخنازير وتدخل الأسواق المركزيّة وتحمل الأغراض والألبسة وتتصارع وتتلاحق

وتتقمّص وتستفرغ في المستنقعات المتفجّرة لنهر الخرا العظيم.

أريد أن أموت يا ميري، أرجوك، افتح لي است النقد لأنتحر فيه، علِّقني في سنارة الحداثويّة والإشكالويّة، أريد أن أموت بطريقة ليبراليّة وسط هذا الركام من العفن النفسيّ والتأجّج وأشجار الياس والخروع وتاريخ الجنون. ركض وركض وعواء وبيرة متاحة في الشوارع وعاهرات من الفلبين وكل المعمورة وأغبياء وهتافات للقيادة السياسيّة وهستريا جماعيّة.

أسير في الشارع مثل مخبول، مخبول أبدي وأشاهد ملايين الرجال والنساء يتدافعون من أجل طبقة بيض، حيث حوَّل القائد الرمز حياتنا إلى طوابير من التشيؤ، من البحث عن البصل والثوم والطماطم، كل يوم أزمة جديدة طوابير أمام باعة البيض، طوابير شيطانيّة تتدافع للحصول على الدجاج، حياة خربة وأنت تتدافع مع الآلاف من أجل الحصول على كيلو بطاطا، زبدة، قشطة. نقود في كل مكان، نقود كثيرة في الهواء والعاصفة والريح وأفواه الرفاق لكنّنا ننام في الشوارع، ننام أمام وكالة الإفريقيّة من أجل الحصول على طباخ أو مبرّدة هواء. الوطن عواء وأنا أسير بين الحشود الفزعة مصطدمًا بالأكتاف والوجوه وروائح الأفواه والحرّ والبرد والصقيع والملابس الثقيلة والعارية والمؤخّرات الدنيئة وأذوب من الحرارة في ساحة النصر. أسير مترنّحًا، هائمًا، بخطوات مبعثرة لكي يتمّ ما قيل في أشعيا النبي (الشعب الجالس في الظلمة) يسافر إلى وارشو ويستمتع هناك بالفيكي فيكي.

ضياع في روحي وجسدي وعقلي يا أمّي..عواء والفيترجية[1] يتدافعون بالآلاف أمام مكاتب الجوازات للسفر إلى بولندا والنوم في أحضان العاهرات، سفر وشيزوفرينيا وعرق في الشوارع وبارات تعجُّ بالزبائن في

(1) الفيترجيّة: مُصلحو السيارات.

كلّ الأوقات وزرازير مشويّة. لكنّنا نقف بآلاف الطوابير أمام بائع البيض والدجاج. تنمية انفجاريّة، تنمية متوازية، تنمية اشتراكيّة، تنمية رأسماليّة (تنمية جقلمبيّة). كل أنواع التنميّات في العالم. لكنّنا نخاف أن ننام لأنّ (أبو طبر)[1] يسرق أحلامنا). أبو طبر يا أمّي، وعصابة الكفّ الأسود بعد ذلك، لأنّ الله تركني على قارعة الطريق، في هذا الوطن، بفوضويّة الأشياء، بالانتهاب المغموس باللعاب السائل من الأفواه! بالنساء الممهورات بالعباءات

والغائط في الطرقات، بالنذورالتي لا تُستجاب، بالمسدسات والبنادق الكبيرة، بعدم وجود مراحيض كافية للشعب في الشوارع، فيما مصانع الأسلحة والجوامع تنبثق من الأرض مثل الشوك. أيّها الأباعر، لسنا بحاجة إلى مصانع أسلحة، نحن بحاجة إلى مراحيض وتحديدًا إلى مراحيض نظيفة في الشوارع وصابون لغسل اليد بعد التغوط بدلًا من أن نمسح بالحائط الأسمنتيّ. إنّ الدماغ يلوكني مثل نعال متذكرًا أنّي غالبًا ما وجدت في مراحيض المدرسة شعارات البعث (أمّة عربيّة واحدة ذات رسالة خالدة)،) الطالب الجيّد هو البعثيّ الجيّد) (من لا يعمل لا يأكل(، (لا خير في أمّة تأكل أكثر ممّا تنتج).

مراحيض المدرسة تفيض بالبراز، بالميثان المتفجر متناثرًا. براز في كل مكان ولا أحد ينظف ولا أحد ينزح السبتتنكات، لأنّه لا توجد أيدي عاملة، لكن هناك المزيد لتعليق الشعارات، شعاراتٍ لكلّ شيء، شعاراتٍ للأكل والشُّرب والتقيؤ ولعيان النفس والجيفة ومضاجعة النساء والتجسُّس على الأهل والأخوة والأقرباء والجيران ونتف شعر الإبط والعانة وكتابة التقارير والوشايات وشعارات في كل مكان. أصغر تكريتيّ في العالم له سلطة

(1) أبو طبر: عصابة إرهابيّة اخترعها البعثيُّون في بداية حكمهم لإرهاب الشعب العراقيّ وتعتمد على القتل العشوائيّ.

أكبرمن أكبر وزير. لكنّ مشكلة البول والغائط في الطرقات لم تُحَلّ ولا توفير البيض ولا قيمر المصلحة أو الحليب المطعَّم بالموز الذي كنا الدولة العربيّة الأولى التي تنتجه، لكن عندما جاء العوجيّون صار هباءً مصيبة، كارثة، جرثوم من العربدة المزنرة بالطلاسم السحريّة ومسدسات براوننغ للرفاق ورشاشات للجيش الشعب. كل الشعب بعثيّون وإن لم ينتموا. أكاد أختنق، أموت، أتقزّز مثل قنفذ على سرير معروك. أينما تلتفت، تجدْهم، كعورات مقطوعة ومتدلّيّة، كحمير في صباحات أسواق الخضرة المتفجّرة والخيسة وعلس الحشيش في الشواكة وحمّال يرتجف وهو يأكل لفّة الباذنجان. تشاهد مسدساتهم وبنادقهم ومسدساتهم تحت السترات بارزة في الشتاء وفي الصيف تحت بدلات السفاري ومتورّمة كخصيّة حمار. تشاهدهم في سيارات النقل والباصات والتاونسات والفورتات وكراج العلاوي وفولفات خشب وطليان وبعرور وباجة وبريمزات برقبة طويلة كما اللقالق تحت القدور وتلمحهم في كراج النهضة أيضًا ودرابين فضوة عرب، مثل ديدان تزحف الى السبتتنكات، رجال أمن يرفعون أذرعهم إلى الأعلى لترى المسدسات والأعضاء التناسليّة وعلب سجائر روثمان ودي موريه وبغداد تصدير، يسقطون بطاقاتهم على الأرض عمدًا ويلتقطونها من أجل أن يشاهدها الجميع. انتبه يا بعيوه، سيُطلقون عليك الرصاص. سيُطلقون عليك رصاص دم دم صدَّره لنا جمال عبد الناصر والأمريكان. يطلقونه في عينك وفمك ممَلوءًا بشعاراتهم وأهدافهم: وحدة... حريّة... اشتراكيّة. لمّا سلكنا الدرب، كنّا نعلم أنّ المشانق للعقيدة سُلّم. مافيا خرائيّة يا زهرة الراسقي؛ لأنّي أضعت السنبلة والكرمة في هذا الوطن؛ ولأنّي تائهٌ أبديّ في شيزوفرينيا جماعيّة؛ ولأنّي أنكرتك أمام الناس وضابط الأمن ورجل المخابرات وهم يجرجروني من ياقتي. كم شعرت بتفاهة أني عراقيّ!، تفاهة السهاد والصلاة والتضرع، قنابل غائطيّة في وجوه الجميع،

و.... بُمْ!!! وينفجر كلّ شيء ونغرق في سُهاد الخراء ونرقص رقصة الفيكي فيكي والجوبي وشاينه كوكو. أنا أُولد بالخطيئة الأصليّة يا أمّي. أُولد بعراقيّتي. ليس لنا فاد بعد، ولأنّنا بلا فاد، فإن روح المعزي لن تجيء يا أبناء العاهرات حتّى بعد اليوم الخمسين.

كنت مختبئاً عند صديقي ماجد عندما دخلت علينا جارته أمُّ عليوي. ارتعشت وقتها خوفًا وبعد أن خرجت أبلغت الشرطة قائلة: هناك شاب مشبوه في البيت وبلهفة، أيضًا، بلهفة الدسيسة، بحب طغيانيّ، نهلستي، قفزوا على السطح داهموا عيوننا، رشاشات في أفواهنا، مسدسات في مؤخراتنا، ومن كل الأنواع شرقيّ وغربيّ، شيوعيّ ورأسماليّ، سيارات لاندكروز خارج البيت، صراخ أطفال يتبوّلون في الشوارع، مخاط شاعر شعبيّ يزمجرعبر راديو جيب بقصيدة شوباش أخذني الحُلم، ملابس عسكريّة مزوّقة بالشارات وجوه ترابية، جيران يضحكون. جرجرني رجال الأمن وقتها مثل معزة، سحلوني مثل جرذٍ ميت مثل يربوع. أُهان بملايين الكلمات القاسية، بملايين ابن القحبة، القحبة التي تراكضت في هذا الوطن الزائف والملعون تحمل منشورات الحزب الشيوعيّ لتوزِّعها.

***

أبكي الآن يا أمّي وأمجّ من قنينة العرق مترنّحًا متذكرًا رعبك، متذكرًا بهاء قامتك النسرينيّة وأنت تسيرين في مستشفى الطوارئ ممرّضة، بعقصة شعر أحمر. الساعة تقترب من العاشرة صباحًا. يرنّ الهاتف بإلحاح في غرفة الممرضات يا إلهي! أكثر من مرة وفي كل مرة يبقى وقتاً طويلًا كريهًا يرنّ، تتقدّم إحدى الممرضات وترفع السماعة، تطلبك، تأتين بهدوء، بهدوء سماوي ومجدلي، أكثر رقة من شاروبيم، تنظر الممرضة إلى وجهك، لا تريد أن تغادر. آلو.. آلو.. آلو. تحاولين أن تفهمي لكن على الطرف الآخر ارتباك، تشوش، بطء، مرارة، قسوة، ارتجاف غشاء عضلة القلب.

تحنين رأسك قليلا وتحاولين الاستماع بشكل أكثر تركيزًا.. ماذا؟ آلو... آلو. تضغطين بأصابعك على الأذن الأخرى تقولين بتشوش وتستديرين إلى جهة الحائط: ماذا؟ هناك لعثمة لا أستطيع أن أسمع، تنظرين إلى الممرضة الواقفة قربك وتلمحين لها أن تطفئ المذياع منذ متّى؟ تعودين للتركيز على المكالمة. يقول الصوت الآخر بتقطع: الآن خرجوا من بيتك، فتّشوه، رجال بملابس مدنيّة، رجال أمن بسيارات فولكسفاجن وفيات G L وينقطع الصوت وصمت قاتل. صفارة العدم تنطلق من السماعة، رعشة خفيفة تسري في كلّ جسمك، تحدّقين في العدم، زغب ذراعك يقشعرّ، تصابين بتنمّل عمودك الفقري وسكاكين طويلة تعبث في أجساد مكوّمة على الأرصفة. تتمنّين أن تسمعي تفاصيل أكثر. لكن، لا صوت في السماعة. فقط الحيرة المتأجّجة وصفارة مموهة بالهلاك. في تلك اللحظة حدث شيء غير متوقّع، شيء لا تفهمينه، ولأنك لا تفهمينه فأنك تضطربين مثل دودة متوحّشة تسير على جثة، ترتمين على الكرسي ووخزات على طول ربلة ساقك، وتلتصق الساق بالساق، حذاؤك المطاطي الأبيض يجمع عرقك ويطلقه نحو العالم. متاهة من الأفكار، ضوء نافر لكنه مصفَرّ يقتحم ستارة النافذة وتشعرين فجأة بعصف سريع مثل قنبلة تفجّر المكان. شيء من العبث مع ضوء يضنيك اضطرابًا، لعثمة. تتساقط أمامك فجأة أضواء بعيدة وتتخيّلين أن العالم بدأ بالانهيار، تحاولين النهوض، تفكرين بملايين الأشياء، زوجك، الأطفال، الكتب، قسائم الكسب الحزبيّ، إشارات التعارف. الممرضة الواقفة تنظر إلى وجهك ببرود تحاول أن تعرف سر الاصفرار المفاجئ. طرق غريبة تنغلق أمامك وأنت تنظرين إلى نهاية أكوان غاية في البعد. هل يمكن أن ينتهي كل شيء؟ كما حدث في 8 شباط عام 1963 عندما اقتحم البعثيّون البيوت. وكما فعلنا نحن – الشيوعيين – في عام 1959؟ تتذكرين؟ هل الذاكرة مخربة إلى هذا الحد وغير قادرة على نسيان

أعوام الهزيمة المُرَّة وتضحيات هائلة وموت في الشوارع. نقطة سوداء تكبر وتصل إلى النقطة الحرجة والنقطة الحرجة، هي مخيلة مرضوضة بفعل القتل والسحل وبقر البطون.

تنهضين الآن، الأصابع مرتبكة وبصاق خفيف يتطاير متناثرًا من بين الشفتين. تنزعين روب التمريض والقلنسوة البيضاء بالخطّ الأسود، تسيرين بثبات باتجاه ممرات بيضاء. إنه العدم. ولا رؤية غير بياض الأسرّة والممرات المشحونة بضوء بارد يتسلّل من بوابات تفتح وتغلق بسرعات متفاوتة.

في 8 شباط 1963 كنتِ تمارسين عملك في المستشفى عندما دخل الشيوعيّون وهم يحملون إصابات دامية، وبمجرد أن بدأ الصباح ينثر دمه امتلأت ممرات المستشفى بالمصابين. كنت تتنقلين بين الأرجل والأيدي المدماة. عيون الموتى المتجمّدة وعيون الجرحى المكويّة. ليل طويل منح الآخرين فرص الهرب لكن الزعيم عبد الكريم قاسم[1] كان يقاوم. تحاولين مع رفيقاتك الاستماع إلى الشائعات. عبد الكريم لم يزل يقاوم، عبد الكريم معه ثلةٌ من الجنود والعرفاء – أبناء الشعب – حطّموا آلاف الجماجم البعثيّة، الفاشيست أعداء الجمهوريّة. يعيش الزعيم، تعيش الجمهوريّة، تعيش ثورة 14 تموز والخونة إلى الجحيم. ثم يرين صمت مخيف على المذياع والعيون تحدق وتمتدّ آلاف الأصابع والجراح وأصوات الرصاص تتناهى من أمكنة بعيدة. انتهى كل شيء. سقط الزعيم وهبت ريح انتقام بعثيّة مخيفة.

***

تسيرين الآن في ممرّ المستشفى تدوسين أحلام الوطن الاشتراكيّ

(1) عبد الكريم قاسم: ضابط عراقيّ، قام بالانقلاب على الحكم الملكيّ وأسس الجمهورية العراقيّة عام 1953

الذي تتيه فكرته وتأمُّلاته في جوف الليل الذي يوشك أن يضرب بأجنحته، تدوسين حقول ملايين الجماجم وآلاف الألسن التي ترغي في برك الدم والرماح والفوضى، تسيرين بعجالة لكنك تشعرين أن العالم الخفي المكنون داخلك قد انهار. الصور الدمويّة تخرج فجأة من الذاكرة. يخرجها جنٌّ غريب بوجوه هلامية باعثة على الغثيان، يخيل إليك أنك تسيرين في مستنقعات من الفولاذ والحديد المتآكل لكنك تستمرين في السير السريع، الجري، الركض، الصفنة على ضفاف الأنهار الملغومة بالموت الجارح، العيون التي تنظر لك مبهورة، تركضين في الممرات، بين أَسِرَّة الحديد، بين الأورام والأوراق والإبر والبدلات البيضاء وعلب التعقيم البخارية. بين المرضى، بين الشمس والضوء الذي يتسلّل عبر النوافذ، بين الطاعون والسل والرمد وقناني الدم الملوّث واللفافات والأدوية وطاولات الأكل وعربات الطعام والمرضى والمشلولين والفقراء والأغنياء والنساء المتشحات بالسواد. يتنامى إليك أنك تسيرين نحو العدم والانبهار والأصوات والكواكب والمجَرّات والآلهة والضياع والخوف. لكن هذا العدم له صوت الاختلاط مع ضجيج صرخات النساء والبكاء على الموتى. كنت تبحثين بعجالة، راكضة، مهرولة، عن اللحظات الأشد قسوة ومكرًا ووجهك تتجمّد فيه العروق والشفاه ترتجف مطلقة أنينًا. تصعدين سيارة الموسكوفيتج – السوفيتيّة – بارتباك وتديرين المحرك، قلبك يخفق، يملأ المكان باضطراباته. العالم ينهار بصورة غريبة ويتحوّل إلى ركام. تتفحصين الشارع بنظرات المجهول وبابتعادك عن المستشفى يداهمك ماهو أكثر إثارة للشفقة من خوف حيوان على وشْك الموت.

أثناء قيادتك للسيارة يوخزك الإحساس المُعَثلب لك وإحساس العمل الحزبيّ، أو ما يمكن تسميته بالتناثر البارد لكرات البلياردو وصوت الارتطام الجامد، لكن هل يمكنك الفرار الآن فيما إحساس الانهدام يرمي

عليك ثقله؟ لم يكن هناك من اتجاه. يمكن الهروب إلى الشمس أو إلى الذهن. يمكن أيضا الهروب إلى سطح بارد على قمر مظلم، أو عتمة شفيفة في زنزانة، وهذا الخيار قاتل عندما يرتبط متماسكًا بشدة مع الأيدلوجية ليولّد عنفًا مرعبًا ولذةً للمحقق مع الضحية وفي إطلاق الألم والاستمتاع به. هل تسعفك الذاكرة الآن للإفلات من التربُّص الشديد القسوة الذي نقله لك الشخص المجهول عبر الهاتف؟ هو يعرفك ويعرف مكان عملك، أو هو ربما كمين أعدته الشرطة السريّة. الكارثة، وأنت تفكرين، ربما تكبر في الشوارع. سمعت عن حوادث كثيرة، وكانت قد بدأت قبل أسابيع حملة لاصطياد الشيوعيّين من الشوارع وأماكن العمل. لكن صوت الهاتف يبعث فيك قشعريرة تمتدّ من أعلى رقبتك نزولًا إلى كعب القدم، ومرورًا بالعمود الفقريّ والأمعاء التي بدأت تتقلّص. في روحك وقلبك وفؤادك والمخيلة المتراكضة كأحصنة متعبة في سباق الخيل تحاولين التعرف على هُويّة الذي هاتفك لكنه يبتعد بصوته وكلماته القصيرة مع نخرة الأنف التي تشعرين بها مع صوت الخشخشة المتسارعة لاضطراب خط الهاتف. وأنت تناورين بين السيارات في الشارع، ثم تتوقفين على الجسر المعلّق تلازمك نوبة غثيان وإحساس بعدم القدرة على استفراغ المعدة.

أين يمكن للواحد أن يهرب من هذا الحصار؟ وتتأمّلين فيما أطفال مع عائلات تعبر الجسر وتسمعين الضحكات وصخب النوارس وارتطام الهواء بأعمدة الجسر الشاهقة والموحية بالخوف والرهبة. لكن التفكير بأماكن الاختباء تتطلب بحثًا استقصائيًّا على الأقل ريثما تنجرف العاصفة أو يتم التوصل إلى تفاهم بين موسكو وبغداد. الهواء البارد يبعث فيك نوعًا من الانتعاش. تنظرين إلى شريط كامل من الصراع مع حزب البعث، تحدّقين وقتها في ستائر الغرفة وضوء الشمس يغرقك في ألق مبهر، وحتّى سماعة الهاتف في تلك اللحظات الغير معروفة، كانت تبدو لك أشبه ببوق

القيامة، لماذا القيامة الآن؟ في البحث والتفتيش عن ركائب متروكة وأمتعة بائسة لم يُبقِ منها العقل إلا النثار. وعندما تنظرين إلى ضوء الشمس في ذلك اليوم يبدو لك أنه ينسحب بعيدًا في لحظة واحدة وتكون الغرفة والأرضيات والجدران كلها بلون داكن قتها كنت تفكرين بأشياء تقتنص اللحظة المسكونة برعب يخرج كجنون البحر من مناطق الذهن المتعددة. ربما النسيان قد تسلط عليها في وقت ما، لكن وأنت مبهورة تنظرين إلى هذا الانتشاء الغريب والسريع لوجع الأيام والأزمنة السابقة من الصراع بين الحزب وحزب البعث، يلفك فكر أنْ كان هذا مجرد صراع؟ صراع طويل بين الحزب الشيوعيّ والبعث ويشبه مسلسل كارتون بباي. لمَ اتخذ حزب البعث هذا الموقف وكأنه يريد تصفية الحزب الشيوعيّ؟ ألسنا في جبهة واحدة؟ ويتسلّل إلى ذهنك كلام صدام حسين في ندوة خاصّة عن تصوراته للعمل الحزبيّ والجبهة الوطنيّة التي كان للحزب الشيوعيّ العراقيّ فيها نصيب الأسد وكتابه الصغير الذي أصدره تحت عنوان (خندق واحد أم خندقان). ما الذي يجري هناك؟ تحت الرمل، خلف الكواليس، فيما وراء الأكمة؟ أيكون هو مجرد صراع على سلطة؟ أم تغيرات في المعادلات الدولية؟ ما الذي سيكون عليه موقف الرفاق في موسكو؟ وأنت تنظرين إلى اللعبة المذهلة والمؤلمة وصفحات من تاريخ أسود يُكتب بمداد لاذع.

كنت تناورين الذهن والانحطاط والعودة إلى ما كانت عليه الأيام في عام ١٩٥٩. لكن الذاكرة دائما مولعة بالاختباء خلف أحداث الوجع. تفكرين بذهول، لمَ الذاكرة قاسية إلى حدّ أنها أشبه بسيف حادّ أو شفرة تقترب من الرقبة. في تلك اللحظات السريعة التي تختلط فيها عشرات الأحداث من الواقع والذاكرة والريح والجو والسيارات في الشوارع وأعمدة الجسر المعلق، تحاولين الهروب من أسئلة الواقع ويطرأ إلى ذهنك تخيلات كثيرة بأن البعثيين صقوراً جامحة، منقضة، مثل سراديب

مظلمة تبتلع الآخر إلى نهاية العالم ثم ترميه إلى صمت النسيان أو الموت في أحسن الأحوال.

تقودين السيارة في ذلك اليوم بلا اتّجاه معين متذكرة السّحل، العقاب المدمِّر الذي ابتكره أهل العراق عندما سحلوا العائلة المالكة وسحلوا نوري السعيد، كنت وقتها شابة قادمة في قطار التاسعة صباحا من الناصريّة إلى بغداد. في إجازة من عملك كممرضة هناك. عندما هبطت أولى سلالم القطار لفحتك رائحة دم، دم يشبه عصافير هاربة في هزيع ليل، في حياة ميكانيزماتها ضائعة في الصحراء وبداوتها. عندما هبطت أولى السلالم، لم تتنفسي عطر بغداد الذي تفوح فيه روائح من الرازقي والروز والقرنفل، القرنفل الذي له في روحك ذكرى أليمة، يوم أهدتك صديقتك الأثيرة سليمة حزقيل واحدة منها، أين أنت الآن يا سليمة، هل احتضنتك أرض الربّ؟ على الأقل خرجت من عباءة البداوة الكبيرة.. تسيرين يا أمي في المحطة العالمية في علاوي الحلة تسمعين نوعًا من الحشرجة في السماء صوت يشبه صوت عزف ناي بعيد وكئيب، وفي السماء نوع غير مريح من صرخات مجهولة المصدر. قسوة، يا الله! كيف يتحوّل كل شيء إلى نوتة موسيقيّة طويلة؟ كيف تتحول الآذان والأفواه إلى هذه الكتلة من الغائط؟!

كنت تسيرين على رصيف المحطّة وحرارة خفيفة من صباح تموزي طويل تلفحك. ثم وجوم كبير يلفّ الأرصفة، كأن المكان يشبه مسلخًا مهجورًا. مرحاضًا تفوح منه روائح البول الدمويّ والصديديّ. قرنفلة سليمة حزقيل لم تكن موجودة وعوضًا عنها كان هناك ارتكاض وتقيّؤ. لون سماء بغداد وقتها كان يشبه ترابًا أصفر مسكوبًا في العيون ورائحته تلعق المكان. وعندما وصلت بوابة المحطّة قال لك أحد الحرّاس مبهورًا: هناك ثورة، ثورة يا خاتون، اذهبي إلى البتاوين، انتبهي لنفسك، الجميع هناك، نوري السعيد، خاتون يقولون إن ضابطًا بقر بطنه ويضحك مثل

ضبع وأسنانه متآكلة بسبب التُتن. تتوجهين بلهفة من المحطة إلى الباب الشرقي، من علاوي الحلة، من النفايات والذين يتبولون واقفين وسائلهم الأصفر يسيح على السيقان الملتوية. تتعرّقين في الطريق من القلق وتنتابك حالات من المغص القاتل لأن السماء كانت مقشوطة وصوت لعواء طويل قادم من لا مكان يطوِّق العين الذابلة والمليئة بالنعاس.

في السيارة الصغيرة التي تنقلك إلى الباب الشرقي تستمعين إلى الأحاديث المشوَّهة والمبتورة وحشود الأفواه اللاذعة وميكانيزميات التقلُّص. كنت تلاحظين نوعا باهتا من التشفّي، نوعاً مبهماً من صبغة تَلفُّ أنيابا لكلاب ليلية ترتكض على حافات الغيوم.

بغداد كلها كانت هناك وعندما تصلين ملتهبة من الإثارة المسموعة، من أفواه غير مغسولة. تجدين الحشود تصرخ وارتكاض هيولي. آلاف الوجوه الأميبية تسحل أجسادًا، بقايا أناس الزمن الغابر، تشاهدين عواءً وحشيًّا، ذئابًا، قرودًا، نسانيس، بشراً من العصور الكونيّة الأولى وأطفالًا قادمين من أزمنة غابرة من عمق صحارى خلف السُّدة، من سبع بكار، من سباق الخيل، الأزرمليّ، كرخ، دوريّين، البتاوين، عكد الجام، الصرايف. الصراخ الذي سمعته وقتها كان يشبه اضطرابًا من كثافة أحصنة بملايين القوائم تصهل عندما تجد نفسها أمام نار، نار في وقت يهتزّ فيه الزمن. آلاف الأفواه البشريّة تضحك وأضداد إنسانيّة تتحرّك وتسحل نوري السعيد الذي أُمسِك به في البتاوين. شحم يخرج من الجثة يشبه شحم الأسماك البحريّة المندلقة من مراحيض الشعب الثائر المتضاحك. الصراخ ينطلق من كل مكان وحسوني أبو التكة يشوي وزبائن يأكلون والحبل الذي يجرّ به رئيس الوزراء السابق ملوّث بالدهن والأسفلت واللعاب والعصيّ. تحضر دبابة الانقلابيّين وسط الهياج وتحاول حمل بقايا الجثث المرميّة على الأسفلت إلا أن الشعب يتسلق المكائن الحديديّة ويفكّ الحبال وتُسحب الجثث مرّة أخرى ويتراكضون بها

في الشوارع مرّة أخرى والجموع الهستيرية تصرخ وتعربد وتتراكض.

كنت تشاهدين نوعًا من غمامة سوداء تحيط بالجميع. يا للسماء البلهاء بميلودراما القتل والسحَّل!! ثم وضعوا رأس نوري السعيد تحت إطار (باص) لتنفجر الجمجمة ومعها جماجم أخرى وتتناثر الأمخاخ العجينيّة، ثم يهجم الشعب ويمتصّ الدم والصديد والصرخات والشيزوفرينيا والتمطّي والابتذال والسوقيّة والعري. نساء يتراكضن بعباءتهن ورجال من صمت الصحراء وغابات القيح الأسود والظلام والهستريا يأتون. آلاف الأجساد المتعرقة في ضجيج شمسيّ لاهب، تتدافع لترى الشحم الخزين الممرود في الجثث المتهرئة والممدد على الشارع والأرصفة وفيما الهستريا الجماعيّة تجتاح المكان، تبحثين في الذاكرة عن سليمة حزقيل، سليمة وهي تملأ لك ورقة الانتماء للحزب الشيوعيّ العراقيّ. كلمات سليمة ما زالت ترنّ في أذنك مثل غيمة ماطرة من سمت بعيد وناء. وفيما ذكرى تلك المرأة تخترق ذهنك، تنظرين إلى الدماء بتيه الافتقاد في داخلك كما الشعب. حقد دفين يشمل العائلة المالكة والإقطاع وفساد السياسيّين، لكن ليس هكذا الانتقام، ليس هكذا تكون الثورة وقتل العائلة المالكة والسياسيّين وسحلهم في الشوارع والتمثيل بجثثهم بحيوانيّة. لكن الجماهير تزحف أمامك. عشرات، آلاف، ربوات، كغيمة مليئة بالمسامير وتتّجه إلى القصر الملكي وبيوت الوزراء. ويُنهب ويسلب ويُحرق كل شيء. وتنتقلين مع الجموع إلى جسر بغداديّ آخر حيث تم تعليق جثة عبد الإله – الوصيّ – على العرش وقَصَّاب محترف يمزّق اللحم بسكاكينه ويرميه إلى الجماهير الغاضبة والمهللة والصارخة، المزيد، نريد الكثير. ويضحك القصّاب وينثر اللحم على الجموع في مهرجان عارم من الضياع الذهني. وتتسائلين وقتها هل هذا، تحديدًا، ما يسمّى نزق الثوار؟

***

عندما اتصلت بي هاتفيًّا كنت ما زلت أعاني من تأثير سكرة الأمس مع صديقي ميري، صوتك كان مرتعشًا، لجوجًا ومتأرجحًا. قلت إن هناك ما هو عاجل. كلماتك مثل صفيح يقرقع تحت المطر. لم أفهمك بمثل هذا الاقتضاب. كنت أعرف أنك لاتتصلين بي إلا لأمر خاصّ – ربما سيىء – وأنّ عَلاقتنا كأمّ وابن كانت في الحضيض، لأنّي ابنك من زوجك السابق، الميت. استلفت ربع دينار من جدّتي وودّعت ميري. ثم ارتديت أسمالي، خرجت إلى الشارع أو العدم أو أي سخافة أخرى. وجدت على بعد مسافة من البيت الرفيق خلف الذي أخذ يطاردني مثل قوّاد ويطالبني بتوقيع استمارة الانتماء إلى حزب البعث. عَهَرة. برد شباط كبير، يجلعني أشبه بماكنة تدور بسرعة خياليّة وأصوات ارتطامات وزيوت تسيح. شعرت بشهوة غريبة للتبوّل على كل شيء، على الوجوه، الحثالة، الذاتيات السائرة ببله الأعوام والقدرة على امتصاص الغائط والشعارات والهُتاف للقيادة. الأصابع تهتزّ بفعل التدخين والجلغ، أصابعي كسَعْف، أشعر بها، كطائر الزّق، كقطّة في حالة ولادة حيث ينفلق الفرج إلى النهاية ليخرج الجسم الجديد.

لم أجد في الجوار ولا في أيّ مكان آخر مرحاضًا. تبوَّلت خلف نخلة عراقيّة، نخلة شامخة بروح البعث والبرق والرعد. كنت أضحك وأنا أبول بروح ملتوية وكأنّما أسافر على الأجنحة السماويّة للملائكة. سيارات الشرطة تزحف على الشوارع مثل ديدان على كل حياتك. جاء مدير المدرسة المسائيّة التي درست فيها يوماً ما، وبعد أن اقتحم الصَّف بنزق البعثيّ وأغلق الباب، طلب من كل شخص غير بعثيّ التوقيع على استمارة الانتماء لحزب البعث، واستمارة أخرى بأن لا تنتمي إلى حزب غير حزب البعث، وإذا ثبت العكس، تعدم. أسهل شيء في هذا الوطن هو الإعدام.

بُصاق، تفال، العالم كله يبصق عليك. يجدر أن تتخيل، تتزحلق في هذا الوطن من دون إرادة منك. بعث في كل مكان، بعث في المراحيض،

في الهواء في العاصفة، في علاوي الحلة، في الدرابين، في الأزقّة، في مستشفيات الأمراض العقليّة، في البارات، في مستشفى المجانين، في بيوت القحاب، في الدوائر الرسميّة وغير الرسميّة، في العيادات والعيادات الخاصة بالأمراض التناسليّة الجلديّة والزهري وأمراض السيلانات. الوطن كبير، إلى الدرجة التي يخنقك فيها. يعاملك كأنّك كلب أجرب تهزُّ ذنبك وتعوي وتهرب إلى المزابل والمستشفيات والأمراض الذهنيّة أو تتزوّج جنيّة وتخلص من كل شيء.

دخلت مرحاض المدرسة وقتها، بعد خروج المدير من الصّف ودخّنت أربعة أعقاب سجائر وعود عنب. وعندما خرجت وجدت أمامي لافتة كبيرة كُتِب عليها: (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة). (الطالب الجيد هو البعثي الجيد).

أبصق عليكم في روحي الخفيّة لكنّي أخافكم. أرتعب منكم. أحد الأولاد رفض التوقيع على استمارة الإعدام في الصف. تم إخراجه وبعد أيام اختفى. قالوا إن أهله – شيوعيون أمّه تكسب الرجال للحزب عن طريق القُبل والدُّبر. شعرت بتقزز، هم لا يريدون استمارة الانتماء للحزب بالقدر الذي يريدون فيه توقيعك على استمارة الإعدام. في طريقي إلى موقف الباص اختفى الرفيق خَلَف لكنّي التقيت بسعد الخبل صرخت به – بارود سكين وملح – لاحقني مسافة طويلة، سعد ابنٌ بعثيٌّ قديم تم سحل والده أمامه من قبل الشيوعيّين عام ١٩٥٩ وهم يهتفون بارود سكين وملح، منذ ذلك اليوم أصبح هذا الشخص يرتعد ويتشنّج لسماع هذه العبارة، غالبا ما كنّا نمرّ من أمام بيت سعد ونصرخ – بارود – فيخرج المسكين كشيطان يتأجّج ليطاردنا.

وصلت موقف الباص لاهثًا ومرتعشًا، شعرت أنّي أختنق بسبب كثرة التدخين والجلغ، ولا يمكنني الركض لعشرة أمتار.

في موقف الباص وفيما كنت أبحث عن سيجارة توقَّفت أمامي سيارة الشرطة وترجل منها الشرطيّ الحقير – أبو بعث – وقف أمامي مثل أي إنسان شرس وطلب منّي – بلكنة تكريتيّة – أن أراجع مركز شرطة اليرموك لتجديد معلوماتي الأمنيّة في بطاقة المعلومات المركزيّة. جاء الباص وتعلّقت به مثل شيوعيّ يلتصق بك ليكسبك إلى حزبه.

في الباص كنت أشعر أني أضيع في غمامة من الوهم، عالم من البعثيين يزأر في كل مكان. كان بالإمكان رؤية روح البعث تلف اللصوص والقوادين والرعاع والنصب التذكارية. مشهد للخراب المتأصل وأنت تنتظر ساعات كاملة وفي النهاية يجيئ الباص مليئًا ومحشورًا بالبشْر. كنت تستطيع في زوبعة البرد الشباطي الذي يلف كل شيء أن تجد روحك هاربة ومستلبة وأنت أشبه بكلب أجرب يطارد الفراشات.

في الباص الذي تعلقت به بعد مأساة الانتظار، كنت أفكر في سبب اتصالك بي. لمَ لم تتصلي بزوجك؟ أنا لست إلا نكرة في ذهنك و... روحك.

أشعر بارتجاف في شفتيّ ونوع من الاكتئاب يحلَّق في ذهني. من نافذة الباص أشاهد ضوء النهار وهو يدفع بعيوننا إلى مسافات عائمة بلا حدود. أصل الباب الشرقيّ ومن هناك أستقلّ الباص إلى مدينة الثورة. وعندما أصل هذه المدينة النائمة على القاذورات والأوساخ والجيف المتنّقلة والمخلوقة من ميثالوجيا الكره والوساخة واللعبان نفس، أقف عاريًا ومملوءًا بالتفاهة أمام البيت.. تُفتح البوابة الحديديّة بصراخ القلاع المتروكة وتستقبلني ربّة البيت بملابسها السوداء وعباءتها الحائلة اللون ومؤخّرتها الناشفة ولا أستطيع التفكير بأنها مشروع جديد للجلغ، أسير خطوات و.. أجدك متكوِّرة في الغرفة الوحيدة في البيت وصور علي بن أبي طالب وجيفارا ولينين والحسين معلّقة بخيوط جنبًا إلى جنب. وعلى

أفرشة مليئة بالعثة أجلس قربك مثل آلهة تركها الأبناء والرهبان، تخبريني عن كل ما حدث بوَجَل وارتباك وتيهان. أقول إنك مضطربة، مضطربة جدًّا. ربما هي كذبة، أقول وأمسك يدك وأنت ترتعشين. كنت وقتها عبارة عن حنجرة مرتبكة وقلقة، حنجرة بلا صوت مسموع وبلا فوارز ونقاط. تقولين: ليست هي كذبة، الوضع سيئ جدا ويتطور بسرعة، قبل أيام اقتحموا مقر الجريدة[1] انهار كثير من الرفاق في التحقيقات، زوجي يشعر أنه مراقب بشكل حثيث. سيعتقلوه الآن أو غدا. أحاول أن أهدئ من روعك، تنحنين على يدي وتبكين. فتشوا البيت تقولين: الأمن يبحث عنّي الآن. البيت مليء بأوراق الحزب؟ أنا تائهة لا أستطيع التصرّف، ربما انهارت منظمتنا ولا أعرف مصير الأطفال، من سيعود بهم من المدرسة؟ أنظر في وجهك وأقول: ألم أقل لك سابقًا اتركي هذا الحزب؟ وتعترضين بقوة. تناوليني عناوين لأماكن تواجد زوجك المحتملة. أبحث عنه في كل مكان، جده بسرعة، قل له إن البيت مراقب. لا تدعه يقترب منه أرجوك. أنظر بتيهان إلى النافذة الصغيرة في الغرفة والمظللة بخرقة بائسة، ربّة البيت تقف مكتوفة الأيدي عند

الباب لكنّي ألمح قلقها.. الحزب يُطارَد هل تعرف هذا؟ تقولين بتشنُّج: أحاول أن أقول لك إنّكم تقامرون، بينكم خونة. قلت لك لا تتبعي زوجك طلِّقيه. تنظرين في عينيّ مباشرة. لا تتحدث عمّا قلته لي سابقا، أنقذ الأطفال الآن، دبِّر لهم مكانًا ثم ابحث عن زوجي، آه نسيت خذ السيارة إلى عليّ شقيق زوجي، من الخطر أن تبقى هنا. أسأل: أنا أم السيارة؟ تجيب: السيارة طبعًا.

***

(1) الجريدة: المقصود بها جريدة طريق الشعب، الجريدة الرسميّة للحزب الشيوعيّ العراقيّ.

أخرج من البيت الذي تختبئين فيه وأضيع في طرقات العالم. أفكر فيك مثل نبيّ وأحسّ بغُصّة قوية تصعد إلى الزردوم، كم مرة قلت لك؟ اتركي الحزب الشيوعي واتركي زوجك، عليهم اللعنة. أتذكّر كل أحاديثي معك، أفكر بالنقاشات التي جرت بيننا، العصبيّة، الاندساس عميقًا في الأرض وكأنّما أحاول الهرب من القسوة، من الألم الذي يحلّق كما النسور في حياتي. قلت لك أيضا، إنهم سرّاق وأبناء كلب، كل الذين يأتون، يجيئون برغبة الاستعلاء المرير، ما كانوا يحبّون الشعب. ألا تتذكرين كلام سليمة حزقيل عنهم؟ . كانوا عبارة عن ممسوسين وطلاب سلطة. أتذكّر الآن كيف كنت، ولم أزل، بالنسبة لك أشيئًا على الهامش، لقية غير فريدة تركتها للنسيان. لم أشعر يومًا أنّي ابنك. كنت مشغولة كل الوقت بالتباسات زوجك، بالتباسات أطفالك والحزب. كل وقتك لهم. كنت أشعر بهامشيتي المريرة في حياتك ويتصاعد إلى ذهني أنّي من الماضي. الغيرة دمّرتني. الالتباس بمعرفة الضياع والغرق فيه كان سمةً أزليّة في روحي، حتى إنّي كنت أشعر بكينونتي مخلوقة من العدم ولست إلا إلهاً جديداً في هذا العالم. لكن رغبة الانتقام كانت تتجذّر فيَّ عميقا، تنغرز كما السّكين في ظهري وحلقي وأشعر برغبة قويذة لابتزاز الجسد وشنقه.

فكّرت مرات كثيرة تحت طائلة الهجر بأن أترك العالم. الشعور بالانتهاك الذي يحيطني يمكنني من التفكير في مخارج لأيام الزمن، الزمن الوحيد الذي يجعلني أفكر في الضياع والهروب نحو الانتقام، كهاجس، كوجع، كانتحار، كاستيحاش.

في عبور الأزمنة وأنت تختبئين الآن أتذكّر صباحاتي الميتة من دونك، يا الله! صباحاتي التي كنت أستيقظ فيها وأنا أشعر بالاختناق. شعور مرير بأن تحسّ صدرك يكاد ينفجر وما من وسيلة لتفريغ شَحنات العاطفة التي تلبسك. تتمتعين أنت بأطفالك وزوجك الجديد وحزبك، فيما أنا أجرُّ

موكب العزاء على روحي. في كل مساء، في كل هجير، في كل أرض بها سوسنة الجبال، في كل عاقول الصحارى، في كل ليلة عندما يمسدني الله بأصابعه الزبرجديّة وأشمّ رائحة المرّ واللبان. كنت أبكي أمامه، أبكي توحّدي الغريب وأنا في هجرات العالم الذي تركني وحدي، كنت أنتظر يوم الخميس في كل مراحل حياتي. يوم الخميس الذي تأتين فيه أو لا تأتين لرؤيتي وأنا عند جدّتي. فأغرق أمامك أو في أحلامي في سهوب رائعة من حبك. كنت أقبّل حذاءك وأصابعك وعقصة الشعر الأحمر وعطر الكلامور المختبئ خلف شحمة أذنك، كنت أشعر أنك كرهتني مثل عيسو يا أمي. مثلما كره الله النكرات في هذا العالم، مثل سفينة آيلة إلى الخراب، مثل مدينة عاهرة استحقت غضب ربّ الجنود.

كنت أستيقظ كل صباح وأروي لنفسي أحلامي. تتكرّر في مناماتي قصص الوحوش تتكرّر في أحلامي هجراتك العظيمة وأنت مثل طائر أنكر أطفاله. لا أعرف على وجه التحديد لِمَ تعاودني بشدّة هذه الرزايا الآن. هذه التذكارات وكأنّ بي أمام حدث كبير يتكوّن، إنّه الهروب، هروبك. أعيش في هذه اللحظة، وفيما أفكر فيك، بان العالم الذي كونته من ضياعاتك، من النزر القليل منك، يكاد يفرّ مني. لا يمكنني نكران التشفّي بما آل إليه مصير حزبك. لكن في الوقت ذاته أشعر أن العالم البسيط الذي يتكوّن من رؤيتك لبعض الوقت، يهرب منّي الآن. إنّه يتسرّب من بين أصابعي كرملٍ، أوراق أشجار ذابلة تنتهكها العاصفة.. أقف الآن مثل عضاءة وسط هذا العالم. الريح قويّة، مهدّدة، وأنا مشنوق بحبل نكرانك لي، كنت أتذكر، بنوع مدّنس بالشيزوفرينيا، أنّي عالة على هذا العالم، أتذكّر يوم غادرتِ منزلنا وتركتني وعندما سألت جدتي عنك قالت: ذهبت تتزوج، يا للخبال! أمي!، مذاك أعلن الله عليّ الحرب. أعلنت أن أنصاف النهار تساوي أرباع الليل وأنّ الموت أكثر من الحقيقة ولم أفهم وقتها ما الذي يعنيه زواجك.

إلا أنّي أدركت بعد ذلك أنك ستنامين مع رجل غيري. تركتني أنتهب فراشي مع شراشف مبللة بكل دموع العالم. تركتني أغرق سريري كل يوم بسقف عدم كفاية حبّك أو شهوة طفولتي، أو أنتظر موعد زيارتك في وسخ انتظاراتي الأبديّة وأنا في كوخي الهمجيّ بانتظار عطاءاتك. وعندما تزوّجتِ وصنعت أطفالًا، هجرتني يا أمّي. صارت زياراتك متقطّعة، متباعدة.

كم كان مؤلمًا، سحيقًا ونائيا، متتاليًا ومتباعدًا، أن أنتظرك أيّتها الضائعة في دروب وطرقات بلا نهاية برغم ابتعادك وكره زوجك لي وهروبك إلى عالمه، كنت أقول لك أرجوك يا أمّي اتركي هذا الحزب، اتركي كل عوالم زوجك الذي غزل حولك ملايين الخيوط. كنت لا تقدرين، بدافع الزوجيّة، إلا أن تدافعي عنه. كنت تقولين إنّك تريدني أن أترك الحزب الشيوعيّ ليس لأنّه حزب بائس مثلما تقول ولكن لأنّك تكره زوجي الشيوعيّ، تكره أطفالي. هل هذا ممكن؟ أقول: لا لا أكره الأطفال ولا زوجك وتعرفين أنّي أكذب وكنت أكذب فعلًا، كنت أريد أن أقتل زوجك، أن أُميته. حلمت مرارًا بأنّي أمسك سكينًا وأطعنه. أعشق أن أقتله وأن أرى الدماء على وجهي وأصابعي ثم ألحس السكين، أشرب الدم وأعوي مثل ذئب جريح. لكن لا يا أمي ليس بسبب هذا فقط. إنما الإشاعات، الإشاعات دمرتني وهي تقول إن الشيوعيّات يمنحن جسدهنّ للكسب الحزبيّ. كنت أتألم جدّا وبصمت أموت كل لحظة وأجلس في فراشي تائهًا. كنت أشعر بالعار، بالدونيّة، باليأس بسبب زوجك الذي جعلك شيوعيّة مرة أخرى بعد أن تركت الحزب سابقًا. كنت أشاهدك في الحفلات التي يقيمها زوجك في البيت. حفلات سكر وعربدة وأصدقاء شيوعيّين ورقص وابتذال، والشيوعيّات في أحضان من يريدون كسبهم للحزب. وكنت أرتعش عندما تمرّ في ذهني صور معربدة عنك. لا، لا أستطيع تخيل هذا الأمر.

كنت أقول لك لِمَ هذه الحفلات؟ اتركيها وكنت تقولين: لا أقدر، لا أقدر بسبب زوجي، إنه يحب هذه الحفلات ويستعملها كوسيلة للكسب الحزبيّ. لقد شعرت من زمن سحيق باليأس منك، وكنت أشعر أن زوجك الخنزير لا يحميك، لا تهمّينه في شيء. كنت أشعر صادقًا أنّه تزوّجك لأنّ لديك وظيفةً جيّدةً وسيّارة ومنزل، وهو إنسان مملوص خارج من زرف الحائط. كنت أحسّ أنّه سيدفعك إلى الهاوية. كنت أقول لك اتركيه وكنت ترفضين، وترفضينني أنا بذاتي. وفي يوم همجيّ مثل وجهه صرخت به: أكرهك، أكرهك، اخرج من البيت الآن، اخرج. وأردت بنوبة الهستريا وانحطاطي وهجوم نوبة الجنون قتله. كان ينظر لي ولك بعين شيطانيّة، صامتًا، قاتمًا، مدنّسًا. ولم أعرف أنه سينتقم منك بعدئذٍ. سينتقم بأن يجعلك تنقلين سند ملكية البيت لاسمه تحت ضغط التهديد أنّه سيتركك إن لم تفعلي هذا، كان يُذلّك. قال لك إن لم تنقلي ملكيّة البيت لاسمه سيتركك، يطلقك.

وكان صعبًا عليك. صعبًا أن يطلق رجل امرأة في العراق. في ثقافتنا العربيّة تصبحين محاطة بذكورة الرجال الهمجيّة وألسُن النساء وعهرهنّ ونميمتهُنّ. ستصبحين ضحيةً محطّمة. ولذلك قبلت وغيرتِ ملكيّة البيت لاسمه. وكان شيطانًا خبيثًا وكنت أنت صامتة، هلعة للصّدمة، صدمة ثورتي عليه وتوهّجي وانفعالي وهستيريتي وتهجّمي عليه وتهديدي له بسكين المطبخ، كنت صغيرًا، أجل، كنت صغيرًا جدًّا لكنّي مملوء حبًّا لك، مملوء بالرجولة، مملوء من الروح القدس، وأهجس بإلهام أنّه سيبعث بك هو وحزبه وعهره إلى الجحيم، إلى الجحيم يا أمي، بعد أن جربتِ وامتحنتِ همجيّة حزبهم الشيوعيّ ودكتاتوريّة البروليتاريا إثر المجازر التي ارتكبوها بحقّ الشعب في الموصل وكركوك والنّجف وبغداد والكاظميّة والبصرة عام 1959، عندما سُحل الأبرياء، عندما قُتل الأطفال، عندما هُتكت

أعراض النساء، عندما مُثل بالجثث، عندما بُقرت بطون الحوامل، عندما شنقوا الرجال على أعمدة الكهرباء وهم يصرخون (ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة) ويستدعون قصَّابين للتمثيل بالجثث ونثر اللّحم على جماهيرهم. وجماهيرهم تصرخ وتريد المزيد والمزيد والمزيد. ربّاه!! وهناك سليمة حزقيل صديقتك التي روت لك قصّتها – أقبل أن تكفر بالعراق وتهاجر إلى إسرائيل وبعد أن عُضت يدها وبعد أن طاردها الرفاق القادة من أجل مضاجعتها. وبعد مؤامراتهم عليها وإخبار الشرطة السريّة بأماكن تواجدها ودورها في تنظيم المظاهرات ضدّ الحكم الملكيّ. سرّب الرفاق للشرطة السريّة بأنّها على علاقة مع المخابرات السوفياتيّة ليُحكم عليها بالإعدام شنقًا مثل أيّ خائنٍ.

عندما أتذكّر تلك الحكاياً والمؤامرات، أرتعش، أتوهّج، أشعر بخساستهم وبأنك تمشين في دربهم المليء بالقذارة والحيوانيّة والمثليّة الجنسيّة وهتك أعراض الرفيقات بالقوة والتهديد. كانوا مافيا بكلّ معنى الكلمة بل أسوأ من المافيا عندها قوانين وأصول تعامل. أمّا هم فلا، إذ يبعثون برفاقهم ومؤيّديهم وأصدقائهم إلى الموت من أجل شهواتهم وشذوذهم.

***

من الصومعة التي أنام فيها كل أيامي الحبلى بالبرد ومدفأة – علاء الدين – القديمة في غرفة مصنوعة من التنك، من رائحة النفط الأبيض و(صخام) الطباخ النفطيّ في حياتي، من صباحات مزوقة بثآليل برد ليلة ماطرة وجَدّة بائسة تجمع المطر بأوان من الفافون، بالجرذان التي تهبّ مع أعاصير الشتاء الهمجيّ وأنا فوق حشيّة قديمة مفعّمة برائحة بولي عندما تهاجمني الكوابيس، لأنّي بلا أم تضعني تحت إبطها، أشتهيك وأفكّر أنّني أعيش هنا بين القاذورات وزوجك يستنزف كلّ راتبك ويسافر كلّ صيف

إلى بلغاريا ورومانيا وعندما تطلب جدّتي منك، أمامي، مبلغًا من المال لشراء حقيبة مدرسيّة لي أو فتيلة للمدفأة تنهريننا وتقولين أين تذهبون بالمال الذي تعطيكم إيّاه الحكومة كراتب تقاعد لوالدي؟ وكان التقاعد – المعاش – هزيلًا جدًّا وبائسًا، وعندما أسمعك تنهرين جَدّتي أبكي في وحدة مخيفة في ظلمة هذا الكون متذكّرًا ملابس وأحذية زوجك الإيطاليّة وحفلاته العارمة وصناديق البيرة والعرق وصناديق شراب السنزانو التي يشتريها من راتبك وأنت صاغرة كنت طفلًا لم يبلغ الثامنة تهزّه عصافير هاربة من المكان، كنت اقرأ على ضوء فانوس في غرفة التنك وفي الصباح حينما أذهب إلى المدرسة تكون ملابسي كلها مملوءة برائحة الكيروسين.

تعتريني الدهشة وأنا إزاء الباب المفتوح على العالم حيث أقف متواريًا ومرميًّا بالنبال. أول ما أفعله بعد الخروج من البيت الذي تختبئين فيه أمي، التخلّص من سيارتها الموسكوفيج المركونة قرب الدّار. أركبها وأنا أشعر بزوايا وجع متقلّص يعتصر وجهي وفمي، أقود السيارة بصعوبة وأتوجّه إلى بيت عليّ شقيق زوج أمي. أصل حي العامل حيث يسكن وأجده جالسًا عند عتبة الباب وخلف كرسيّه بُطل عرق موضوع في كيس ورقي أسمر أطلب منه الاحتفاظ بالسيارة لبعض الوقت وأتّجه من هناك إلى مدرسة أطفال أمّي حيث أجدهم يبكون خارج سور المدرسة بعد أن انتهى الدوام ولا أحد ينتظرهم. كنت أشعر أنّي أرنب في حقل كبير جدًّا وبانتظار العاصفة. أتوقّف أمامهم وأنا أشعر بضياع فيزيقيّ، ضياع ملون بالخراب واللا معنى والدهشة والحيرة. أقودهم مثل حيوان هَرِم وأذهب بهم إلى بيت جدهم حيث يقف هذا إزائي مثل معتوه ويسحبَ الأطفال من يدي ويدينني بنظرة الاحتقار والبَلَه. أبصق عليه في سريّ وأقول اللعنة عليك أيّها العاهر ولا أحصل منه على شكر. أتركه وأذهب إلى الجحيم، في جوّ بغداد الذي يضيعني في متاهاته وألغازه. وجوه الخوف تتوالى عليَّ

مثلما توالي الشياطين على ..... مع الخوف والابتذال. بعد ساعات طويلة مشفوعة بإنهاك دينوسيّ أعود إلى البيت، أندسّ في الفراش مثل خبل وأغرق في كوابيس متواصلة.

في صباح اليوم التالي أنهض منهكا وحالة اختناق تأسرني وعيني مملوءة بمخاط الشيطان، من دون أن أتناول فطوري المكوّن من الخبز والشاي أحاول الهرب إلى عالم متكامل من الصراخ والارتكاض واللعنات. جو مذاقه خرائي وكل شيء في ذهني يعوى. عند سكة القطار التي تقسّم حيّ اليرموك، ألتقي وجهًا لوجه أمام الجامع، بشيء أبلهَ طويل له شفتان متهدّلتان والتفال يسيل من فمه دائما مع حدبة ظهري ولحيةً منثورة إلى كل الاتجاهات أضف إلى هذا أنّه متزوج بثلاث نساء وكلهن يمارسن العادة السريّة ووجوههن مملوءة بالندب المتقيّحة، قبل أن ألتفت يمسكني هذا الشيء من زندي بقوة شيطانيّة ويقول لي: لم لا تحضر صلاة الجمعة؟ وأقول له: أعتذر مولاي. لكنّه لا يمنحني مساحة للتفكير ويقول: صلِّ قبل أن يُصلّى عليك. أتخلّص منه وأركض إلى موقف الباص، اللا معنى يطاردني. أشاهد في المحطّة معلم التربية الرياضيّة - البعثيّ - بسيقانه اللقلقيّة وعلكة أبو السهم في فمه و- كَروته - عندما يشاهدني ينجذب نحوي ويحاول التحدُّث بأدب جمّ، ثم يتحوّل كل شيء إلى فوضى وبُصاق متطاير وحك للخصيّة ويقول: إنّه صبرَ طويلًا من أجل كسبي لحزب البعث. أتذلّل أمامه أقف مثل كلب مبلّل على قائمتيه. يقول أيضًا: إنّه مبتئِس منّي ويسألني لماذا لا أكتب تقريرًا للحزب أطلب فيه الانتماء؟ هل أنت معادٍ للحزب والثورة؟ لا... لا أستغفر الله أقول. " يجب ألا تنسى فضل الحزب عليك وعلى الذين خلّفوك يا ساقط، يا عار، يا خنيوة "، يقول. ثم يضيف: "الحزب هو الذي أمّم النفط وهو الذي أوصل الكهرباء إلى الريف وهو الذي صنع مجانيّة التعليم وهو الذي قاد

ثورة محو الأميّة" وبتأتأة أجيب: "نعم... نعم، أعرف، أعرف". ويناولني ورقة بغضب ويقول:"وقع هنا... هنا... أراوغ مثل ذبابة، مثل ضبع،، مثل بقّة وعندما يهطل المطر أكون قد ذبت في العاصفة.

الفصل الثاني

اليوم هو يوم جحيميّ آخر، يوم يُضاف إلى السلسلة الطويلة المتفجّرة من النوم تحت سماء منفلتة على جوع وحشي، جوع غريزيّ وأنا في الطبقة العليا من السماء والأرض والميكانيزمات التي تجعلني أعيش وهي ذاتها التي تجعلني أموت، أموت في كتب التاريخ والخفافيش والشياطين والأبالسة والمهووسين وغزوات عاهرة وإماتة شعوب وسبايا وفراديس خاصة من أسلافنا. دعني أُقبّل طيزك أيها الإنكليزي وأنت ترفع راية التنوير في عالم تعس للغاية. ياعزيزي ميري، صديقي وأنت تسافر في هذا العالم تحمل حلمك الفلسفيّ لكن العالم لا يفهمك، يقذفك كما حجر في المستنقعات الضوئيّة العالم ينام على أصوات الدعاء العاهر وعالم ينوء بالرزايا والموت الأخضر والبعث ورجالات السلطة والعقول المصنوعة من أحشاء العاهرات في زمن الخيبة الكبرى كل شيء ضائع وأنا أتبرعم مثل زهرة الموت على قبر اصطناعيّ بلا جثّة ضائع، وأنا أكرع من قنينة العرق الوحيدة في هذا العالم وأتبوّل بولًا ساخنًا رطبًا وفيما أنا منشغل بلذّة الوجع القصديريّ القاتم والمنايا والسحر الأسود ورائحة المغافير

والنحر والعاهرات والجيش الشعبيّ والرفاق أعضاء الفرق الحزبيّة والمسترجلات من نساء الاتحاد العام لنساء العراق، أنوس في تطفيل نفسي وأبول في بنطلوني الوحيد النظيف. "إذا خربت حياتك هنا فإنها خربت في كل العالم". من الذي تفوّه بهذه العبارة الملعونة ونحن نزحف كما الموتى في القبور البلاستيكيّة نحو الآجال المتفسخة والثعبان الأقرع ومنكر ونكير وتقارير الرفاق عن أعداء ثورة ١٧ – ٣٠ تموز المجيدة.

هل سمع الرفاق في القيادة القطريّة وقيادات الشُعب والفرق والأعضاء والأنصار والأنصار المتقدمين والمؤيّدين بعبارة – خربت حياتك هل؟ بهاء أخّاذ يا ميري. من شفق لزج يلوِّث الوجوه والأنوف والأرجل، سائل مخاطيّ يشبه الحنّاء يحيطنا من الجوانب والأعالي والأسافل ولا سماء. لا سماء بعد العاشرة ليلًا ولا في الصباحات ولا أنت تستمع إلى فيروز ووليد الأعظمي بكآبة وهو يقرأ لك ماتيّسر من سورة يوسف في باص ريم ينقلك إلى النهضة ولا تأكل التكة والفشافيش عند حسين الأعور. تسير في شارع الرشيد وحيدًا مع بُطل – قنينة– عرق، بُطل من أجل كل البائسين في الأحزاب العربيّة. البهاء الأقذر، البهاء الطريد من بيئة عربية قذرة وعراق شامخ يصطرع على الفتات وميكانيزميّات القهر والدونيّة.

رجال الأمن في كل مكان، أتشممهم، أنفي يشم عذرتهم، وأبحث عنهم ويبحثون عني. أشبه بديدان الغائط وهي تتّجه إلى المداخل والمخارج بسرعات ميكانيكيّة مجنونة. أضحك، أضحك أيّها الأبالسة والملاعين والسوقة. موقن من دونيتكم وأنتم تتجسّسُون عليّ. إنّهم في كلّ مكان من بغداد، في الجوامع والبارات وكراجات السيارات والعلاوي والنهضة وخلف السّدة ونادي الصيد وفي الذرات والهواء وتقاسيم الكوارك والمذيبات الذريّة. تجدهم يستجدون، تلقاهم يتسوّلون. جواسيس من كل الأنواع ومن كل الجنسيّات، لا تستطيع أن ترمي لشحاذٍ قطعة نقديّة

من دون أن يحدجك، هذا الشحاذ – الشرطيّ – بنظرة الضبع. إنّك تنفتق في الهواء وفي بارات هارون الرشيد والقصور الخياليّة والولدان، آه الولدان، يندسون تحت اللحفان والدفء وارتعاش الخصيّة وتعرق الظهر والاست والتفال والبصاق وسهولة الإيلاج من عدمه. إنّهم يستسهلون إيلاجنا، أولاد القحبة.. وينتهي كل شيء بسلام. الوطن مملوء، يفيض بهم، وهم مثل دود صينيّ، يغزو الأشجار والريح والعاصفة والقلنطوزات والسرو والغَرب والياس والشبو ليلي والدفلة وبكاء النساء الحزينات عند مقام خضر الياس في الجهة الأكثر اعتوارا ووجعا في حياتنا النيوترونية الملغزة بالفلزات وقوانين الفيزياء الحديثة والتوسلات بالأئمة الأطهار وفخاتي الكاظم والهديل السري والطاقة الذرية والشموع والخرق الخضراء والمشاعل والنذور والحناء والخراف التي يلتهمها رجال الدين والكشونجية والدهن يهرب من الأفواه المبجلة برحمة هذه الأمة وعنوان سطوتها الجبارة في الموت طعنا بالدرنفيسات[1] والمحابس في الأصابع المترفة وأحجار جلب الحبيب والصوندات والكيبلات والتقعيد على البُطل والشعبة الخامسة في الاستخبارات العسكرية. طرقات الوطن تتقيأ رجال الجيش الشعبي وقوات الطوارئ في الهواء والعاصفة والموت وجو غريب يلف السماء المطهرة من الدَّنس – نحن – حتى عندما تذهب إلى حافات الانهيار المكتسحة للصلاة (بوصوصة) الدجاج والفحيح الأعمى للنجوم الغارقة في الوحل والغطس أمام القصر الجمهوريّ في الباب الشرقي وشارع أبو نُؤاس والشقق السريّة للمخابرات وأفلام الدعارة، بين الغيوم المتلجلجة بالصلوات العجوز والبق البري ولعبة اللكَو والدجاج المشويّ والديوك المشبوبة بالرغبات الجنسيّة. تتسلّق سياجات البساتين، بساتين قريش، بساتين خير الله طلفاح ويلقون عليك القبض في الوقت

(1) الدرنفيسات: جمع درنفيس، وهو مِفك المسامير اللولبيّة.

الذي أعلن تلفزيون العراق الرفيق القائد، الوريث الوحيد والشرعيّ للسلالة المحمديّة وكأنّ لا شرعيّة لأيّ حاكم من دون نسب محمديّ وكأنّ العراق هو بستان قريش. أمّا نحن العهرة والقوادين والمدلكجيّة والمجبرجيّة والدودكيّة والفلاسفة والنزّاحين وباعة راديوات الترانسستور والمبردات والعتالين والشعراء والكتاب وسواق التاكسيّات وأصحاب البارات والملاهي، مجرد نفايات وعامة وغوغاء.

في صخب المدن الفافونيّة والقرقعة لوجوهنا والتدافع على بضائع الأسواق المركزية بحيوانيّة غريبة، أتذكّرك يا أمي. أتذكّرك مثل ماكنة تنزف سائلا أرجوانيًّا ليس دمًا ولا صبغة الهيموكلوبين، إنّما ملائكة مطعونة في است تكوينها الميتوبلازميّ. أتخيّلك مثل كائن يطير بملايين الأجنحة الناريّة الإخنوخيّة ويهبط إلى العالم. وفي لحظة وهَن الحقيقة، أكتشف الخراب الكبير أو الخواء واللّذة الناقصة والخصوة المتيبسة وسرطانات الغدد اللمفاويّة والبواسير والقولنج وأبو خريان. وأنت تسير في شارع الرشيد وتشرب العرق بالقندرة وتأكل كبّة الكبّة ولفات الباذنجان والبورك وتتمسح بأحذية زبلوق وتنام مع قنادر التمساح وتتقيأ على سطح فندق العهد الجديد منكلا بالصداعات والإحساس بالاحتشاد وضرورة الصرخة على المجهول. أستفيق من أحلامي الشريطيّة والتهابات الأمعاء وابتلاع كميّات هائلة من الفاليوم وشم البنزين وسيارات أم الدخان والأتربة والشوارع غير المبلطة وتراكض الناس للفرقة الحزبيّة للاحتفال بمكرمة التزفيت. وأجدني جالسًا إلى قذارة وقربي طفل صغير يتبوّل في خرابة بستان قريش ورائحة الحموضة تتضخم كما صور الرئيس. بطل عرق واحد أيها السادة والرفاق، وسوف أترك بستان قريش لكم، إلى النهاية. عالم التقارير السريّة واستمارات الانتماء والاجتماعات الحزبيّة ومسؤول يضع بندقيته أمامك وخفارات في الفرقة الحزبيّة وكلّهم يعرفون أنك ابن –

قحبة – شيوعي. ولا يتركونك، لا يتركونك في هذا العالم تشرب وتمضغ جرعة العرق الشافية والملهمة. لا يدعونك تلتهم أحلامك وكوابيسك ونبض قلبك اليائس، وكل يوم كابوس جديد، موت جديد، نستالوجيا ورعب الأمكنة ومطاردات سريّة واقتحام بيوت وعيون وأفواه ومزاغل لحروب سريّة. وبعد ضرب الشيوعيّين جاء دور حزب الدعوة. دوريات شرطة في كل مكان، دوريات للأمن السريّ والجيش الشعبي في الهواء، في العاصفة، في الأتربة، في صحراء توحّدنا، في التاريخ، في علم العروض والمدن والمفعول والمفعول به، وفي أنسابنا القبليّة القذرة. رجال الجيش الشعبيّ والرفاق الحزبيّين وتوسُّلات حتّى لا تُساق إلى التدريبات وتدعي وجود دملة في طيزك ويرسلونك إلى المستشفى وتخجل أن تنزع بنطلونك ويُعرونك بصرخات هستيريّة وأوامر عسكريّة أمام الممرضة والدكتور وطلاب كلية الطب العسكريّ، والكل يبعبص استك يا لهذا الاست!، يا لهذه الاست لوجيا!!

***

اليوم أكملت تعاستي ورضيت بهجرك يا أمي، هجرك القاسي وأنا أبحث في شوارع بغداد عن أي قَوّاد يمكن أن يدلني عليك. أبحث عن نائلة وانفلات الصحراء والصخب الظامئ واللوعة والتوسل والانبهار أذهب إلى الدكتور سميسم في عيادته بمدينة الكاظميّة، وبمجرد أن يشاهدني يرتعب ويترك طاس اللبلبيّ ويتجمّد مثل صنم أمام نبيه أتوسّله، أبوس حذاءه وجواربه وأشمّ رائحة خصيّته التي تشبه رائحة جبن الأوشاري وجواربه وثنيّات بنطلونه وهو مثل كائن شيطاني، يضحك، يضحك بفيدوريّة، بنهلستيّة، بستالينيّة، بارتعاب، بحيونة ميكافيليّة، بانسداد الشرايين وتبوّل الكلاب وذروق العصافير في عينك وحشة دمويّة، عار أبديّ. أتوسّل إليك يا دكتور أنجدني، أخرجني من متاهة تيهي ودينوسيّة الحدث لكن أقول في النهاية.

حتى أنت يا سميسم! حتّى أنت! يا للعنة ويا للنضال الثوريّ وسفراتك إلى المؤتمرات العالميّة للتضامن العالميّ مع جارا والليندي وأيدلوجيّات الخراب الكبير في عصر افتضاض الضمير وتفاهته الماركسيّة أنا المسكين الوحيد في هذا العالم العمالي الواسع، في فيتنام ونيكارغوا وكوبا حيث كنتم تسكرون إلى الصباح وتدخنون السيجار الشيوعيّ الوحيد في العالم الذي تصنعه غانيات الرفيق فيدلّ، حيث لا أبنوس لصلوات الكاهن ولا بخور للدراويش المتوحشة في طرقات البريّة الواسعة ولا ظلام، لا ظلام ولا عزاء للمناويك مثلي. لا عزاء للمبهوتين والضائعين. ستخسر، بل خسرت نفسك وأرضك، أرضك الدمويّة التي شربت من دماء الأنهار المتوحشة وميكانيكيّات الثرم الدمويّ وعلب سريّة للتعذيب في مبولة الوطن، مناشير للحب الفيزيقيّ، في مبولة الوطن طنين الزنابير وغثاء الحيوانات ودبيب النمل وصرير الأسنان وهو يصعد إلى رقبتك مثل إصابة الجلطة الدماغيّة في مبولة الوطن كائنات مصنوعة من الوحشة والدم الأزرق الباهت دم أهل العوجة وتكريت والدور، دم منثور مثل كرات النفتالين التي تتدحرج في حياتنا البائسة وأنت في ساحة بلا نهاية تأكل الأدمغة وتتقيأ أيدلوجيّة الجماهير الرثة والرفاق يهربون ويتطايرون مثل الورق، مثل(النمور في اليوم العاشر) مثل البعوض الخفيف في دنيا الأحلام، مثل الكوابيس التافهة في أحلامنا اليوميّة. لا مزيد من قصائد مغنّاة لجعفر حسن، لا مزيد من مؤتمرات التضامن والسلام العالميّ مع الشعوب وشرب الفودكا والنوم مع الرفيقة ناتاشا وتحبيلها والهروب إلى براغ وبوهيميا حيث العالم الحقيقيّ للنّضال الثوريّ وديكتاتوريّة الطبقة العاملة.

قلت لك يا أمّي إنّهم عهرة.

هذا العالم المرفرف بالشرّ الجديد الذي يصعد على رقاب المخدوعين والكافيار الروسيّ والأيدلوجيّات الحيوانيّة وصراع الطبقات والميتابلازم

والولادة من العذراء الدمويّة. عالم من اللا معنى والتفاهة. أتضرع بحرقة المأثومين يا أمي، بحرقة وجع قاتل يضرب الخصية والبلعوم. وأخرج من عيادة الدكتور سميسم – رفيقك الحزبيّ – الذي أنكرك وأنكرني وقال إنّه لايعرف أي شخص بهذا الاسم، أرجوك، مستحيل، أرجوك، ألم تزرها معي قبل فترة؟ يطردني، يمسكني من – علباتي – ويدفعني إلى الشارع، إلى الكاظميّة، أمام المرضى، أمام باب المراد، أمام باب الحوائج.

في الشارع بعد طردي من العيادة تنفجر في مستوى الوعي العقليّ لي صورة صديقتك سليمة حزقيل، الإثارة هي البحث الديماغوجيّ وبأنف كلب عنك أيّتها البابليّة الأصيلة. أتذكر وأنا أسير باتجاه باب المراد في الكاظم على إيقاع الجورجينا وبوجه بارد ووعث إلى جانب الأرصفة التي امتلأت بالباعة والمنادين والصيارفة وباعة الحمام والبلنكو وعصير الرمان، أحاديثك التي رويتها لي سابقا عن سليمة حزقيل يوم التقتك في المحطة العالميّة، في العلاوي وأنت تتوجهين إلى عملك في الناصريّة. كانت سماء وكانت حياة ولمسة نورانيّة أشرقت فجأة من وجه كبير. في ذلك اليوم وبعد أن عرضت عليك سليمة الانتماء للحزب الشيوعي العراقي شعرت بتدفق روحي كبير منها إليك، مثل الرخ عندما يحلق عاليًا في سماء الميثالوجيا، مثل النور الذي تمنحه الملائكة للصِّدِّيقين، كنت تستمعين إلى سليمة حزقيل وهي تتحدّث عن حبّ الفقراء، عن حب العراق وضرورة انتشال الشعب من براثن المرض والأميّة والجوع، كنت تستأنسين وتتساءلين عن سرّ هذه الحماسة الكبيرة التي تنطلق من جوارحها، ترتحلين عميقًا في إنثروبولوجيا التاريخ. مكتوب أن تمنحك هذه المرأة مرة أخرى كتبها، مثلما مُنحنا من قبل كتبهم وصلاتهم ونيرهم وهوانهم. كنت وأنت تسمعين لها، تتذكّرين الدورة الغريبة للتاريخ، دورة الوجدان والمعرفة والحماسة، دورة الليوث الهاربة في أرض بابليّة

وأيائل وأيقونات. ميخائليات وناحومات. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان والشيزوفرينيا الدينيّة. قيود أبديّة تحت الظلام، في الوعر والهيكل وإيحاءات لأبناء إسماعيل وخيام قيداريّة سوداء وأبنية مهشمّة تحت أجنحة الملائكة. غائيات يا أمي، غائيّات والتماسات وارتكاسات للفهم المهووس بفكرة النبوة.

كنت تعجبين لحماسة هذه المرأة التي صنع أهلها كل تكوينات حياتنا منذ البدء. تمرّ عليك كلماتها وهي تتراكض في محلة التوارت وتحت التكيّة وأبو دودو وعكد الجام وخان دلة، هروبًا من اغتصابها. لم يكن الاغتصاب يهمها كقيمة ماديّة، بل الاغتصاب الذهنيّ، الفكريّ، الشفويّ. وحتّى لا يتكرّر مشهد داوود باشا مع الفيضان والدمار والطاعون الذي سحق بغداد بسبب اضطهاد أهلها وقتها، قلت لها وأنت تخبئينها في فرهود ١٩٤١ لماذا لا تسافرين؟ وتتركين هذا البلد يغرق في أساه؟ وكانت هي أكثر الأعضاء في الحزب الشيوعيّ تشدُّدًا وقوة وإيمانًا. كانت تقول لك بنبرة الثوريّ المجنون والأحلام المخيفة، ومَن لهذا الشعب؟ لايمكنني تركه تحت الجوع والفقر والمرض واللواط واغتصاب الحيوانات والإملاق والاستبداد والطغيان والأميّة والشعوذة والقبليّة والماورائيات الكاذبة وكنت تعجبين لهذا الإخلاص، الإخلاص المؤسَّس على آلاف السنين من الترابط الميتافيزيقيّ مع هذه الأرض. كانت سليمة تحسّ أنّها ابنة النبوءة وابنة المعابد التي أقيمت على الفرات. وعندما حدّث الفرهود الأول صباح يوم ١ حزيران في عيد شعبوث عام ١٩٤١. عندما ساحت الجماهير الرثّة في الشوارع وهي تصرخ متهيّجة مثل نمور مصابة بسعار، كنت أنت يا أمي شاهدًا للزمن الجديد- القديم - شاهدًا أمام النساء وهن يتراكضن في الشوارع مع حمّالين وعتّالين ولصوص وشقاوات وقتلة، ليداهموا بيوت أهلها ويحطمونها ويهتكون الأعراض

ويسلبونها ويحملون المسروقاتِ بفرح مجنون. مهرجان للمورفولوجيا والضحك والصخام وفيما الارتكاظ يصل إلى قمة الدونيّة واللا معنى والتشتت والقصّابين بسكاكينهم الطويلة وقاماتهم ومطاويهم وسواطيرهم ومراويلهم ووزراتهم الدمويّة والكواويد ينتهكون الأعراض. كانت سليمة تضيع في مقولة النهّابين الوهابين. سليمة التي اقتحم الجنون منازل أسرتها واستطعت أنت يا أمي أن توفّري لهم الملجأ. في ذلك الزمن الهمجيّ، في عيد شعبوث، من بين سواطير القصّابين المشرعة للذبح، ولدت رؤى وأحلام غرائبية، رؤى مكتنزة بالالتياع وخطوات ربّ الجنود فوق أرض بابل من جديد. قالت لك سليمة وقتها مع الصدمة المدمرة والمرارة واللا فهم، أيعقل ما حدث؟! معقول أن تصح مقولات أبي؟! معقول أن يأكلني الذئب مرة أخرى بعد أن أطعمته وألبسته؟! وتبكي بحرقة وتكرر كيف يهجم علي عائلتي كل الفقراء الذين أطعمناهم كل سنين حياتنا ويسرقوننا ويسكبون النفط الأسود ويحرقون منازلنا؟

هناك في عتمة الليل بصيصٌ، بصيصٌ من إنسانية. كانوا يسحلون نساءنا في الشوارع ويغتصبوننا مردّدين: (شحلو الفرهود لو يعود يومية). يقتلوننا لمجرد أننا موسويون. أنا التي لم أشعر في يومًا ما، إلا بأني واحدة من هذا الكمّ الهائل من الفقر وتراب الأرض.

كان أبي يقول لي: لا يا ابنتي، لا العاصفة تترك الريح ولا الذئب يترك الطريدة، حتّى لو شبع. وفي استذكارات الجنون والمورفولوجيا والحنّاء المسكوبة على البيوت وخضر الياس وطوفانات ضريح العزير واغتسال أرضه بمياه الأمطار. كان الأب يروي لي ميتافيزيقيا التاريخ، ميكائيليّة الأحداث، خرائيّة النتائج. لاحميميّة الأفكار. كان يروي لي بجنون يوم انبثق الجنّ الأسود وغامتِ الدنيا وحُرق النخل وسُبيت العذارى والنساء واقتيد الرجال.

منذ ذلك اليوم بدأت الفتنة تلتهمهم. كرات من الكبريت المحترق تلهب الوجوه وتنحدر صحبة الجِمال لتشهد أكبر المصارع وأوسع ساحات القتل. ومنذ يوم تقتيلنا وحتّى اليوم عاشوا في بؤس الحاضر وإخصاء المستقبل وتوجوا بمعيّة الشيطان حيث خرج من الوهاد ومن الصحارى والتَهَم العقول والأمخاخ وتصارعوا على السُّلطة والجبروت والرئاسة. لا يا ابنتي، لاتهتمي بهم، لا تدفعي حياتك ثمنًا لهم ولعقلهم اتركيهم لأنّ كل شيء بالنسبة لهم هوالسلطة والرئاسة.. وسليمة وفيما الأب يغرق في استذكاراته بحزن قاتم ترفض هذا وتقول لأمي: كنت أكره منطق علم الأب، منطق إنثروبولجي برجوازي وأنا أؤمن بالماركسيّة وعلم اجتماعها الذي يختلف عن الطرح البرجوازي.غالبًا ما أسفّه أفكاره وبيننا كان صراع فكريّ. أشعر الآن أني هُزمت، هُزمت.

***

أعود إلى أمي في مساء بارد وأنا أشعر أنّ أصابعي تتجمّد وروائح الأبقار والحمير في مدينة الثورة تقتحم أنفي وفمي وتكتسحني. أقترب من البيت الذي تختبئين فيه وعلى الاسيجة رايات الحسين والعباس. أراقب الشارع بقلق الملاحق، وعندما أجد الحمير والبغال والأبقار قد نامت والسعادين والمخبرين ضلّوا الطريق والخفافيش السوداء تُغطي الشوارع ولا قمر هناك أدخل البيت مثل لصّ غير محترف بارتباك الطفولة، بارتباك الصّبا، برعب الحاضر والماضي. أدخله متخفِّيًا مثل عقيل بن أبي طالب عندما ضاع في طرقات الكوفة قبل الاستيلاء على الخراج. تستقبلني أمي بجفاء القلق، بجفاء عدم الرضا. عندما أخبرها بأنّي لم أستطع العثور على زوجها.، تضرب يدًا بيد وينحني جسدها إلى الأرض. آثار قوة مفتتة تبدو بعيدة، لكنها الآن أكثر بُعدًا. ألمح في ضوء شاحب، ارتسامة لحظة الدمع والقلق وقرض الأظافر، ألمح بانبهار حسيّ وكأنّما أهرب إلى التواء

الفكرة، العين التي شاخت قبل الآن، أكثر شيخوخة. أشاهد تضاريس ورياح وعواصف وأُفُق مسدود. أشعر للمرة الأولى بصخب أخّاذ ودونيّة عظيمة تضربني كأنّي متّهم في قفص القتل ورجال السجن يعدون السلاسل لاقتيادي وأسمع الأصوات، أسمع من عمق السجن المُدهش لذاتي ارتباكات الوحدة المريرة وأحاول أن أمسح عنها الدموع وأجنحة الرياح تخفق. ترفع أمي رأسها وكأنّها نمرة منتهكة، مجروحة، وتبكي ابن الكلب، تبكيه. أهجس حرقة في معدتي، ألم مُمض يخربش وجهي بأصوات نواح بعيدة ويندلح في ذاتي. أتحبّه إلى هذا الحدّ؟! أمسّها مثل ملاك ساقط يقبل جمرة وتبكي، تتقلّص عضلات وجهها وباضطراب أحاول التماس الضوء الساقط على شعرها الأحمر والنافذة في الجانب الآخر من الغرفة ترمي إلينا إغفاءات الشمس والتواءات الضوء اللا نهائيّ

أحاول في متاهة المكان تأمّل عقصة الشعر الملوم على قمة الرأس منتهيا كخُصلات إلى الهلاك والبعثرة وإغراءات السقوط على الأكتاف. الهيكل العظمي وبروز عظام الفكّ تبعث في الشعر، في روحه، نزوة عميقة، في ذاته ارتجاسًا ورفرفة لعصافير تكاد تجنّ في صمت المكان المتألّف مع ضوء الشمس المحروس بالنوارس ودكنة الغرفة. فجأة أتحسّس متذوقًا طعم أسلاك الكهرباء، نبض مذاق غريب للنّحاس عندما تفتك به الطبيعة والصدأ الأخضر. كلّما تقفز صورة زوجها إلى ذهني، يتولّد فيّ هزيم مشعّ وكأنّ الطفل الذهنيّ لي ينحدر راكضًا إلى سواحل البحر أو يدرك متصوف اتجاهات الهواء في عمق متاهته الصحراويّة.

العاصفة تضرب، القنافذ تهرب، الكلاب الضّالة تعوي في المزابل. القحولة تتبعثر أمامي، وللمرة الأولى ينمو إلى دماغي أنّي أمامها ليس وجهًا لوجه، إنّما زوبعة أمام عاصفة، ثورة ضديّة للمشاعر النبيلة تتّجه نحو التوحش. أو كأنّ بي رمل إزاء المياه وكل الأيام الماضية التي بيننا تحدث

توترًا لتنساب الغمامة إلى الحدّ الذي تضيع في مجريات الرياح، وأشباح الجنّ، وارتباكات القوة والضعف التي اتّصفت بها بعد بلوغي وهروبي إلى البدء من مرحلة الطفولة محمّلًا بالانتقام. لايمكنك يا أمي فهم الانتقام وجذره اللوغارتميّ، ولا أنا أيضًا أفهم فلسفة المشاعر عندما تتولّد بعيدًا عن مكان الاحتضان الطبيعيّ لها - وجودك - مرارًا حاولت صياغة السلوكيّات الطبيعية بيد أنّي فشلت - بنجاح ساحق - إذ بدا أن مكوّن عقليّ ضاع في مجهول نسياناتك لي. وقتها تكون مسخ من اختلاطات مبهمة لعقل طفولة. فكان الوهم والتلوث سيد الذهن وسيد زوبعة الهستريا والشيزوفرينا التي ضربت عميقًا جدًّا مخيخات العقل، جذوره، الشرودات الناريّة والعصبيّة التي تنقل إلى كيمياء الدماغ فكرة التفكير ذاتها.

تبحث أمي بأصابعها أمامي عن حُلم هارب، عن أسباب ارتعاش أصابعها في إغفاءات الأنهار المتوحشة حيث تعبر الأشبال السهوب المظلمة تتبعها الكسور عديمة الجبر. وأفكر مليًّا في تقلُّصات جسدها، كقنفذ، كقنديل بحر يدفع بالمياه والبحر إلى الخلف، كمناجل نمو الفكرة المتكوّنة من الالتباسات، ويا لها من التباسات! أشعر أنّي أودّ أن أعرف طرقات تسلل الإحباطات الكثيرة في حياتها وتنظر عميقًا في عيني وألمح الصمت الذي يرين واللغة المستفندة واللا جدوى بل الدهشة. تؤنّبُني، تبعث بي إلى مشانق مع حبال مصنوعة من الأظافر والخربشات على الأبواب. أندهش في تلك اللحظات العائمة على الفكرة بالأشباح التي تزورنا دونما أعتراض. تهددنا في الشوارع وكأنّي أمام امرأة أخرى غير أمي. أنحني قليلًا متضلّعًا بالتيه لأُقبّل أصابعها المتعبة والمشققة من أثر البرد وعدم كفاية محبّة التدفئة ورطوبة الغرفة في جفاف أيامنا. أُقبّل أصابعها وتجيب هي كبطل مهلك، في نضوب الميراث الإنسانيّ وبنونيّة ووحدانيّة التائه والصلب المتكتل على ذاته أمام كراريز الظلمة، بشفاه

انتهكتها اعتراضات الحزب على اعتراضاتها وتشرد الرفاق في الضياعات، في الوطن الما ورائي ومصير الحزب الذي وقع كما العصفور في انتهاب البعث.

من المسؤول عن كل هذا؟ القيادة؟ القاعدة؟ كادر الحزب؟ أو تلك العبثيّة المريرة المشفوعة بتثقيف الحزب للأعضاء عن أهميّة الجبهة الوطنيّة مع الرفاق في حزب البعث. تفكر بتوهُّج التوتر والغرق في لُجّة اللا مسرة المرتحلة مثل طفل وراء الكرات الملونة مستذكرة المرارات التي عانى الحزب منها وكأنّه طائر العنقاء يبعث من روح دودة صغيرة دائمًا ويكبر، ثم زاحفًا إلى معاقل الشرّ لينهي أساطير الأولين. لكن الحزب برغم الأخطاء – وهي تفكر بهذا– يغلفه حبّ الجماهير والشغيلة المنهكة ووزر الفقر. هل ستنقذهم الجماهير؟ هل سيلتف الجميع حول الحزب ويمكنه امتصاص الضربة والنهوض من جديد ومقارعة يمين حزب البعث؟ وفيما هي تفكر بالاختلاطات التي عمّت المسيرة يستدعي عقلها الرمز الذهنيّ المفقود للأطفال والزوج، تيه زوجها الحاضر في مملكة الوطن الجحيميّة والتحقيقات المرعبة والكيبلات والصرخات والجهجهة واللهاث بين الأبالسة والرغبة المجنونة في إنقاذه من الهلاك. هل سيقترب من البيت؟ هل سيكون الكمين هشًّا إلى الدرجة التي تجعله قادرًا على النجاة والفرار؟ غير أنّها تعرف زوجها الذي ارتكب العديد من الحماقات ولم يعمل بمبدأ الصيانة الحزبيّة. ترثيه الآن وترثي تهوره ونزعاته القياديّة وحبّ الظهور أمام الرفاق والجيران بنرجسيّة عاليّة الخطورة والإيحاء للآخرين بأنّه قياديّ والتي ربّما ستكلفه الآن حياته، ستكلفه المصير الغامض والمجهول من أن يضيع الأطفال في ثنائيّات الزمن واليتم وستكون الشوارع بمفهموم أهل العراق، البيت والمأوى لهم مع ما يرتبط هذا بالضياع الخلقيّ وترك الدراسة. سيرقد الزوج في زنزانة انفراديّة يأكل الشوربة بطاس الفافون

فيما هي مطاردة ومطلوب القبض عليها. ولم تقدر ليلة أمس فيما كانت بانتظاري، الهروب من سيلانات الأفكار التي لم تمنحها فرصة إغماض العين آخذة النقمة والتهلكة الراقدة. كان السهاد طويلًا ويدفع بها إلى المناطق الذهنيّة الخافية بعيدًا في الدماغ ومناطق الحُلم تشكل ميلودرامات مخيفة، وتقف أمام الباب وعلى الجوانب رجال أمن ببدلات السفاري ولا تتمكّن من معرفة الغرفة التي تجلس فيها، إلا أنّها تسمع من بعيد أصوات طائرات وركاب في قاعات التفتيش وأمامها وجه أسود بلا ملامح واضحة.

أقترب من أمي أكثر وأسمع الأنفاس المتسارعة وكأنّما ركض في فراغ الزمن وأنظر إلى وجهها محاولًا التماس الخيبة الجامدة، وأكاد أعرف مرارة ضياع الأطفال في دنيا التوحش والعمل الحزبيّ. وبرغم الشعور الخفي والغامض الذي أحسّه يقترب منها وهو شعوري أنا، إلا أنّه يطوّح بي نفورٌ غريبٌ حالما أتذكّر زوجها وأعرف أنّها تبحث عنه الآن كفكرة وذهن مرتاع للجنون الذي ضرب الحزب. أقول لها إنّي سوف أبحث عنه وأجده حتمًا قبل أن يلقى عليه القبض. أحدّثها بما يعني أنّ الأطفال في بيت جدهم وأنّه لاخوف عليهم ولا هم يحزنون لكنّها ترفض إذ لا يمكنها الوثوق بي وغالبًا ما تشعر بأنّي ذئب يلتهم أطفالها. أتذكر انفعالها عندما أضرب ابنها فتثور، وأحسّ أنّي أسمع توبيخها الآن، أسمع توعُّدها واقتحامات الصوت لمخيلتي.

تكره أمي قدومي لزيارتهم، إذ كل زيارة تنتهي بصراع، بخصام، بتيهان قلبي ساحلا خيباته الكبرى. أتذكّر صراخك الآن، التعتعة، السائل النازل من فمك، الأجنحة الملائكيّة التي تطير روحي عليها وصوت الرعد همهمتي، وعندما أثور مدمّرا كل الأشياء أمامي بفعل ديمومة حقدي على زوجك أسمع رجس توبيخك فأخرج فارًّا من البيت أو هاربًا ملتهمًا التراب، مع عصف الصيف وسموم اللهيب والشمس التي تلسعني. أشعر بنار متشظية

منذ صباي تدفعني للموت وقتل زوجك، يا الله كم اشتهيت ارتشاف دمه بكأس إمبراطوريّ فيما الملائكة تمجّدُني على جبل الاجتماع.

قبل أن أخرج تقول لي أمي، جد لي مكانًا جديدًا بسرعة، أهل البيت لايريدون بقائي فترة أطول. أنظر إلى وجهها وتصعد ملتوية إلى حلقي مشاعر غامضة وكره ورغبة في ضمها وحيدة. أريد أن أشعر أنّها لي وحدي وأن أجلدها، أضعها على صليب من الدخان وأرميها بسياط قوية في نهايتها كرات معدنيّة صغيرة.. لا أدري كيف أتصرّف أقول لها إنّ كل شيء سيكون مثلما تريدين وأنّه يجب الاعتماد على الله، فتصرخ بوجهي إذ لاتريد ذكره أمامها وتقول بعُجالة اذهب إلى بيت أبو كفاح سائق القطار وقل له إنّ الرفيقة زكية تريد رؤيتك وإذا لم تجده اذهب إلى صيدلية ضمير في ساحة السعدون واسأل عن ضمير الصيدليّ، هذه هي العناوين، قل له يجب أن يأتي سريعًا يجب أن أراه إذا لم تجده اذهب إلى الدكتور سميسم. عندما أهمّ بالخروج تسألني: أين وضعت السيارة؟ فأقول لها عند عليّ قريب زوجك.

***

صباح آخر من الصباحات السّامة، صباح جديد مليء بالتفاهات المشحونة بالقيء واللا حبّ والارتكاض الوحشيّ في شوارع بغداد. برد يصل إلى كل عضلات استك وترتجف وتبحث عن مكان للتبوّل ولاتجد – كالعادة في بغداد – وتفعلها بعد بحث طويل في نفق ساحة التحرير قرب المدخل المؤدّي إلى المطعم الهندي ويشاهدك شرطيٌّ بائس حيوان يشبه البغل له كرش فظيع وابن زانية إضافة إلى أنّه أعور. بعد ذلك يركض الشرطي خلفك وأنت تركض مثل أرنب وهو كسعلاه ويمسك بك ويسحلك مثل نوري السعيد من الياقة، من الزردوم، من الشعر. نازي، فاشيستي، عدو طبقيّ، حاقد وإنسان كافر ويلوي ذراعك ويضعها خلف

ظهرك وأنت تصرخ تصرخ بكل الرعونة المتولّدة عن الألم ورائحة فم الشرطيّ والجيفة من ملابسه ويتقيّأ عليك وتلتصق بوجهك حشرات البق والعصافير المغرّدة ويقال لك في مركز الشرطة بين قحاب البتاوين وجرخجية وباعة سميط وبادم وعربات بلا إطارات عليها رسومات صفراء: لماذا فعلتها يا حيوان، ياحيوان ويرفسك - بجلاق - ومحمودي على ظهرك عند الحافة العليا من عظم الترقوة وتشعر بالمدفع الرهيب يقتحمك وكأنّ الجلاق - الرفسة - المحمودي - فجر حيثيّات حياتك مع البخور ورائحة المحرقات وموسى ينتظر عند جبل التجلّي قرب معمل حلويات الحسنين والغمام كثيف وتشعر برغبة قاتلة للبكاء.

شاب مثلك على أعتاب الرجولة يُهان، يُضرب، تشعر بدونيّتك وأنّك بلا كرامة وأي كرامة وكلّ شيء خراء في الوطن، غائط وفضلات إنسانية تسير في الشوارع تلهث تحت تأثير ٦٠ درجة مئوية وتتدافع أمام الأورزدي باك والإفريقية وتدفعك الأذرع والأكتاف إلى الأبد، إلى البالوعات، المنهولات، السبتتنكات، إلى سيارات النزاحين الرماديّة ومن ثمّ إلى مزارع الخسّ على طريق بعقوبة القديم وسبع بكار والرستمية. خسّ أبو الطوبة، الدهين، الشفاف، الغامق، الملفوف، الشهيّ، مخيف الحجم، يملأ العين حبيب العركجية والمزات والذواقة والزلاطة. وتلفظك رفسة الشرطيّ إلى السماء، خارج الوقت والبخور والزمن النسبيّ والبكاء عند قبر قنبر علي والشموع وساحة السباع وباعة المنهولات والجص والوحشة المطلقة والعربيد الأقرع ووحشة القبر في ضيافة - أبو إصبيع[1] - والدهشة والمثول أمام انفجار قنينة غاز في محل فاضل قرب العيادة الشعبيّة في بعقوبة والألم والنارجيلة والسيفون في المراحيض والموت والأبعاد الثلاثيّة للسنين الضوئيّة ونظريات الكمّ وكتاب الوجود في لواط

(1) أبو أصبيع: دفّان حانوتيّ مشهور في العراق

نيوتن على السفود والقوة الدافعة الكهربائيّة وناتج معادلات المصفوفات واللّوغارتمات وبحوث استنفاد اليورانيوم عبر حث أشعّة غاما والبحث عن النيوترون الضائع في محل كبّة السّراي وجواز اللواط بالدّابة والزوجة من الدبر والبطيخة من الجانب والقطة من الخلف وكتب السيرة وقانون الموائع. وتتذكر حياتك السابقة، حياتك في الصحراء، هناك تتبوّل في كل الأماكن مع النار وخشب الطرفة ودلال القهوة والهيل والليل وجبار عكار والفروة وتبوّل خلف الخيمة وتضرط في أيّ وقت وفي أيّ مكان ومع أيّ كان، هناك حيث لا بوليس، لا شرطة ولا ملاحقات قانونيّة، ولا محكمة الثورة وشرطة الآداب ولا ذئب يأكل شاة ولا كلب ينزو على كلبه ولا سفاح ولا جرائد ولا مجلس قيادة الثورة ولا دولة تخونها وسجون وأماكن تعذيب سريّة. هناك بين العصافير في البراري، حيث أنت الزرزور مع العصافير والواحد مع الذين يبول عليهم الوطن، الوطن البائس. وطن الشرطيّ وابن العوجة والإهانات واللا دهشة من إهانتك من الجماهير الرثّة. وأقول للشرطيّ: لأنّي لم أجد مكانًا فيقول: كذّاب وابن قحبة. ويصفعني وأشعر أنّ وجهي مثل النار ويقول مرة أخرى: لمَ فعلتها؟ وأقسم إنّي دخلت إلى كل المحلات في الباب الشرقي ولم يُسمح لي باستعمال المرحاض، فعملتها بالنفق قرب المدخل المؤدّي إلى المطعم الهنديّ ويصفعني ثالثة ورابعة وثانية ويستعمل كيبلاً معدنيًّا مغلفًا بالنايلون صناعة صينية حقيرة ويهبط على ظهري بالنكال وكأنّي المسيح وأصرخ يا سرسريّة لست المسيح لكنّه يستمرّ وأصحو من الغفوة وأقطع بولي وأضم عضوي تحت ظليّ، شفيعي وحبيبي.

اليوم أردتُ أن أنتحر، أنتحر لأتخلّص من تفاهة العالم وضعفاته بالأوليّات والنهائيّات وهو يركض خلفك بمثل سرعة ملاك ساقط إلى الجحيم لكن لاجحيم هنا، هناك. لا جحيم غير جحيم القائد والقيادة

الحكيمة والثورة الجهنميّة التي تبتلعنا – ثورة ١٧ – ٣٠ تموز. وفيما أنا أركض وأصعد الباصات وأبحث عن السمّ المبهر والقاتل لا زرقه في الوريد، تعلن القيادة الحكيمة زيادة في الرواتب. أسمع الخبر من راديو أحدهم وهو يبعبص فيه بعد أن اشتراه للتوّ من سوق الهرج وتضج الجماهير الرثة في الشوارع، في الباصات، في الأمكنة واللا أمكنة، في المدن المقدّسة بالقباب والأئمة والدراويش والتيهان الدينيّ والدجاج المستورد من البرازيل وبيرة فريدة وعرق وعاهرات رائعات. يا لله، ما أجملهن في نادي الطاحونة الحمراء! وهن يتمايلن ويدعنك إلى أن تقذف فيهن سمومك الحزبية! وحجي حميد وعرق زحلاوي أصيل ومستكي وجنّ ورجال ببدلات مخاطية مستوردة يتقيأون في الشوارع الجانبية حيث تبول الجماهير الرثة في الزوايا وعلى أبواب البيوت في البتاوين والمضاءة إضاءة سيّئة والكلاب التائهة تعوي والجنادب تندب والعصافير تهاجر والقطط تتلّوى والديدان تزحف وتنحني مع موسيقى فؤاد مسعود وديمس روسوس وقحطان العطار ووليد الانضباط وزحف كبير سماويّ، خرافيّ متوحش، إهليلجيّ، تحميليّ، سوداويّ، بلغميّ، هلاميّ. زحف مليوني من الجماهير الرثة جماهير ١٧ – ٣٠ تموز مع الديدان الحلزونيّة. هلاهل، أدعية، أمنيّات، صلوات على النبيّ وبارات مليئة بالرجال والبلغم والعراك والمسدسات والقناني الفارغة وهُويّات رجال الأمن على البلاط وشرطة سريّة وقحاب ونادلات وندلة بمراييل بيضاء وباجة بعد منتصف الليل وسيارات لاندكروز تدور في الأحياء الرثة حيث الجماهير الرثّة تبحث عن مطاعم رثّة وباجة رثّة وقطط سمينة مقطوعة الذنب عوراء ورثة تجلس أمامك وأنت تلتهم الباجة والكوارع والكرشة والرارنج وتخرج من المطعم مثل برميل سينفجر وتبول خارجًا والشتاء مرير وقاسٍ ويضربك الهواء البارد وتزداد ثمالة وتتقيأ في وجوه الجماهير الرثة بعد منتصف

الليل الرث عند الساعة الثانية صباحًا أو الثالثة حيث الفجر والملائكة تجهز خيولها لغزو الأرض مع صلاة الفجر وقراءات وليد الأعظمي لسورة يوسف وحيث الصحون الطائرة في الفضاء وأنيس منصور وكتب (الإنسان روح لا جسد) (ودع القلق وابدأ بالحياة) (وسيرة بني هلال) وظاهرة اليوفو تدمر حياتنا بذبذبات التردد اللاسلكي والطيفي والجرخجي[1] التعبان ببندقية السيمونوف أمام المتحف العراقي ومسلسل ملائكة شارلي والذئب وعيون المدينة والقيادة السياسية الرثة تقول في بيان لمجلس قيادة الثورة الرث، كل يحتفل بطريقته الخاصة الرثة وتحتفل الجماهيرو يحتفل رجال الأمن والأمن العام والمخابرات والأجهزة السرية والعلنية والجماهير الرثة في الشوارع والسيارات الرثة أيضا والأضواء مبهرة استلوجية واتبرز واقفا، رثا، لاهثا. أنين في الأمكنة وفي مكوناتها الذرية ويأتي الصباح الرث (مدمج كالقدح لاصدع فيه) الصباح المخيف والهمجي والدنس والعارم مع لصقة جونسن وفكس وزنبك لدهن المفاصل وتخرج إلى الشارع وتتفاجأ بأصحاب الباصات والكوسترات والفيترجية وملالي الكاظم والكشونجية والكيولية وباعة الملابس الداخلية النسائية وباعة الليف وباعة الشلغم واللبلبي والبيرة والمزة ومعمل إبراهيم حيدر لصناعة أكياس حب شمس وقمر ومطاعم الباقلاء بالدهن وشوربة العدس والباجة والسينمات والإسكافية وباعة سمك الجري والسجائر المفرد وبيض العرب والحفاة والمتسوّلين والرعاع وباعة الماء والشربت والعصير والبلنكو والفلافل مع عنبة الشريس الرائعة والمراحيض العامة المغلقة دائمًا في نفق ساحة التحرير والقحاب والفروخ - باستثناء الدودكيّة - يعلن كل منهم زيادة الأسعار ويلتهب كلّ شيء ويتورّم وتشعر بالدنابل في مؤخّرتك ووجهك وأنفمك وأسنانك وخصيتك والكيس الدهنيّ في نهاية عضوك..

(1) الجرخجي: ناطور البلديّة الذي يحرس المدينة ليلًا.

أنا أزحف الآن رثّا. أزحف بمنكبي ولا أصل ويضيع صوت ديمس روسوس وفؤاد مسعود وتينا جارلس وأحمد الانضباط. بقبقة، اختناق صوت بلوعة مسدودة جزئيًّا سبتتنك مفتوح على عصافير استوائيّة وغابات مطريّة وصحارى بموت أحمر. صوت مجرور وسيفون يتفجّر فجأة في ذهنك. لكن يجب أن تصل. ولايمكنك أن تفعل الكبيرة في الشارع. عليك أن تتذكر الشرطيّ في تبوّلك الأول في نفق ساحة التحرير وأجد نفسي فجأة في مرحاض عموميّ في باب المعظم مرحاض متوحّد ومشابه لخيمة بدوي حيث لاضوء ولا ساحبة هواء ولا نور ولا ظلمة ولا ليل ولا نهار وباب تجعرمتآكلة من الأسفل. مصيبة وماذا ستفعل برائحة الغائط؟ وأقول بحيرة. لا أدري، لا أدري أنّي أُهذي وهناك فتحة صغيرة جدًّا في أعلى المرحاض، ثقب عشوائيّ ملوث بالذباب المتطاير والماكث، أشعل عود ثقاب وأُصاب فورًا بحالة من الإغماء واللوثة العقلية والغثيان، أشاهد مع ضوء عود الثقاب السريع الاشتعال، بقايا براز على الحيطان، طبع أكف، أثر أصابع مسحوبة إلى الأسفل ثم مسحوبة بشكل مائل وتلتقي في النهاية كل الأصابع وتنمحي بينها المسافات.

براز على الجوانب وقرب فتحة التغوط أنبوب سيفون متآكل يمتد بشكل طوليّ وفي المنتصف فتحة كبيرة ورقاقات الحديد متآكلة وبلون أسود. أبو بريص يهز ذيله في الزاوية العليا وآخر أمامك مباشرة، أعقاب سجائر، علبة كيكوز مضروبة الجانب ومثقوبة من الأعلى ومربوطة بسلك كهرباء رفيع صدئ معقود في نهايته مع الطرمبة كي لاتتمّ سرقة العلبة، صفيحة سمنة – دهن زبيدة – متآكلة إلى النصف ولونها بلون الصدأ مع قنينة تراوبي سوداء في الزاوية تفوح منها رائحة قديمة جدًّا وغير نفاذة لسائل الإسفنيك. قدمك فوق مسحة غائط حلزوني مبلل وكعب الحذاء ملوث بالكامل، حنفية مصنوعة من نحاس اصفر تنقط ماءً والجزء المربوط

منها مع أنبوب الماء تلتف عليه شعيرات حبل منعًا لتسرب الماء، حروف منثورة وقلب كيوبيد وسهم يخرج من الجزء الأعلى من القلب وتتّجه نقاط الدم بشكل زاوية منفرجة لتضيع مع نقاط سمراء وسوداء مثيرة وينطفئ العود وأعود مفكّرا بالقدر، بالنتانة، ببغداد، بجماهير الشعب، بصديقي ميري ومشروعه النقدوي متناكفا مع حيوانيتنا، ببرد الشوارع، بتيه. لا نافذة مشرعة على العالم كل شيء في الوطن يذكرك بنافذة السجن. ثقب فقط لخروج ودخول الذباب وتيارات الهواء الباردة جدًّا والتي تصيبك بمغص مستمر. وبعد أن تخرج من المرحاض تدفع نقودًا لا لشيء، فقط لرائحة ملابسك المليئة برائحة البراز. تسير مثقلًا باللؤم بشعور الجيفة، كأنّك من عالم آخر غير عالم العالم.. سيارات الشرطة في كل مكان وبائعات الخضرة بملابسهن السوداء القذرة يفترشن الأرض ورجال المخابرات والأمن والأمن العام وأمن بغداد يداهمون البيوت والشيوعيون يُعلّقون على المراوح والجماهير تصرخ بوجوهنا وترقص في الشوارع تطلب المزيد من البيرة والعرق للشعب المسكين وتتهافت الجماهير على البارات والملاهي الليليّة والقيادة تستورد العاهرات للشعب من الفليبين ومدغشقر والصومال و.....

أمّا عاهرات ألمانيا فهي خاصة بالقيادة، خاصة بهم وحدهم ومن قال إنّهم يستعملون عاهرات أجنبيات؟! أعرف أحدهم يعمل - فيترجيا - في مرآب القيادة القطريّة يقول إنّهم لايستعملون العاهرات الأجنبيّات يستخدمون فقط الكيوليات[1] أحدهم يجنّ عندما تحرك واحدتهن مؤخرتها ثم تجلس في حضنه ولا أعلم لمَ يُجَنّ الواحد - من أهل العوجة - لمرآى الكيوليات. إنّهم من تراب هذه الأرض. مثلنا، من طينتنا، من شعبنا، منا وبينا صدام حسين، من بيوت الطين. متخلّفون، نرجسيّون،

(1) الكيوليات: نساء الغجر

انحطاطيّون، لوطيّون، جلاغة. لا يمكن لتفكيرهم ولا عقلهم البايلوجيّ ولا الغدد الجنسيّة من الوصول لحلم النوم مع ألمانيّة أو إنكليزيّة عكس الشيوعيين. الشيوعيون أكثر ثقافة، تجذّرا، عمقًا مع الوطن، مثل الدرنفيس، يضغط ويفك ويحملون أفكارًا فلسفيّة. أكبر قواد في العالم لايستطيع مجاراتهم ولو كان الجاثليق نفسه. هم لايحبّون الكيوليّات، يحبون الروسيّات، يحبّون أغنية كاتيوشا والرفيقة ناتشا ويموتون على نهدها المتبطّل، الهاطل الكبير الأبيض، الوحشيّ، البروليتاريّ، العرموم، العماليّ، البلشفيّ، الطفوليّ، اليساريّ، وليس التروتسكي، البريجنيفي. وكل الناتشات وللمُصادفة الجميلة يعملن في مصنع سيارات موسكوفيتج ويحببن الفودكا وأسنانهنّ الخلفيّة متآكلة ويضعن ربطات الشعر الحمراء على شعورهنّ ومن الجوانب يبرز السالف الأشقر البهيّ، العظيم، المديد، المهيب المدمر القاتل ومنه أُسّست السّموات وفلسفة الكمّ والنقد البنيويّ ومعادلات الماركسيّة وقانون الكذب العام. كل الرفاق الذين ذهبوا في دورات حزبية ثقافيّة ناموا مع ناتاشا ولحسوه دون شعر ومع القشطة ودونها ومع القشفة ودونها. كل الذين أعرفهم من الشيوعيين يحدثني عن ناتاشا آه ناتاشا آآآآآآآآآآه ناتاشا، امرأة رهيبة أتخيّلها مثل عاهرات المعبد كل فخذ بكبر المجرة ولو جريت ألف عام فلن تصل إلى الفخذ الثاني ومابينهما ودبرهما وكل النساء بالنسبة للرفاق الشيوعيين ناتاشا. لايهم، الخراب في كل مكان. لا أتذكر فيلم (لاتزال الرصاصة في جيبي) لماذا لا أتذكّره أصلًا؟ لا أدري، لا أدري.

أهرب من الجماهير وأدخل البارات المظلمة في بغداد، البارات المليئة بالخفافيش والعسس وعرفاء الأمن والشرطة السريّة ولا أجد صوت أم كلثوم، فقط شعارات القيادة ودوي الجماهير وهتافاتها خارجًا. في البار وبعد القنينة الثالثة يبدأ أحدهم بالصّراخ وصفير الأسنان والعويل والبكاء

والهتاف بحياة صدام حسين ثم ينهار على الأرض ويتفجّر كلّ شيء فجأة، بصاق على النادل وبصاق على الآخرين وفي النهاية تنتهي حفلة السّكر برصاص ومسدسات براوننغ وقنابل يدويّة وسيارات شرطة وعاهرات يهربن وتدافع وأربطة عنق محلولة وأحذية متروكة في الممرّات وأحتسي المزيد والمزيد من العرق. يا لهذا الوطن الجميل!، يا لهذه الأيدولوجيّات المضحكة!!

***

صباحٌ رثّ آخر في العراق، صباحٌ آخر في بغدادنا المنهوبة بأهل العوجة الذين يستعملون مراحيضنا، مراحيض حياتنا، مراحيض بغدادنا وأفكر قبل أن أنهض من الحشية التي أنام عليها بعددهم في بغداد. كم يا ترى ألف، مليون، مليارات؟؟. يا إلهي ما الذي سيحدث لو أنهم تغوطوا سويّة وفي الوقت ذاته؟ اخرج من البيت، الكوخ، الكنج بعد أن تأمّلت الحياة الميتة في وجه جدتي وهي تناولني مصروفي اليوميّ، المصروف المقتطع كما تقول من - زردومها - يا لوجهك النبيل! أضع النقود في جيبي المفتوق. جيبي الذي تضيع فيه العصافير والعالم والطيور المتوحشة والزرافات والمتاهات لكن لامتاهة مثل متاهتي. أصعد الباصات واحدًا بعد الآخر وأذهب لأطمئن على سيارة أمي. حينما أصل بيت علي قريب زوج أمي أجد السيارة الموضوعة في الزريبة قد فككت وبيعت. أبصق في وجه الزمن بصقة صادقة وأترك المكان للبحث عن أبو كفاح سائق القاطرة. في البدء فكرت أن أذهب إلى مكان عمله في السلجية لكنّي خِفت وذهبت إلى بيته. يسكن أبو كفاح في العطيفية، في بيوت السكك قرب النهر بين غابات النخيل واليوكالبتوس والقلنطوزات الشبحيّة. استقبلتني زوجته بعباءة حائلة اللون وبدون أسنان أماميّة مع رائحة بصل وثوم وكراث وفجل وبيض مسلوق.

أدخل البيت وأشمّ رائحة المضاجعة والعنبة بالشريس ورائحة الحموضة. أحذية في كل مكان، أولاده مثل نسانيس، غوريلات، تركض أمامك وتتعلق بالمراوح والأضوية والأشجار والنخيل وأشجار الدفلة وفوق سطح المطبخ وفي الهواء والريح والعاصفة والموت والسعف. أبصق على صورة أبوكفاح في عقلي وأبصق على الحيوانات الطائرة في مستهل بدء الخليقة عندما كان الشيطان لم يزل الملاك الحبيب. لأنّ الله أنكر مخلوقاته وضربهم على أعقابهم وعندما وصلوا الأرض مثل إبراهيم الذي خرج من أرض شنعار إلى الأرض التي باركنا حولها. ضربهم على قفاهم وقال اذهبوا وتناكحوا وعندما تناكحوا، فاحت رائحة الخس والفجل والبصل والمغافير والعنبة بالشريس.

تناولني الزوجة استكانة الشاي بأصابع ملتوية بسبب الروماتيزم مثل الحيّات القروسطية وأعرف كم لمست هذه الأصابع الغائط في اليوم الواحد.. أشرب استكانة الشاي المحروق ويأتي (أبو كفاح) قلقا ومرتبكا ومتأفّفا بسبب الدخان وبهيأة سائق قاطرة يعمل على خط الموصل – بغداد وفي أحيان كثيرة على خط البصرة.

رائحة البصرة لم تزل عالقة فيه. رائحة خبّاز مشويّ وصحارى ونخيل عذب. يريني (أبو كفاح) الكتب الماركسيّة – الإلهيّة – وهو يدسّها في التنّور مع محاضر الاجتماعات وأوراق الكسب الحزبيّ. أنظر بألم إلى وجهه، أشعر بانهزامه، سحقه، تهافت العين وهي ترى كل التاريخ الشخصيّ له يحترق. (أبو كفاح) يجلس القرفصاء أمامي وبنطلونه التركال القصيرالمقلّم ينسحب عن المؤخرة ويظهر طيزه مثل جلد طبل أسود ويبكي في ارتخاء الآجال المقدسة والبرقوق البري ورائحة المطال وسعف النخيل ويقول: الهجمة قوية، قوية جدًّا، أشرس من هجمة عام ١٩٦٣ الهجمة التي انتقم فيها البعثيون منا بعد أن علموا إننا وشينا

بتحضيرات انقلابهم إلى عبد الكريم قاسم والمخابرات السوفياتية. شيء لايصدق ويتناول قنينة العرق القريبة منه ويمتصّ جرعة عنيفة ويبصق على التنّور وفيما أرغي وأزبد وأحيانا أتكلّم بسكون الصمت المهسهس مثل صوت النار وهي تلتهم الكتب يكون(أبو كفاح) في عالم آخر ليس له علاقة بالواقع يحدثني وفيما أشعر بالدوار عن نضالاته السابقة عن النضالات التافهة وكيف أنه كان يكرر في كل تقاريره للقيادة عن الخطأ القاتل للتحالف مع البعث. هو ومجموعة كبيرة من الرفاق في منظمة بغداد قلنا لهم: يا رفاق، يا أحبّة، يا أشراف، يا أبناء فهد وسلام عادل، يا أبناء نزيهة الدليمي، يا أبناء الصرايف، يا أبناء القحبة، يا أبناء الكواويد، يا لوطية بحق الوطن، بحق الوطن السوفياتي، بحق وداعا غوليساري، بحق لينين وماركس وانجلس والثورة الاشتراكية العالمية والطبقة العاملة ودكتاتورية البروليتاريا والديالكتيك.

وبحق الثورة الاسبانية وجارا والليندي وأبو هريرة، ماتفعلونه حماقة كبيرة. كانوا تروتسكيين، تحريفيين، باكونيين من أقصى اليسار والى أقصى اليمين. بلاشفة ومناشفة سفلة. كنا نقول لهم: نبوس طيز كل القيادة ونرجوكم، نرجوكم أن لاتتحالفوا مع البعث، لأنه عاجلا أم آجلا سيشوي على طيزنا البصل. هل نسيتم مافعلناه بهم عام ١٩٥٨؟ هل نسيتم ما فعلناه بهم عام ١٩٥٩؟ هل نسيتم مافعلناه بهم عام ١٩٥٧؟ عندما بلّغنا القلم السريّ في العهد الملكي عن أسماء أعضاء قيادة حزب البعث؟ هل نسيتم ما فعلناه بهم بعد ردة تشرين؟ وما فعلناه بهم عندما كشفنا خطوطهم السريّة لنظام عارف؟ كنا نعرف منذ البدءا منذ أن وضع ماركس أسس رأس المال، منذ أن كانت المخلوقات كلها تسير في البحر، منذ أن خلق الله خير الله طلفاح - حرامي بغداد - ومنذ تكوّن هذا من خلية واحدة كما تقول نظرية النشوء والارتقاء وأمرنا نحن الشيوعيين أن نبتهل لداروين،

نعرف أن البعث سينتقم منا، سينتقم. لكن لافائدة، لافائدة، يا للتروتسكيين المناويك!، وهكذا وصلنا إلى هذا الحال.

بعد أن استمعت مليون سنة من الخريط أ طلبت منه أن يأتي معي قلت له: أمي تريدك. فتقلص مثل حلزون وطردني. طردني بالنعال والمكنسة والبابوج وعباءة زوجته القحبة والرفيقة ناتاشا والفودكا وزياراته إلى الصين الشعبية. أهرب، أهرب منه بين الأشجار، بين النخل، بين الحمير. أهرب مثل عوسج النخل عندما تدفعه الرياح، أهرب بين الغابات المطرية والتأويلات والمناحات وتهديد (أبو كفاح) لي بأني إذا اتصلت به ثانية سيبلغ عني الرفاق في حزب البعث، إنّه يتغيّر الآن يتغيّر وكل شيء انتهى الحزب انتهى، القيادة هربت، الكتب ضاعت، الاجتماعات توقفت، التبرعات اختفت، ميزانية الحزب سرقت، وسيتطوع منذ الآن في الجيش الشعبي.

***

صباح رث تلمودي آخر قادم من اللا مكان. قادم من تفاهة العالم وتفاهة أهل الموصل لأنهم لايعرفون أكلة الباقلاء بالدهن ويسمونها تشريب الباقلاء، مع أن التشريب شيء والباقلاء بالدهن شيء آخر. صباح خرائي ثان وثالث ورابع، وأنت تناور بين الناس وتسير مثل أعرج في متاهات الضياع الدينوسي. أنتظر في موقف الباص من الساعة السابعة صباحا ولا باص في الأفق، مليارات الدولارات تختفي هنا وهناك. دولارات جهنمية، دولارات إلى الصحفيين العرب والأجانب والأفارقة وكل العالم باستثناء العراقيّ وعُديّ صدّام حسين يصعد كل يوم في سيارة جديدة ونحن نُحشر في الباصات والحافلات الحقيرة وبازدحام شديد، باصات للنساء والرجال والكلاب والبعرور وملاصقات حقيرة ودفء نسائيّ يتسلّل إليك عندما تطبق النساء.

عندما تمسّ حتّى ولو شعرة من امرأة تشعر بانتصاب كوني لعضوك الحقير وتتحسّس روحك شيء ما من الثورة الداخلية وانتصابات وسيلانات وخيال جامع جامح فتاك تفرغه كله في ممارسة العادة السريّة في حديقة الزوراء قرب حديقة الحيوانات، خلف قفص الأسد الذي سرقه بليلة عُدي صدّام حسين ووضع بدلًا منه دعلج مهلوس. أتسكع في شارع الرشيد مثل أهبل، مطعون بالدرنفيسات لأبول على الذهن وأنت تمشي بلا هدف لأنّ الأهداف كلها ضاعت. وتطرأ إلى الذهن فكرة الذهاب إلى الدكتورة نجاة زوجة الدكتور سميسم وهي صديقة قديمة لأمي ولربما تحصلت منها على بعض المعلومات.

أصل جامعة بغداد وإلى قسم اللغة الروسيّة في الباب المعظم حيث تعمل. أبحث عن الدكتورة في الأروقة والأقسام وأصعد سلالم وأنزل في عبثيّة جاثوميّذة وعندما يسألني أحد الرفاق الحزبيين عمّا أفعله هنا، أتراجع وأقول له إنّي أبحث عن قسم التاريخ. أخرج من القسم وأجلس في النادي أشرب شايًا سخيفًا وأدخّن بشراهة وأفكر بالخطوة التالية وعمّا سأقوله للدكتورة... أثناء التيه الوحشيّ وانهمام الذات بالبحث عن طريقة بداية للكلام، أشعر أنّي مشتت وباهت وفي طريقي للاضمحلال. يجيء رفيق حزبيّ آخر ويطلب هُويّة الجامعة. أشعر بالارتباك واللعثمة وأحسّ أنّي أغرق في بركة سخيفة من القذروات وأُقاد إلى مكتب ضابط الأمن. أجلس على كرسي مشتت الذهن وأرتعش وأضع رأسي بين يدي وأحس بانضغاط الكتلة واعتصار روحي وكأن أشعة غاما تخترق الانحناءات المتلاصقة في الدماغ. البعثيّون يمرون أمامي، طلاب وأساتذة وينظرون إليّ نظرات شك وريبة، وجوه وقنادر باتا والتمساح وشوارب كثيفة بعثيّة وأفواه حاقدة ونظرات خالية من الرأفة وينمو إلى ذهنك أنّ العالم قد تفرّغ من الرحمة والرعاة المتيبّسين هاجروا مع القطعان إلى الله والغابات

الضائعة متروكة للنَّسيان والذئاب والأضواء المتأرجحة في غرفة متربة ومهجورة تنعي الفئران التي تلتصق بقدمك. العالم فرغ نهائيًّا ولا أحد يمسد رأسك وأنت في الدرك الأدنى من فقدان الإحساس بالعالم والزمن والحياة والتمرُّد واللا معنى والدهشة والرماد المتبقي عقب زيارة اليوفو الأرض بمركباتهم الحيوانيّة والانحراف النفسيّ واختلاط المشاعر في مقبرة الشيخ معروف والضياع في مقبرة النجف والأصوات والبراري والغابات والتصحر وخيول جامحة وصمت وصراخ وعتوّ وأحدهم يصرخ في أذنك فجأة وتلتفت ولا أحد.

وفيما أنا أفكّر بالدكتورة على نحو مشوّش وغريب من عدم وضوح الرؤية يأتي ضابط الأمن ومعه أكثر من رفيق حزبيّ بشوارب ٨ شباط كبيرة مدهونة برائحة التشريب والسجائر، أجلس أمامهم بحذائي المعوجّ وأنصت. يطلب منّي فاصيل عن حياتي:عنوان البيت، المدرسة، أقرب دالّة إلى البيت،اسم إمام الجامع،أسماء أصدقائي، عناوينهم وتفاصيل أخرى عن كل المدارس التي درست فيها.تحسّ أمام ضابط الأمن أنّك عارٍ تمامًا،مقتحَم، منهوب. يجب عليك أن تقول كلّ شيء. فكرت أنّهم سيعتقلون جدتي ويجرجرونها إلى مركز الأمن،ل ستصمد؟ هل ستتوفر على القوة الكافية للمواجهة مثلما واجهتهم يوم اعتقال والدي؟ سألوني عن سبب تواجدي في الجامعة برغم أني لست طالبًا فيها. تحدثت بارتباك أنّي معجب برواية ليرمنتوف – بطل من هذا الزمان– وأنّي جئت لزيارة الدكتورة نجاة لأنّها متخصّصة بالأدب الروسيّ، دخنوا بخبل، الغرفة صارت كمرجل بعد ساعة كاملة من التحقيق أطلقوا سراحي، خرجت من الجامعة بارتباك وشعور أنّي عدت إلى الحياة ثانية، فرح غامر من التحرر. في موقف الباصات وجدت الدكتورة نجاة، اقتربت منها بخطو مرتبك، ظمآن، قلق. قالت لي بعد أن تنحينا جانبا أنّ ليس لديها معلومات عن

أمي. رجتني أن لا آتي إلى الجامعة وأن لا أكلمها ثانية، إنسانيّ أرجوك. كانت بوجه ممتقع وأصابع نحيلة معرقة وشعر جاف متقصف وشعيرات نابتة عند زوايا الفم ورائحة ثاني أوكسيد الكاربون تغطّي المكان. اعتذرت منها، ابتعدت وأنا أحسّ بعالم مغلق من كل الجهات. لا نور، لا ضوء، لا عزاء، لا فانوس، لا لالة[1] فقط عالم من الصمت الكامل والمؤامرة العميقة الجذور في عالم يتوسل البصيص وأن لا بصيص، لا بصيص حتمًا.

الصليل يجتاحني من أفاعٍ جرسية، أصوات في أذني. أكاد أجنّ، نفور عظيم يشبه الصعود إلى الجلجلة، أين أبحث عنك الآن يا أمي؟ في الغيوم الهمجية، أفكر، أموت، أزحف مثل الأفاعي وألتهم التراب، تراب العراق الكبريتيّ المصنوع من أجساد شيطانيّة وأناثيميّة. أضاجع ذاتي كدُودة، لون السماء الحالك يمنحني تراتبا غريبا للموت. أبحث عنك في كل الأماكن، كل الأماكن مشوهة في العراق العظيم. بعثيّون يزحفون عليك مثل الدود يقتحمون أنفك وعينك وبطنك وتتقيأ، وتفاجأ أن القيء عبارة عن شعارات حلزونيّة.

كان ذلك شيئًا مؤلمًا لي وأنا أدور على مراكز الشرطة لأبحث عن أمي. قالوا لي اذهب إلى سجن أبو غريب. ذهبت وسألت وتوسّلت، قبلت إيادي يقذرة، حُولت إلى حيوان ضاج بالموسيقى والضراط. قلت لهم هذا هو اسم أمي، أرجوكم.. توسلتهم أن ينظروا في قوائم السجن، دفعت رشوة، انتظرت قرنًا مع التدخين والقلق والترقب والاهتزاز الروحي وقضم الأظافر واللعب بالأنف. كنت وأنا أنتظر أشبه بموسيقا نشاز تعزف، أشبه بالبوق والطبل، صراخ في شارع ضيق كما يقول جبرا إبراهيم جبرا. مرة واحدة وإلى الأبد كما يقول عبد الستار ناصر. لكن كفافيس ينظر إلى محنتي، زوربا اليونانيّ أيضا وأنا هزيل في سباق الخيول، هزيل إلى الدرجة

(1) لالة: أداة إضاءة تشبه الفانوس بمرآة جانبيّة لعكس أشعّة الضوء.

التي خشيت فيها أن أتحول إلى سماد حيوانيّ فتنبشني الطيور الجامحة.

خرجت من سجن" أبو غريب" خالي الوفاض مدنّسا بالخطيئة، منبوذًا ومجلّلا بالخيبة. الجميع يلعنك ويتعامل معك على أنّك نكرة، مدان، ذليل، خائن، عورة وطنيّة. وطن تعيش فيه كعبد، كقِنٍّ، كلنا عبيد في مملكة الحيوان المتوحش بأنيابه وهي تبقر بطوننا. سلوك البعثيّين انعكاس لسلوك السلطة، دسائسها، ضحكاتهم، جلجلاتهم، جبروتهم. دائما يشعرونك بأنك تافه، سقيم، هزيل، مشكوك فيه، يهربون منك، يعاملونك باعتبارك المنبوذ في هذا الوطن، الذي ارتكب جريمة زنا المحارم. لكن هذه ليست الجريمة الوحيدة التي تستحق العقوبة في هذا الوطن. حالما تمرّ في ذهني ذكرى سالم أ فرّاش المدرسة أ أُصيب بالبلبة واللأواء كان المسكين يرفع سلة المهملات في الزاوية قرب خارطة الوطن العربي، عندما اقتحم مسؤول الصف وصرخ بعصبية، بنزوية: هل هناك من هو غير بعثي؟ ورفع سالم كفّه ببطء وتردّد ثم أخذ يحدّق في مروحة السقف وكأنه لايرى شيئًا. انفتحت عينا المسؤول وكأنّها صدمة، دم، هباء، الشرايين الدقيقة تتفجر في بياض العين، الحاجبان ينعقدان، البشرة غامقة وتتضلع مثل تنكة دهن ثم تتدحرج مع نباح كلاب قرب مكب نفايات تفوح منه روائح متخمرة. لا يمكنك قياس تدفق الخوف الذي سرى في عروقنا، لا لم يسر إنما تفجر، تمرغل في الوحل. لم أزل وبعد سنوات من تلك الحادثة أعيش مع أشباح الخوف ووهم العروق الحمراء في العين والفم الذي يتطاير منه الرَّذاذ، بصاق جامد، كامد، لون أسود وغالبًا ما يقترن مع رائحة خفيفة لديتول وفئران تعبث بساقي وأصابع قدمي أثناء التحقيقات. يتقدّم المسؤول ويدفع بورقة إلى كفّ سالم ويقول: الآن يجب أن توقع استمارة الانتماء، ويتوسّل سالم لكنه يخضع في النهاية لعملية تحويله إلى حيوان أبكم، حيوان يبكي فقط، لم تنفعه شهقاته وتوسلاته ولا نهيقه، ولم

ينفع أيضًا أنه لايقرأ ولا يكتب. وبعد ساعة من زمجرة المسؤول وقع سالم استمارة الانتماء واستمارة الموافقة على الإعدام في حالة الانتماء لحزب غير حزب البعث. هكذا أعلن سالم انبهاره من العالم، من هذا الوطن الجميل والرائع. الوطن الذي لاتتسلق فيه الأشجار ولا تنام تحت سمائه ولا تتقيأ في مراحيضه ولا تبول في مغسلاته ولا تسكر مع عاهراته ولا تشرب عرقه وزحلته ولا تضاجع مخدته، وطن أكبر قليلا من الطكاكيّة لأنّه يضربك دائمًا. في هذا الوطن عصافير تشبه الثعالب ومن أشداق الثعالب يبزغ قمر ملتهب وعلى الأرض ظلمة وفوق الظلمة روحك وهي تتجشّأ وهي تلعن وهي تتناغم وتتضاد في دوامة من الشيزفرينيا. الشيزفرينيا التي تضربنا جميعا باسم الوطن المجنون. الوطن الذي لاينجب قادة بل ملاعين وقواويد وشيوعيين وبعثيين ورجال يلبسون الدشاديش القصيرة ويأتي أحدهم ومعه دولارات كثيرة ويدفع لترتدي دشداشة قصيرة مثله وتطلق لحيتك – طكاكيتك – في وجه العالم.

بعد أبو غريب ذهبت للبحث عن أمي في معتقل آخر – الرضوانيّة – ولم أجدها نصحوني أن أذهب إلى الاستخبارات العسكريّة في الكاظميّة، قرب الشط حيث التنهدات والشهيق ودون فائدة زرت كل المعتقلات، كل السجون، كل دوائر الأمن، ودائما كانت الإجابة: هذا الاسم غير موجود. في النهاية أشفق علي أحدهم وقال: لاتبحث بنفسك يا خرة، جد واسطة[1] ولتكن قوية هراء،خراء،

أين أجد مثل هذه؟ مَن يُعيرُني أهميةً في عالم هائل من الأجهزة الأمنيّة والتشابكات والدسائس والمؤامرات والأجهزة الحزبيّة وشبكات المخبرين العنكبوتيّة. أردت أن أبكي وبكيت فعلًا، بكيت بدموع مستساغة للبلع وأخرى لا. لحست دموعي مثل كلب، مثل قطّ، مثل أذرع بملايين

(1) واسطة: وساطة. دعم من متنفّذ.

المجسات تتلاقفني وتضعني في فم هائل حيث الصُّراخ وصريف الأسنان وحيث الحجر يجرش أسناني بعد إنهاك وبعد إحساس طاغ باللا جدوى، بعد مرور مستمر على مقهى البرلمان واحتساء شاي بلاً طعم وقراءة جرائد مقرفة، بعد طول تأمّل لنستالوجيا الطوابير المليونيّة أمام أورزدي باك شارع الرشيد من أجل شراء بدلة رجاليّة صنع هنغاريا، بعد التفرج على نساء مدينة الثورة وهن يفترشن الأرصفة بمؤخراتهنّ الفظيعة أمام الأورزدي ويبعن الويسكي والتبوغ وسيجار الرفيق كاسترو، بعد تناول فلافل في المربعة، قرب سينما الشعب والدودكية، حيث أخواننا المنتمون إلى حزب البعث بقوة القوميّة العربيّة وعنفوانها وطيزها واستها ومؤخّرتها وجماجمها وتحويلاتها الخارجيّة، أمرّعلى أحد الأقرباء الذين تربطني به علاقة طيّبة، أعرف أنّ له صديق طفولة يعمل فرّاشًا في الأمن العام، مسيح يمكن أن ينقذك من هذه الطوباويّة واللا شيئيّة والتناحريّة والشيزوفرينيّة والنهلستيّة والتكريتيّة والعوجاويّة. عندما أدخل بيت القريب أشاهد العديد من سجادات الصلاة وعشرات الكتب الدينيّة ونعلين. كان يعرف أن أمي شيوعية فيبدأ بالتمرُّد والكذب ويحلف ويتلكأ. متألمًا، أتوسله وأتكلم بتلك اللكنة الشبيهة بمن كُسرت عينه وكأنّما اقترفت كل الكبائر في هذا العالم وأنّي الشرّير، الملعون، الوسواس، الخنّاس، أتوسّل أن يتّصل بصديقه. يجب أن أعرف أين أمي الآن؟ أرجوك أُقبليدكْ كفّك، ذراعك، زندك، مؤخرتك، مقدمتك. أشهر كاملة انقضت وأنا أطوف في الزمن الخرائي وأغرق في سبتنكات العالم. كُلّي المرحاض، وحدانيٌّ الذهن، منفرط القوة، مسحول الرأي، منبجس التأويلات. أتوسل بحق الله، بحق آل البيت، بحق جبريل، بحق الإسراء والمعراج، بحق السيد مالك، قديسك، ملاكك، شيزوفرينيتك، اكتئابك، هذيانك الرعاشي، هبوط سريع لمجاري الدماء وصعود السكر وعدم انتصاب العضو كاملا، مدويا، مزمجرا. وينظر

في عيني دونيّا، أناثيميًّا ينظر في وجهي المكوّن من ثآليل تزدهر في أوقات المطر والبرد والعرق والرائحة.

***

ماهو موجود في الذهن الآن يا أمي يتشكّل أمامي على نحو نزويّ والنزوة تنبثق وتسيح كما لو أنّها سائل مخدّر ومهيّج ومن البنج كان النبض يرتعش في هبوط دقّات القلب.

كنت وأنا أفكر بك تنتابني تلك الحمى القلاعيّة. ذلك الرمس الذي يغطّي أشتات الروح ويجعلها تائهة وكأنّها في دورة الشيطان، وما كان الشيطان غير بنية عقليّة تتأرّجح عمّا يقال في الوطن المهزوز. الذاكرة تعمل على نحو جامع وهي تكوّن الصور، وهي تكوّن المخيلة المتفخجة وكأنّما حصان شرطة في سباق طويل بين صيحات المراهنين وبين خيول مطهمة أخرى، لكن الذاكرة تفتقد إلى الصهيل. إنّها خابية إلى الدرجة التي تجعل المرء محاطًا بسيوف وخناجر توخز وتنغرز عميقا في التلاشي الذهنيّ وفي الضباب الرصاصيّ حيث الفكرة عبارة عن ذهن متخيّل لوجع الجسد وفي توسّل القريب.

أتخيّل في جحيم الذاكرة والبحث عنك، خطواتك في شوارع بغداد، خطواتك وأنت تسيرين في متاهة العقول تحملين نسخ جريدة طريق الشعب لتوزعيها على البيوت ولتحصلي على سعر إضافي لدعم الحزب. اجتماعاتك في البيوت وسفرات الرفاق والاحتفالات الكبيرة يوم كان حزب البعث يدفع رواتب كل قيادة ونصف كادر الحزب الشيوعيّ ومقرّاته ونشاطاته.

إنّ ما يستدعي تلك الذكريات المشحونة بالارتياب، فكرة القتل التي أشعر بالحاجة لها وإن كنت وحدي مع الأشباح، وإن كنت وحدي في شباك متلازمة التخيّل الشفيف والانطلاق بعيدًا في دروب وعرة وقاسية

لأجد في نهاياتها دائمًا اللغز القاتم واللغز الذي ما عاد لغزًا إنّما ارتماسات في الأنهر البخاريّة والليل والوحشة القاتلة. كنت أشعر أنّي بحاجة ماسّة للبصق في وجوههم حيث هم الأشباح والأرواح الكامدة والغارقة في حساء التيه وكأن كل اللعنة المتخيّلة للحياة سافرت واستقرت عذند نهايات العالم ونهايات العالم ما كانت إلا قلوبهم الحجريّة، أبصق عليهم الآن مع نهش الذاكرة المسترجعة شدّة الألم وأنت في شهر تموز الدمويّ الساخن واللاهب في سيارة موسكوفيج دون جهاز تبريد تدورين على البيوت وتطلبين التبرعات لدعم ميزانية الحزب. لكن الرفاق ينامون مع ناتاشا ياحبيبتي وليس مع الفودكا إنّما الويسكي الأمريكيّ المستورد خصّيصًا للقصر الجمهوريّ وأعضاء الجبهة الوطنيّة والقوميّة التقدميّة ويصرفون أموال التبرعات على الولدان والدودكية. كنت تخصّصين جُل راتبك الشهريّ لهم. اشتراك الحزب، دعم قضية شيلي في المحافل الدولية، فيتنام، الرفيق جارا، حملة ضد بينوشيت، فيتنام، دعم مجلة السلم والتضامن ونسيت أنّ هناك ابن كلب – أنا – بحاجة لدراهم. وقتما كنت تمنحين جدّتي بصعوبة خمسة دنانير يزبد زوجك ويعربد ويريك نجوم الضحى. كم وددت في تلك اللحظة، لحظة الانشداد الذهنيّ والمخيخ الذي يلهث وأنت ذليلة أمامه، أن أنتقم متسلقا سدرة المنتهى، متسلقًا ذلك القارب القادم ببطء متهاديا من عالم الأرواح المعذّبة والغاطسة. كان يريد كل شيء له برغبة الاستحواذ الطفوليّة والآثمة، له وحده ولحزبه، يا للنذالة! وفي النهاية كنت تسحبين بارتجاج موجع الخمسة دنانير من جزدانك[1] ونبحر أنا وجدتي بذلك الزورق المتهالك لنتجه إلى عالم الخراب والخيبة، عالم من اللا شيء ويتّجه إلى اللا شيء. أزورك في منزلك متأمّلا نزوة الاستحواذ المتضخّمة للزوج وملابسه المصنوعة

(1) الجزدان: محفظة نقود صغيرة تحملها النساء

في إنكلترا، لكنّه بروليتاري كبير ولايعيش إلا من أجل حزبه والنضال الأمميّ لذا كنت تطعميه وتلبسيه وأخرجته من زبالة حيث يسكن مدججًا بك متدرّعًا يسافر كل عام بعد أن يجمع رواتبك إلى وارشو مستفيدا من فرق العملة وهناك يسبح في الموسيقى، بالأحذية الإنكليزيّة، بالعطور، بالإناث الشيوعيّات وعلب سجائر مارلبورو، فيما أنت هنا مثل ثور عظيم، سفينة تحمل الجميع، تعملين ثمانية أيام في الأسبوع ومائة ساعة في غرفة العمليات وألف ساعة بين الأذرع المقطوعة والأقدام والقلوب المفتوحة والبنكرياسات المقتلعة والمناشير وأجهزة وسكاكين الجراحة، تتفصدين عرقا وآلامًا وابنك – أنا – الملعون بلا أبوة ولا أمومة والمطرود والقذر والتائه والضائع في بيت نبوءتك يدور على الأقرباء بذلته، بأَبَديّته، بخرابه، بملابسه، بمخاطه، بحذاء نصف عمر، بملابس البالة التي تموت جدتي وهي تشتريها. ولا أحد يمنحك قطعة كيكة ولا بيبسي أو مشن أو صحن سباجيتي بجبنة أوشاري مبروشة وتفوح منها رائحة الدفء والجوع والميتبلازم في أمعائك يحطّمك وتضطر تحت سلطة التفاهة والضياع أن تصرخ، أن تعوي في أطيط تموزيّ عارم من الحرارة القتيلة وتدور في الشوارع بلا أمل وتدخن الكطوف[1] ويحاول الرجال إغراءك بقنينة كوكا كولا وتهرب إلى سكة القطار، تسير عليها وتحلم، تهرب حيث لا سماء لأن السماء غادرت، لأن السماء بلا سماء، لأن الملائكة رحلوا إلى الله، لأن الله نفسه – دفرك – وهو يشاهد ارتعاشك وأنت أمام مدفأة علاء الدين محطمة والغرفة مليئة بالثقوب والجدة تدفع الخرق تحت الباب وفي الفتحات العديدة إلى درجة البكاء، تبكي حالها وتبكي ابنها الذي توفي وتركها عالة على الجميع والجميع نكرات، عاهرات، غانيات. والغانيات أشرف حتمًا..

(1) الكطوف: أعقاب السجائر.

في حديثك معي يا أمي كنت تثورين بوجهي لأن الأمل كان مجروحًا وقتيلًا وأنا اطلب منك بضع قطع من النقود للاشتراك في مجلة سوبرمان والوطواط أو مجلتي والمزمار. بعدئذٍ كنت تنفجرين، تنفجرين مثل فقاعة، بالون، مثل قنبلة نووية وشرر متطاير وعيون ملتهبة. وجع وتألّم منك لأنه لم يكن معك نقود وإن ابن القحبة استولى على كل راتبك أو تبرع به للحزب أو اشترى به سيكار هافانا من الأورزدي باك دعما للرفيق جارا وفيدل.. أتذكر الآن كل دقائق حياتك يا أمي. مثل النور البهي الذي لايولد إلا بعد تفجرات كونية. وكنت أنا الكون وأنا الجوع وأنا الألم وأنا الصرع وأنا الشيزوفرينا وأنا الاكتئاب الثلاثي الأقطاب. أنا المتناهي الدائم والأبدي في سماء خراب عميم. أما أنت فكنت تبتعدين وكأنّما في فيلم هنديّ طويل بلا إضاءة كافية ليغدو المشهد مظلما ومن الظلام ولد كل شيء.

***

ينهض القريب بعد أن أحكي له حكاية بحثي عنك بلا جدوى ونصعد سيارته الفكسهول القديمة وندور في شوارع بغداد – لا أدري سبب عشق المتدينين للسيارات الإنكليزيّة – ندور مثل تيه عاصف في لا مكان وبلا مركز وبلا تأوّهات غير تأوّهاتي أنا. شوارع وأزقّة ودرابين وأطفال بدشاديش مقلمة وظلمة وإضاءات ضعيفة ورائحة قلي عروك تنبعث من البيوت وعندما نصل إلى ملتويات بيوت غائبة في عالم آخر من بغداد، هو عالم لم أعرفه ولم أزره سابقا. في مكان ما قريب من الشواكة أُصرع. لا يمكن أن يكون كل هذا في بغداد يا إلهي! عالم حيوانيّ لزج يختفي وراء الشوارع العريضة المتحضّرة نوعًا ما وتتساءل: أيعقل أن يعيش هنا بشر! عالم متشظيّ وضائع ومليء بالحكايات الخرافيّة والجنّ والشياطين والسحرة وصور السيد الرئيس وصور السيد الرئيس عندما كان نائبًا

وأحلام خرائيّة وغائط شفيف ثم حارات ودرابين وأزقّة وبشر وبغال وحمير وقدور وشناشيل وروايات يهودية وطناطل وسعلوات وأحجية وميثالوجيا وأدعية وشطحات ومتصوّفة وقحاب وولدان وأزبال ومجاري بائسة وفيضانات مسترسلة وفئران وجرذان تعيش في بحبوبة الميتوبلازم الإنسانيّ ونخترق العمارات الحديثة البائسة، عمارات أسمنتيّة بعثيّة مصنوعة من البهاء المضطرب لعيون مفقوءة تغلف هذه الأحياء وتحجبها عن شوارع بغداد بانتظار مؤتمر قمة عدم الانحياز، ونصل عبر الدروب الملتوية وبائعات السمك والخسّ والفجل والكلاب المتسوّلة والأفواه المنتفخة والشاي الأسود المدلوق في الدرابين إلى نهاية الطريق، إلى بيت متداع، نطرق بابًا خشبيًّا يهوديًّا موحشًا وتنبثق من نوافذ عارية وجوه أطفال وحناءً ونذور وأكفّ وأشمّ ملايين الروائح المختلطة مع بعضها. يخرج ربّ الدار – الفراش في الأمن – ويستمع إلى تشنجاتي، للبصاق المنثور من فمي ويتدخّل القريب ويشرح الأمر بشكل أوضح ويتوسّل أن يساعدنا لإيجاد أمي وأشعر أنّي أريد أن أقبّل ليس النعال – نعاله – إنّما عتبة الباب والدكة والستارة الملوثة بالمرق والأطفال المجانين والشعر المنكوش البارز من شرفة النافذة والأنوف الصغيرة المليئة بالمخاط والصخام وأيام الطاعون والجدري وفيضان دجلة وعتو سليم باشا والمرتزقة والمحاربة والأحابيش والطبّالين والكشونجيّة. وكنت كل شيء أمامه، كل شيء أمام فراش الأمن الأبله الذي يتصوّر نفسه هو السّيد النائب والسّيد النائب عندما أصبح رئيسًا ويتكلّم معنا بلكنة تكريتيّة مصطنعة وكأنّه الضليع الوحيد في العالم بقوانين السياسة والاعتقالات والأمن والأمن القوميّ والتعذيب وقلع الأظافر والجلوس على القنينة وعندما ودعناه شعرت أنّ ما من شيء سيغدو أفضل، وأن حالة الاكتئاب والانهزام والاختناق والغرغرة التي تصل البلعوم وإحساسك بالاستلاب وروحك تائهة في كمٍّ

هائل من التفاهة لا ولن تزول ما دامت القوانين ذاتها تعمل والمراحيض في العراق لن تتحوّل إلى تواليت حتّى وإن غدا السيد الرئيس قائدًا لكلّ هذه الأمة من.....

الفصل الثالث

أقف أمام أمي وتسألني إن كنت قد بحثت عنه. أقول متأملاً وجهها: أجلْ. ويمتدّ صوتها رخوًا، هزيلًا، بعيدًا مثل زورق يتأرجح في بحيرة صغيرة. ألمحه وهو يبرز من حنجرتها، ليس من الحنجرة فقط إنّما من كلّ الأماكن في الغرفة. أتأمّل الصوت بقربان التقدّمات المقدّسة. تميل برأسها مثل فزّاعة منهكة. يصطفق باب كبير، نافذة مشرّعة لتيارات الهواء المخضّبة بالألم. اقترب من الحنك، من عظمها الصغير المغلف بجلد منبسط فوق رياح مرتفعة لأنّ لا سماء فوق الوطن بل نكايات وأحاديث عن موت القمر. أدفع يدها وتدفع وجهي بعيدًا، ترميني بمنجنيقات أرض القفر والوحشة التي تموت في ضوء القمر الأزليّ والفيضان المتّسع والقطط التي تسير على الأسيجة في ليلة باردة. أشعر بالإنهاك الذهنيّ، بالانهمار، بناؤس، بضباع هائمة في الظلمة وفكرة الموت على ضفاف الأنهار المقدّسة، استمع للتأويلات المتشنّجة في البرد والمدفأة الحزينة تسيح مثل مطر على الوجوه.

تقول: لم تبحث عنه، تكذب. في كلّ مكان بحثت، أقسم بالأيائل

والملائكة المحاربة والطغمات والقوات وجليل النهر المتشظي بعيدًا يجري عن التشنّجات. وتقول باستياء " صوتك يشي بالمغايرة، لا تكن باكونينيّ، أنت لم تبحث عنه بل تكرهه ويرتفع صوتها وهي تكمل بارتعاش هل وشيت به، هل وشيت به..؟؟ ويقترب وجهها منّي ومرة أخرى أستطيع أن ألاحظ أصابعها وهي تندفع في الهواء. أخاف منها، تمسك ياقتي، حنكي، أصابعها بين شعري، أتراجع أحسّ بأنفاسها مضطربة، مرتبكة، لكنّها تبتعد وتضيع. لا يا أمّي أقسم لك لم أشِ به. بحثت عنه في مدينة الثورة وحي العامل والصرايف والمنصور وعكد الجام ومحلة حنون وخلف السدة والأبنية والزرايب. فتشت عنه في خان دلة عند صديقه خياط القمصان. بحثت عنه في كل ملاهي بغداد، كل باراتها، مقاصفها. كنت أعرف أني أعيش شهوة موت الآخر لكن لا جواب لا جواب حتّى أهله لا يعرفون مكانه، لا جدوى لا جدوى يا أمّي. وتبكي بوجع مكتوم وأمامها أقف، ضائعًا ولا أعرف إلى أين يمكن أن يأخذنا هذا البكاء؟ قلت لها إن عليًّا باع سيارتها، باعها مفكّكة وعندما طالبته بالمال هدّدني وقال إنّه سيُبلغ الأمن عنّي. تنظر في وجهي مثل فراشة أفلتت من النار تذوي الآن، تذوي أمامي بوجه مليء بالحروق، أيّ الفراشات أنتِ؟! وأمام وجهها تقفز إلى ذهني حفلة عرسها التي أبعدوني عنها، ليلة غريبة لم أفهمها وقتذاك. عندما تغدرك الأشياء تغدو كظيمًا مهلهلًا. عندما فهمت الاقتحام اللزج لليلة الزفاف أصابني داء الوهم والخيالات. كنت أهذي، أهذي في عالم من الدونيّات، والمراسي بعيدة عنّي وأنا أحترق لمرأى تلك الليلة ومع التذكر أشعر بالحقد، بالعواء، بشيء غريب يتصاعد فيَّ، أريد أن أمارس سلطة التعذيب على كل الكائنات البشريّة وأتلذّذ، أريد أن أطعن نفسي بكل رماح العالم. كان جوعًا غريبًا واضطراب مبعثر في السماء وعلى الأرض. خرجت من عند عليّ ذليلًا كنت أريد المال من أجلك يا أمّي، من أجل أن

نجد مكانًا غير هذا بعد أن طلبت منا صاحبة البيت أن نخلي الغرفة. لم أكن أعرف أين يمكن أن نتجه؟ قالت بصعوبة ومن بين الغُصص، سنذهب إلى بيت جورية – صديقتها – التي تركت الحزب الشيوعيّ عام 1959 بُعيد مجازر الموصل التي افتعلها الشيوعيّون. قبل أن نغادر هذا المكان أذهب إلى دكتور سميسم، أريد أن أراه.

أخرج من المنزل وأذهب مباشرة. في بيت الدكتور سميسم كنت صاخبًا وتائهًا في الزحمة اللغويّة مرتويًا من حدائق السمّ مثل عصفور مهلوس. توسّلت، أردت أن أقبّل الإقدام والأرجل والرؤوس. كنت قربانًا مهملا، وكان هو بلا رجولة، وبعد توسّل مرير وافق أن يأتي معي، على أن أدفع أنا أجرة التاكسي.

في الطريق لاحظت كيف ينهار الإنسان الكبير وتصبح كل خرائيات التبجح عبارة عن خراب المدن الملوثة. كان يغلق أنفه بترفّع ونحن نسير في مدينة الثورة، هذا الجليل سليل المؤتمرات العظيمة ومدن صوفيا ووارشو وقبر لينين ومخادعات تروتسكي. نصل البيت ويدخل بصعوبة، كنت ألاحظ تشوّهات وجهه، تشوّهات الرجولة. أتذكّر أنّه كان حتمًا يصول ويجول في المؤتمرات الأمميّة، كم غدا الآن شبيها بالفئران؟! أدفعه بقوة التوجّس والانتقام، أدفع ظهره ويسير أمامي بخطى ثقيلة. ندخل غرفتك وينهار أمامك مثل جوقة من الذباب. لم يستطع أن يتحدّث بهدوء، فمه يقذف تفالًا يتشظّى ويقفز على متون المواضيع في تيهٍ واضح ومع الإضاءة الهزيلة والذباب الذي استيقظ من غفوة السنوات ومع بحر الحزن والانديا‌ح والتشيؤ والاضمحلال، مع التوترات الذهنيّة لسماء الخصاء، أشاهده مثل النجوم التي تنتحر. فجأة ينهار مع الخنوعات المبجّلة ويقول إنه وَقع ويهزّ رأسه، وقع على براءة من الحزب الشيوعيّ لكنّه لم يقل لهم إنه يعرفك. يقسم بالعبّاس وروح أخته وأرتجف وأشعر بخدر وتنمّل في ساقي وخصّيتي.

كان أشبه بقطعة معدنيّة آيلة إلى الغرق في سائل لاهو بالماء ولا بالدهن. لكنّه مزيج أخروي حيث النار والماء والبرد والحر والصمم والاستماع والهروب والانكماش. وأشاهد أمي الهلعة، اضطرابها وارتباكها، نهضتها السريّة ورغبتها في صفعه. وهو بخنوع الضباع يطأطئ رأسه وينفجر فجأة، ينفجر مولعا بالنذالة ويقول مع رذاذ فمه، إنه يئس من الحزب يئس لأن الحزب لم يمنحه المنصب الذي يريده والآن تركوه، خانوه، خانه – أبو سعود – ويبصق على جدار بعيد. كنت أقول لأولئك الحشرات التروتسكيّة إنهم حزب هزيل مكوّن من خروات فقط، براز وفلسفات منحطة ويرتعش صفيقا، بسنين مليئة بالقحط الفكري، بالقومجيّة، بالشيزوفرينا. ملّهم كلّهم، ملّ المكتب السياسيّ وملّ أعضاء اللجنة المركزيّة وملّ تفاهتم وعنصريّتهم الكرديّة وتحطيم المنظمات الحزبيّة على يد الذئب البريّ – أبو سعود – الثعلب، ربيب الصهيونيّة والسافاك وك ج ب وستاشي. أنا... أنا، كان يقول، المضحي العظيم ويهزّ رأسه أسفًا وهو يكرّر الكلمات ويقول: خرائي عليهم سأقتلهم. وتبهر أمّي، تُبهر بمقدار الحقد الدفين الذي انفلق فجأة. وتستمع غير مصدقة، متقطّعة الأنفاس وهو يقول ومع انفعاله وضوء ضعيف يتسلّل إلى صفحة وجهه ملقيًا عليه قناعًا من الوحشة والترفُّع.

وقع: المقصود بها توقيع اعتراف بأنّه شيوعيّ وأنّه سيترك الحزب ويسلم الأمن كل المتعلقات والأوراق والوثائق التي بحوزته.

إنك إنسانة بسيطة، وعيك البروليتاري ليس كبيرًا لأنّك لا تخبرين الداخل، عميقا عميقا جدّا هناك جذور الخسّة. هو سافر معهم إلى كل أرجاء الوطن الاشتراكيّ، سافر إلى براغ وكوبا وسنتياغو ووارشو وموسكو وبرلين الشرقية وقضى أشهرًا بل سنوات معهم وأنه يعرفهم لصًّا بعد لص، قوّادًا بعد قوّاد، كلهم أبناء عاهرات ليسوا أفضل حالًا من البعثيّين. صدقيني واعذريني لأنّي استخدم هذا الاصطلاح.. غالبًا ما أفكّر

أنه مع هؤلاء النكرات لايمكن أن يبنى العراق لأنّهم ببساطة ليسوا مع بناء العراق هم فقط مع بناء روسيا. ما يهمهم هو روسيا موطن السوفيات الأول وكردستان وأن يكونوا قاعدة عسكرية للسوفيات. أمّا غير ذلك فهو بؤس، زبالة وخراب كلي. لا، لا أستطيع أن أطيقهم بعد الآن. ويحني رأسه وتختفي نظرات الترفع ويفرك أصابعه أمامنا، يقشرها بأسنانه وأتأمل الوجه المتشنج الداكن وعضلات الخدين المتقلصة، أصابعه المزحومة بالالتباسات، ملامحه الغائمة، شعره الجاف بسبب قصور الغدة الدرقية. أرفع وجهي وأرى قمة رأسه، متاهات متسعة الكبر وبدايات صلع ظاهر. يشعل سيجارة ويغير مكانها بين الأصابع سريعا وعينه تتقلص أمام الدخان الهارب. من فترة ربما سنة أو أكثر قلت لهم وهو يشهق نفسا هائلًا من السيجارة ثم ينفثه إلى ركبتيه، قلت لهم يا رفاق اللجنة المركزيّة، يارفاق المكتب السياسيّ، يا كواويد، هناك شيء خطير يحدث، شيء خطير يتراكم إنه يطفو مثل قمة جبل الثلج، هناك صراخ أسمعه وهو متأت من بعيد، من موت، كأنّه قادم من التيه الأسطوريّ لحزبنا. قلت لهم يا رفاق وينتفخ وجهه وكأنّه يقول اعترافه الأخير. الحزب مخترق، الحزب مهلهل، حيثما أذهب في زيارة المنظمات الحزبيّة أشاهد أناس غرباء. كنت أقول لهم إني اعرف هؤلاء الجدد، أعرفهم حقّ المعرفة كانوا وكلاء للأمن، مخبرين، يندسون في الحزب وكنت أحذر الرفاق لكن الأوامر العليا كانت تبقيهم مندسين، غافين.

يوماً ما سينفجر برميل الغائط هذا. هناك مؤامرة كبيرة. لايمكن أن يحدث كل هذا دون معرفة الحزب، دون صفقة سريّة. وعندما أعلنت بصوت عالٍ وقلت للكثيرين من الذين أعرفهم في الحزب ومحذرًا من المؤامرة، جاءت التعليمات من فوق، من اللجنة المركزيّة أو المكتب السياسيّ بالتحقيق معي. لماذا؟! حققوا معي بنجاسة، بلؤم، بخباثة،

اتهموني بأنّني مخنث، طفوليّ، يساريّ، منحرف، متطرف، وأني مهزوز. كواويد، مالذي يدور خلف الكواليس، تحت الطاولات؟ . مالذي يدور في البيوت السريّة للحزب مع الرفيقات؟ تصوّري بعد التحقيق معي من قبل الحزب جاءت رفيقات إلى العيادة وبدأن بسبّي وإهانتي أمام المرضى وبطريقة تستنكف فيها الشريفات عن ..... إنهم مافيا. كنت أقول لماذا هذا الإذعان لسلطة البعث؟ كنت أشاهد كل يوم دوريات الأمن وهي تعتقل الرفاق في حملة كبيرة. في البدء نتظر البعثيون أن نكشف تنظيماتنا، ثم تم إحصاؤنا. لمَ كشفنا التنظيم؟ حدثت حملة كبيرة للبحث عن كل الشيوعيين في العراق، في الدوائر والمصانع والمزارع والدرابين والطرقات والبارات والملاهي. كنا نشاهد جهازهم الحزبيّ مع أجهزة أمن الدولة ينتشر ويكبر. كانوا يراقبوننا بشكلٍ دقيق. حتّى عندما تذهب لشراء جريدة الحزب فإن باعة الصحف يتعمّدون التعرف علينا ومعرفة أسمائنا وأماكن عملنا. حملة كبيرة، مخيفة، دون كيشوتية. في المدارس والجامعات وإلى الجهاز الحزبيّ للبعث صدرت تعليمات تطلب من كل شخص بعثيّ له أقارب شيوعيّون أن يبلغ عنهم، وإذا لم تبلغ يتمّ إعدامك. أيضًا طلبت التعليمات من البعثيين أن يبلغوا عن الشيوعيين في مناطقهم، قرب بيوتهم. كنّا محاصرين، كنت أكتب، أزعق للرفاق في اللجنة المركزيّة، لكن لا حياة.. لا حياة... أو أن هناك شيئاً يحدث بليل، أمر سريّ. كنت أشك. الرفاق في اللجنة المركزيّة كانوا يتمتعون برواتب ضخمة، مخصّصات ماليّة تصرف لهم من قبل نظام البعث، سيارات حديثة، مناصب حكوميّة. جهازنا الحزبيّ كان يقول لنا: أيّها الرفاق البعث يكشفنا.

كنا مثل القمل نختفي لكنّهم يجدوننا بسهولة، يخنقونا. كنت أرفع التقارير للقيادة، كنت أدور مثل المخبول عليهم، أزور بيوتهم أزور مواقع عمل القيادة. لكن في كل مرة يقولون: أيها الرفيق لاتتدخل في سياسة

الحزب، الحزب له سياسة، طاح حظّهم، أية سياسة. في بعض الأحيان يأخذني الرفيق المسؤول خارج بناية اللجنة المركزيّة ويقول لي: الآن تستطيع أن تتكلّم لأنّه ليست هناك أجهزة تسجيل. من يقول هذا؟ من يقول إنّ هذا الرفيق لا يرفع تقريرًا عنك إلى أجهزة أمن السلطة. كانوا يعرفون كل شيء ويسيرون مخدّرين. المنظمات الحزبيّة لنا تمتلئ بالمخبرين السريّين. في الحقيقة ليسوا سريّين. كانوا يعملون بشكل شبه علنيّ. الاستدعاءات إلى دوائر الأمن تتصاعد كل يوم. كنت أتحدث إلى الرفاق في جريدة طريق الشعب عمّا يحدث. كانت أجهزة التصنت تنتشر في كل مقراتنا وسجلوا كل شيء، ضراطنا، كفاحنا المسلح. أسرارنا وكنّا مثل الدجاج البلدي. دائما بانتظار السكين وكانت السكين كبيرة، مهولة، مرعبة، حادّة. كل يوم يتم اعتقال القاعدة الحزبيّة وكنّا نفاجأ في التحقيقات أنهم يعرفوننا أكثر من أنفسنا. حدثونا عن كل شيء، عرضوا علينا أفلام القيادة، مضاجعاتهم السريّة، دونيتهم، تسولهم للنقود، ساديتهم، ماسوشيتهم، خصيانهم، ولدانهم، وحشيتهم في التعامل مع رفاقنا. تصوّري القيادة كانت تتّهم كل من يريد أن يصلح الحال وينبّه إلى الكارثة المحدقة بحزبنا، أنّه يعمل لتخريب الجبهة الوطنيّة مع البعث. أيّة جبهة؟ مؤخراتنا كانت مرفوعة، كنّا عراة. وفي التحقيق معي في مركز الأمن عندما أردت أن أكون بطلا إلى حدّ ما، أروني هذا الفيلم الخرائي، فيلم السكرتير الأول وفيه أبو سعود يمارس ساديته مع القيادة ويساوم وينام مع زوجات الرفاق وبعلم الأزواج، لا بل إن الرفاق الأزواج كانوا يقدمون له الكلينكس بعد أن تلتف الساق بالساق ..... وكنت أبكي يارفيقة، أبكي هذا الحزب العظيم، حزب فهد الذي خربه هؤلاء. والمضحك أن السكرتير يتحدّث عن خطط الحزب وكاميرات التصوير تعمل والمجسات الصوتية تسجل كل شهقاته وتشنجاته وهو مثل الغبي، مثل الزعطوط يكابر، يكابر بحزب منخور من الداخل، ولم

أستطع في جلسة التحقيق معي أن أنكر أي شيء، وكيف أنكر؟ وكل شيء كان مسجلا صورة وصوت، صورة وصوت أيّتها الرفيقة. كان الرفاق مع السكرتير الأول يرقصون ويسكرون في الاجتماعات وكأنّنا في ملهى ليلي، لم أتصوّر في يوم ما أنّنا كنا نقاد من قبل هؤلاء السفلة أبدًا، من خلف قناني العرق ومن خلف رقصات الرفيقات وأردافهن، مصيبة، مصيبة كبيرة. في التحقيق معي ذكروا لي كل أسماء القيادة الحركيّة وذكروا لي أيضًا كل الأسماء الحقيقية وأروني كل عناوين البيوت السريّة، كل الأوكار التي كنا نتصورها أنها سريّة، وكان جيفة، سماء من الدونيّة واللعيان نفس وشعرت في التحقيق كم كنت تافها، متواضعا جدّا وأنا بين كومة من الشواذّ جنسيّا والمعاقين فكريّا والساقطين أخلاقيّا.

شعرت بالأسف على كل التاريخ الكبير للحزب لم أتصوّر أن ينهار كلّ شيء في شهر واحد، شهر أيّتها الرفيقة، ضاع كل شيء. بعثرنا، تهنا، تهنا بين عصابات البعث وعصابات الرفاق. وينهطل وجه الدكتور للأسفل ويرفع رأسه وينظر إلى السقف وأصابعه ترتجف، يشعر بانهزام داخلي وعضلات فمه تتحرك حركة ارتجافيّة ويقول: لافائدة من الحزب. لايمكنك تغيير أي شيء. أنصحك أن تسلمي نفسك، أن تذهبي إلى أي مركز أمن وتقولي لهم أنا شيوعيّة، سيرحبون بك، لاتكوني بطلة أيّتها الرفيقة لأن نصف أعضاء حلقتك الحزبيّة هم من رجال الأمن. اسمعي نصيحتي أرجوك، أطفالك بحاجة إليك، كل شيء انتهى، لا تمنحيهم فرص قتلك، على السواء، الرفاق في القيادة أو البعث. اذهبي للبعثيين صدّقيني. أكرر عليك ماقلته قبل قليل، سيرحبون بك، لايريدون أي شيء منك، لديهم كل شيء، يعرفون كل شيء.

أنا لا أقول هذا لأني اعترفت ووقعت على وثيقة اعترافاتي بكل رحابة صدر، لكنّي رجل طبّ، علميّ، وجدت أنّ المريض سيموت الآن وليس

هناك من حاجة بعد لأدوية إضافيّة. مع اعترافي في مركز الأمن والاحترام الذي شاهدته – بالمناسبة – هم لم يمدّوا أيديهم، بكل احترام أجلسوني على كرسي مع سجائر وشاي وأعطوني التقارير التي كتبت عنّي والاعترافات والصور وكل شيء. قالوا لي: نرجوك دكتور حدثنا عن كل ماتعرفه ونؤكّد لك أننا نعرف كل شيء عنك وابتسموا. وبعد أن أنهيت قراءة كل شيء تقيأت. في تلك اللحظات كنت أحس أني طرطور. صعب أن يشعر المرء بأنه طرطور وجيفة وغبي. أن تشعر أنك غبي أشد شناعة من الشعور أنك تتغوط في بنطلونك أو في نفق ساحة التحرير قرب المطعم الهنديّ. وبعد كل شيء، بعد أن سردت كل شيء مع الشاي والقهوة والسجائر وبسكويت الجميلي خرجت إلى البيت، أصروا أن يوصلوني بسيارتهم لكنّي رفضت، شكرتهم. كنت أريد أن أموت لحظتها، أريد أن أتنفس هواء نقيًّا، أن أسير وحيدا وسرت فعلا من مقابل القصر الأبيض حيث أبنية الأمن العام إلى الباب الشرقيّ، سرت إلى ساحة الطيران وجلست على الرصيف مع عمال البناء. كنت أريد أن أصرخ، أن أقول أي شئ لكن في ذات الوقت لم أكن أشعر بأيّ رغبة في الحديث، كنت مصدومًا، مهانًا. الشعور بالغباء يدمّرني. عندما خرجت من بناية الأمن شعرت أني أريد أن أغرق إلى الأبد في الهواء، في السماء، في الصمت. أريد أن أتأمّل حياتي، حياتي التي أضعت نصفها في صفوف الحزب. في تلك الساعات مرّ كل شيء أمامي كشريط مصوّر ومن قام بالتصوير، طفل في نحو العاشرة. لذلك كنت أشاهد حياتي في أغلب الأحيان مقلوبة، سريعة ومليئة بالسقطات. كنت أشاهد نفسي راكضًا، واقفًا، هاتفًا، متظاهرًا.

شعرت بعد الاعتراف أني أحيا من جديد. حياة جديدة مليئة بالسكينة، بالهدوء مثل جندي عندما يخرج من الحرب. هكذا كنت، مهزوما، معاقا غير مصدق أني أعيش مرة ثانية. كنت أنظر للبشر بنظرة تختلف عن النظرة

التي كنت أنظر لهم فيها قبل دخولي بناية الأمن. كل شيء جديد وكأني تخلصت من سرطان أكل حياتي. وبعد هذا التمتع والتأمّل والصفاء أقف متمهلا لأشتري جريدة البعث – الثورة – جريدة الذين كانوا أذكى مني وأشعر أني أريد أن اقرأ كل شيء عنهم، عفويتهم، سلطتهم، جبروتهم. كنت أشعر أن بانهزامي أنا شخصيًّا هزم كل شيء، انهار كل شيء، لكني كنت أدرك أن على الجانب الآخر، الجانب السيّئ من حياتي كان فيه الرفاق من المكتب السياسيّ واللجنة المركزيّة يعيشون في عالم آخر، عالم خرافيّ، ليس مثل عالمنا. الآن ستتلقفهم الدول الاشتراكيّة، سيعودون إلى ناتاشا ووارشو ولينين غراد وصوفيا ومنتجعات البحر الأسود وسمورلنسك. المدن التي شيدت من أجلهم ومن أجل متعهم الشخصيّة ومن أجل إخصائنا. أحسست أني مسكين كبير وغير متصالح مع العالم. وعندما لفني الغطيط والتعب من التسكع بغير هدف أخذت سيارة أجرة وتوجهت إلى البيت وهناك بين مئات الكتب الماركسيّة، بين ملايين مسودات الدراسات وملايين الكلمات التي كتبتها على مدار أعوام غيّرت ملابسي وقفلت باب الغرفة وسقيت النباتات الظليّة ووضعت تمرة للبلبل ونمت إلى الأبد.

ساد صمت شفيف بيننا ثم نهض الدكتور بارتباك. نارسيجارته يكاد يصل لإصبعه ووجهه هزيل. أحسست أنّ أمي قد داهمها شعور لعيان النفس الذي كللني أنا أيضا. رغبة قوية خارجة من بطني تندفع إلى الزردوم. أخذت انظر إلى أمي التي كانت متقلصة، متكومة في زاوية – الكبة[1] – مقدمة حذائي تلمس أصابع قدميها. كانت تزداد صفرة. أحسست بالشفقة عليها، نظرتها مرتبكة، صوت شهيقها وزفيرها اسمعه لاهثا ومتقطعا كانت تعاني من الجيوب الأنفية. قال الدكتور سميسم وهو يسير إلى باب الكَبّة، إنّه لن يخبر الأمن عنها. فقط قولي لي إنك ستتركين هذه النفاية.

(1) الكَبة: القبّة وتستعمل كاسم آخر للحجرة. كانت هذه المفردة شائعة الاستعمال في العراق.

مرّت لحظات صمت ثم قال: أرجوك لاتكرري الاتصال بي. فهو لم يزل مراقب على أكثر الاحتمالات. إذا اتّصلت به ثانية فلن يستطيع كتمان السرّ، سيقول لهم كل شيء، وفيما يهم بالخروج يميل كتفه قليلًا إلى الأمام، يشيخ فجأة، صلعته البسيطة تتجمّع عليها نقاط عرق وطرف سترته مجعد لكن أصابعه لم تسعفه لفتح الباب. تحرّكت مثل دودة زحفت بكمون، بهدوء وفتحت باب الغرفة ثم باب البيت ثم باب العالم ثم ضاع في أصوات البيوت والأطفال والرايات ودخان التنانير والتراب والشوارع القذرة والسباب وصياح الرعاة والأبقار والبعرور والمطايا والهتافات للبعث الصامد والأسواق المركزيّة وعنوان رجولة الأمة صدّام حسين – القائد الضرورة وكلّ شيء.

مثل الزهر الذي ينمو ملاصقًا للشوك بالضراعة المقدّسة أقف أمامك يا أمي وأمسك أصابعك بجلال الزمن وهو يسير أمامي مثل غيمة شتائيّة. تنظرين في بُؤبؤ عيني وأقول: هل تشاهدين البحار والأيائل والمطر والانبعاث من الحياة؟ تقتربين من فمي وأذني. أشعر بذبذبات روحك تشتبك مع الهزء من العالم وتطلبين أن أذهب إلى ضمير الصيدلي. أقول: ما الفائدة؟ ألم تعي ما قاله دكتور سميسم؟ تبتسمين وتنظرين باتجاه النافذة الصغيرة، الضوء رقيق، ضعيف، يكاد أن لايملك القوة التي فيك تقولين: سميسم هذا جبان، إنه يحاول تبرير استسلامه أمام أجهزة الأمن، عاش كل عمره منعمًا بعطايا الحزب، الحزب هو من صنعه أقول: أعتقد أنّه كان صادقا. الحزب مرّ بمنعطفات خطيرة، لكنّه انتصر، استمرّ في الحياة. أنت لاتعرف ضرورة وجود حزب شيوعيّ في حياة العراق، تقولين مع إحساس قويّ: حزبنا صنع الثقافة في العراق، حرّر شعب، حارب الإقطاع، انتصر للفلاحين، للعمال. ما تشاهده الآن من انتصارات للفلاحين هو نتيجة نضال الحزب. تنهضين بصعوبة وتنظرين من النافذة إلى الشارع، والهواء

يحرك خفايا روحك والقلق الملطّخ بالتيه، تحسين بنوع من القوة. لا زلت صغيرًا ولا تفهم الكثير من الأشياء التي تدور في هذا العالم، تقولين. اصطدم بتهميشك لي وأقول باندفاع: لكني أقرأ التاريخ بانتظام، إذا كان الحزب الشيوعيّ صادقًا، لمَ لم يعمل على استلام السلطة في زمن عبد الكريم قاسم مثلًا؟ أمي، الحزب الشيوعيّ متورّط في لعبة الحرب الباردة، صدّقيني.. مَن قال لك هذا؟ إنّي أقرأ بشكل متواصل، أحاول تحليل الأشياء بصورة علميّة، أخاف عليك أمي من أنّك تفقدين الإحساس بالأشياء الخفيّة. تنظرين إلى وجهي بامتعاض، أشعر للحظة أنّ هناك تواصلًا بيننا وإن كان ضعيفًا. تقولين بارتباك إنّك قلقة جدًا على زوجك وأنّ في عقلك تشوُّشًا، هل تستطيع الذهاب إلى الصيدليّ ضمير، أريد أن أعرف الأخبار؟ إذا كانت هذه رغبتك، أقول، أرجوك فكريّ بما قاله دكتور سميسم، أخاف من انحدارك إلى العبث.

أقترب منك وأهذي ببعض الأحلام، الخوف، الدهشة، الفراغ، السوبرنوفا وهي تبتلعنا. تمرّ دقائق من النظرات المتبادلة والصمت ثم تنبرين: قل لضمير مهم جدًا أن أراه. أشعر أمامك باهتزاز خفيّ سريّ مثل شجرة منخورة تكُسر لو أنّ عصفورًا غفا على شجني. أتركك وأخرج هائمًا إلى شوارع بغداد كما المطر.

بعد بحث متعب في الباب الشرقيّ أجد (ضمير) في شارع المشجر، في بناية مذخر قديم يسكر. شخصيته مكتظة بالفوضى والاضطراب. تذكرت وقتما كان يحضر الحفلات التي يقيمها زوج أمي، كان يبدو وقتها سكّيرًا بائسًا ومع أول كأس فودكا يتمرّغل على الأرض ويهتف بحياة لينين وجارا وتشيلي وزوجته المرشحة للجنة المركزيّة، ثم ينهار بكاءً ليحمله الرفاق بعد ذلك إلى غرفة جانبيّة ملطّخا بالقيء..

بعد محادثة متوتّرة يوافق ضمير على المجيء ويسير معي أشبه بدودة

قديمة من العالم الأول عندما مسّت يد الله التراب معلنة بدء الحفلة التنكريّة للمخلوقات. كان بدائيًّا بمشاعر مضطربة، بترتيب شعر وبدله سبعينيّة التفصيل - جارلس - والسترة بالأجنحة العريضة. أشمّ وأنا أسير معه فكره، بوحه الخفيّ، الشفاه المزمومة، تغضنات وجهه، عبوسه كل دقيقة وهو يكرّر أين تسكن لخاطر القحاب؟ لا أريد الانتظار، سأرجع يا مناويك، ويهذر، سأرجع يا فعلة، يا خلاءات[1] بغطيط، ساقتلكم كلكم، هل أنت من الطولة[2] نفسها؟ أسمع، الرصاصة لاتزال في جيبي، هل تعلم ماذا يعني هذا؟ أسمع، هل نستطيع المرور من أمام سينما السندباد؟ أسمع، أريد أن آكل بعض الداطلي[3]. ونتحرك إلى أمام السينما لكنه يتيبس أمام محل لبيع العاب الأطفال، يقول إنه يريد أن يدخل المحل لأمر هام وأقول له: سأنتظرك هنا، لا أريد أن أدخل. ينظر إلى وجهي باستغراب ويقول: لكنّه مكان رائع! أقول: لا أدخل. سأشتري لك لعبة جميلة، قرد يقفز ويضرب على رأسه مثلي أقول: لا أريد يقول: ستندم. أقول: ولمَ الندم؟ يقول: لأنك مطي ولا تريد العودة إلى (الزمن الباهي) أقول وما الزمن الباهي؟ يقول: الذهاب إلى محلات هيب هوب وعالم الأطفال والمقص الذهبيّ في شارع النهر. أقول: لا أريد العودة إلى الطفولة يقول: ليست طفولة أنت بحاجة إلى شيء مُذهب في حياتك. أريد أن أدخل الآن، بالمناسبة هل أنت من ذات الطولة؟ أتركه يضلع وانتظر خارجا واشتري سيجارة دنهيل مفرد وأدخن فيما باعة فستق العبيد والداطلي يروش عليهم الذباب. أنتظر ساعة كاملة ولا يخرج من المحل، أدخل وأجده متكومًا عند ركن وبيده لعبة القرد تلك، اقترب منه وأكلّمه فيما هو منشغل بإيجاد مفتاح شحن اللعبة

(1) خلاءات: مراحيض

(2) الطولة: المكان الذي تعيش فيه الخيول.

(3) الداطلي: نوع من الحلويّات الرخيصة.

يقول: هل قررت أن تلعب مثلي؟ أقول له: لا يجب علينا أن نذهب الآن. نترك المحل واشتري له قطعة داطلي ويطلب جبس أيضا وأصرخ بانفعال كفى.. كفى لخاطر الكاظم وأنهره وأستعمل معه الشدّة ويتبعني كطلي[1] ثم أرغمه على السير أمامي لئلاّ يفلت وينظر إلى الخلف كل لحظة ثم يعود لالتهام الحلوى.

نصل مدينة الثورة والبيت. اطرق الباب والرايات فوقنا وضمير يرتعش وينظر كل لحظة إلى الوراء وسيجارته لاتفارقه. ندخل وتبادرنا ربة المنزل انه يجب أن نترك البيت اليوم حتما، زوجها الشيوعي الذي هرب إلى الناصرية بعد ان كان متخفيا في النجف ابلغها ان من الخطأ البقاء في المنزل. انظر إلى وجهها والألم يختلط مع صراخ الأطفال ومادة تعقيم الحلق البنفسجية تنثر رخاما قاسيا وروائح النفط الأبيض تمتزج مع تراب الأرض ورائحة السعف المحروق. قالت أيضا: إنها ستترك المنزل اليوم وتسافر مع الأطفال إلى أهلها في البصرة. عيناها تلتقي بعيني ثم تنتقل إلى ضمير متوجسة. اترك ربة البيت غارقة في قلقها واتجه إلى الغرفة وخلفي ضمير يقبع. عندما افتح الباب ترتعب أمي لحظات وتبدو منهكة وهي تجلس ملاصقة للشباك المغطى بالسيم المشبك والممزق. تنهض وترحب بضمير وتشد على يده. نجلس على حافة الدوشك[2] المليء ببول الجهال[3]. تقترب ربة البيت مع طاس ماء. أشم رائحة المطال والبروليتاريا تزحف مع الهواء. ضمير لايشرب، اثر الخوف مازال متناميا في وجهه. يبلل منديله المقلّم ويمسح وجهه ورقبته الجافة، أمي تراقبه، تراقب سترته الناسلة وعرقه وغدده التي تفيض برائحة الشوارع والبرد والتقلص تمرّ

(1) الطلي: الخروف
(2) الدوشك: الفرشة
(3) الجهال: الاطفال

دقائق دون أن يتكلّم. تبادر أمي: ضمير، ماهي أخبار الحزب، أنا متعبة وقلقة للغاية.

ينظر ضميرٌ طويلًا ويتأمل الغرفة والذباب. يُكرر عليه السؤال ويحاول لملمة أفكاره ولا تنفلت منه الكلمات. ينفث سيجارته ويشرب قليلا من الطاس ثم يرفع ركبته ويضمها إلى صدره وهو ينظر إلى وجه أمي، دخان سيجارته يرتفع مثل خيوط ملتوية.

ما الذي تريدين معرفته؟ كل شيء انهار، هذه هي الحقيقة. الحزب بائس، مشنوق، جثته تسحل في الشوارع، الناس تركونا وذهبوا إلى الاورزدي باك والإفريقيّة. يركضون الآن خلف قدور التيفال والملاعق والبطانيات والفلاش لذر وبطاريات السيارات. لا بروليتاريا حقيقيّة هنا. يشعل سيجارة جديدة من سيجارته المنتهيّة وأصابعه ترتعش وهواء خفيف يتدفّق من النافذة ويغمر ذبابة وحيدة تمشي على الأرض الدافئة. كل شيء انتهى، انتهى إلى جهنم. نعم إلى جهنّم وبئس المصير إلى القذارة هذا هو المصير المحتوم تفو عليهم، يا له من فيلم هنديّ، حتّى قوانين الماديّة التاريخيّة لاتعمل في هكذا بيئة، أيّ حزب هذا؟! اتركيه مثلما أنا تركته هذه هي نصيحتي، أنا الآن أسير في الشوارع مثل نبيٍّ طريد من وطنه. لا حياة لهذه الناس يا رفيقة، هناك ديماغوجيّة، صبيانيّة، أشدّ الأشياء فتكًا في حزبنا هي هذه الشيزوفرينيا. كلّهم عبارة عن وجوه متعدّدة يعطيك ويقتلك، يفلسف الأمور وهو سطحيّ جدّا، يكفر بالله ويؤمن بالعبّاس. يضحك وتقول أمي بتأثر: هل من أخبار عن المرشّحة زوجتك؟ يُصدم ويخفض صوته ويقول وكأنّما دون الانتباه الى سؤال أمّي. دمّروا حياتي يارفيقة، حطّموني، وتتغيّر ملامحه ويتحوّل إلى حيوان جريح ويهذر، سأموت بطلقة أو سكيّنة منهم. اتّصل بي أحدهم من الحزب. قال: إنّهم سيقتلونك، انتبه طاح حظّهم، ليس هناك مَن هو أكثر جبنًا منهم. ابصق

عليهم إنهم يريدون قتلي حتّى لا أكشف أسرارهم التجسسيّة. لم أشاهد حزبًا بهذا السوء. يبدو أن منظمتهم الأمنيّة لاتزال تعمل برغم انهيار وهروب الحزب. لكن لا أدري لمن أكشف أسرارهم.

لكن الحزب شيء وهم شي ء آخر، تقول أمي. الأحزاب الشيوعيّة في العالم الثالث أداة تجسس بيد موسكو لا أكثر ولا أقل. يقول: أرجوك رفيقتي فكّري جيّدا، لا ليس هناك من مجال للتفكير سلّمي نفسك مثلي، حافظي على بيتك وأطفالك، كل شيء عبارة عن سخافة. زوجتي سافرت معهم، قيل إنهم ينامون معها بالجملة هههههه و(أبو سعود) جعلها عاهرة في شوارع بيروت ووارشو وصوفيا، أولادي يبكونها دائمًا ولا أعرف أن أنتقم. تفو.. أشعر بالأسف على عمري الذي صرمته في خدمتهم ويخرج قطعة صغيرمن الداطلي ويلتهمها.

وفهد وسلام عادل تقول أمي، هل نسيت تاريخ الحزب، أنظر إلى الجانب المشعّ وليس على الجهة المظلمة، الحزب عظيم يا رفيقي، تشجّع، علينا أن نحميه، تخيّل ما يمكن أن يحدث دون الحزب، ستلتهم الصقور والخنازير هذا الشعب. مَن يقف بوجه الرأسماليّة قل لي أنت؟ كلنا لنا أخطاء وحزب كبير مثل حزبنا لايمكن أن يكون دون أخطاء. الإمبرياليّة شرسة جدّا في الدفاع عن مصالحها ومصالحها تعتمد على دمويّتها مع الشعوب. يجب أن يكون هناك من يقف بوجهها وبوجه اذنابها من البرجوازيّة وإلا سحقت العالم. يمجّ ضميرٌ سيجارته ثم يقول بهدوء كبير واسترخاء. أنت حالمة كبيرة، أكبر كذبة في حياتنا هو هذا الحزب، قولي إنّه إسطبل ماخور دعارة كلجيّة، قولي ريسس، قولي أيّ شيء إلا أن يكون حزبًا. عزيزتي لايمكن أن تجدي في السبيتنك زهورًا. أيّ حزب يا رفيقة؟! والله أنت بطرانة. وينظر إلى النافذة والذباب المعلّق ثم إلى وجهي ووجه أمي. أمّا هذا الفهد فاعترف أنه لم يخلف لنا إلا دودكيّة وجواسيس

لموسكو ولبريطانيا. أكاد أنتحر الآن وأنا أقول لك هذا لكنّها الحقيقة، الحقيقة التي يجب أن نعترف بها. قضيت عمري من أجل هذا الحزب، نسيت الوطن وصرت لا أفكر إلا في الحزب، كل يوم يمرّ وأنا موجود في هذا الحزب يعني لي الموت. عندما أفكر الآن بأنّ هذا الحزب نسي الوطن، أرتعش وأشعر بالحزن لحياتي السابقة. لقد نسينا الوطن، صرنا ملاقط نار للقوى الدوليّة ولعبة الحرب الباردة. أسالك بحقّ كل مقدّس عندك، لمَ لم نسقط السلطة الملكيّة ونستلم الحكم؟ ها لماذا؟ لماذا لم نقم بثورة على عبد الكريم قاسم يوم كان لنا كل الشارع وبإشارة واحدة من الحزب ينهار كل النظام، لماذا؟ لمَ كان القادة يزجّون بنا إلى التظاهرات فقط ولم يفكر الحزب باستلام السلطة؟ أقول لك الحق، لأنّ موسكو لم تكن تريد.

كنّا ندفع شبابنا للموت بالرصاص لتحقيق المعادلة الدوليّة. كنّا رهن موقف موسكو ولأنّ موسكو تعرف أنّ العراق يقع ضمن مناطق نفوذ بريطانيا وأمريكا لذلك لم يقم الحزب باستلام السلطة. لم نكن حزبًا عقائديًّا يا رفيقة ولا في أيّ يوم من حياة الحزب. أنا أعرفهم كلّهم، كلّهم كانوا عبارة عن جواسيس لموسكو. أنت بعيدة عن الجهاز الأمنيّ للحزب. هل تعرفين ماهو الجهاز الأمنيّ؟ إنّه جهاز يُقاد من قِبَل السكرتير ويا له من جهاز! إنّه عبارة عن خليّة تابعة لل (ك ج ب). لقد عملت في هذا الجهاز، حولوني من إنسان يؤمن بالنظريّة الماركسيّة للارتقاء بحال الوطن إلى جاسوس، تصوّري كنت أعيش أصعب لحظات حياتي. كنت عنصر الارتباط مع السفارة السوفياتيّة وكنت أنقل الأوامر إلى قيادتنا، تظاهروا الآن، توقفوا، ارفعوا الشعار الفلاني، ادخلوا الجبهة الوطنيّة، اضربوا الحزب الفلاني والمظاهرات تعمّ العراق ويموت الشباب ويتدهور حال الوطن. كل هذا من أجل عيون موسكو، من أجل أن تهدّد موسكو الغرب

في عقر داره فقط لاغير. عندما أتذكر الآن تجنيدي لل (ك ج ب) أشعر بالخزي، أشعر برهبة التحول من مناضل إلى جاسوس، جاسوس صغير، مبتذل وأيًّا كانت التسميّات.. وتسأل أمي: والبروليتاريا يا رفيق؟ أنت تعمل من أجلها. يضحك، أي بروليتاريا؟ هذه البروليتاريا التي باعتنا الآن بقطع بطانيات وقنادر ايطاليّة وملاعق وسكاكين وبلوزات أبو الركبة[1]. كنت حالما بالوطن، حالما بوطن الفقراء لكن تبين لي إني كنت على خطأ كبير. لقد سلبوني اختي ثم زوجتي، أولادي بلا أم الآن. صعب أن تتخيل زوجتك وهي تنام في أحضان الرفاق. اصبحت مشاعا كما قيل لي. لا استطيع شرح الأمر للأولاد ن إنهم يتسائلون دائما، يبحثون عنها.. يسكت لحظات ثم يكمل، عندما أتذكر الآن اللحظات الغريبة من القلق الجبار الذي انتابني وقتها وهم يحدثوني عن مهمتي في الكي جي بي – الشريفة اشعر بالارتباك. كان صوتهم قادما من المجهول ويقول لي: إن ماتفعله هو لخدمة الحزب ولقضايا السلام العالمي وصدقت. سافرت إلى موسكو ووصلت في شتاء مثلج وهناك بدأوا يعدوني كعنصر مخابرات وليس كمناضل. قالوا لي إنك الآن عضو في خليّة مطاردة الرأسماليّة. بعد أشهر عدتُ إلى بغداد وانضممتُ إلى الخليّة الأمنيّة للحزب. مكاني في الخليّة جعلني قريبا من أعضاء المكتب السياسيّ، عرفت أسرارهم، شاهدت دونيّتهم. لم أكن أتصّور أنّي سأتحوّل بعد سنوات من العمل المخابراتيّ – النضاليّ – إلى مجرد رقم تجسسيّ. بعد أعوام من العمل وتوصيل المعلومات إلى موسكو والتجسّس على الوطن اكتشفت أنّي مجرد شيء صغير جدّا في بناء كبير للغاية، عضو في منظمة حديديّة تعمل بأوامر شخص واحد في الحزب، هو مسؤولنا الذي كان يتجسّس على الحزب أيضًا. فوجئت قبل الضربة التي وجهها لنا حزب البعث، إن

(1) الركبة: الرقبة

مسؤولي سلم البعث معظم أسماء التنظيم، أمكنة عملهم، وقبض، قبض يا رفيقة هل تفهمين ما أقول؟

عندما أتذكّر هذه الأحداث أشعر بالرهبة بالارتعاش بتقلّص معدتي وآلام فظيعة تحطّمني. كنت أرى الحزب وهو يتّجه إلى المجهول وسكرتيرالحزب لا يُبدي اهتمامًا، عنايته الوحيدة أن تبقى منظمة الأكراد سليمة أمّا الباقي فالى الجحيم، إلى الخرا. وعندما انهار كل شيء بقيت فقط منظمة كردستان سليمة بالطبع ولم يتم اعتقال أي كردي منها. شيء مضحك مقرف مؤلم. في المنظمة الأمنيّة لم أكن إلا العربيّ الوحيد، في البدء لم أكن مهتمًّا بالموضوع على اعتبار أنّه مصادفة، لكن مع تلميحات الرفاق انتبهت إلى أنّ المنظّمة الأمنيّة لحزبنا كانت كلها من الأكراد باستثنائي أنا، كانوا يتصرّفون - الرفاق الأكراد - وكأنّ الحزب حزبهم، كانوا متكتلين فيما بينهم. الشيء المهمّ بالنسبة لهم هو تدمير الحزب من أجل تأسيس الحزب الشيوعيّ الكرديّ لعموم كردستان، وكان هذا يتم بأوامر ومساندة السكرتير الكرديّ.

وفي النهاية تم إبعادي عن المنظمة. هذا السكرتير يا رفيقة ملأ الحزب بالشواذ وتسلط بدكتاتورية رهيبة على كل شيء. أراد قتلي بعد عودتي الاخيرة من موسكو وبعيد وفاة أختي وعندما هدّدته بكشف فضائحه للتنظيم. في البدء لم أتصّور أنّ هناك منظمة أمنيّة أصغر من منظمتنا وهي التي كانت تسير الحزب. هذه المنظمة مكوّنة من السكرتير وبعض الأكراد والمستكردين الذين لا همّ لهم إلا المنصب ومضاجعة الرفيقات، هل تعرفين لماذا هدّدت السكرتير، لأنّه اغتصب أختي التي لم تكن شيوعيّة. وتنحدر دموعه فجأة ويرتعش فمه ويتقلّص وعيناه تتواءمان مع الظلمة الشفيفة في الغرفة، مع الصخام المُلقى على وجه السقف. طلبوا منّي أن آتي بأختي إلى منزل سريّ- وكر- من أجل أن يبدو السكرتير وكأنّه مع

عائلة، تردّدت لكنّهم أصّروا وهدّدوني بمعاقبتي حزبيًّا. جئت بأختي إلى المنزل وقالوا لي إنّ هناك امرأة أخرى وأن لا أقلق. بعد أيام جاءت أختي وهي ترتجف وبعد أسابيع تبيّن أنها كانت حاملًا. كتبت تقريراً للقيادة لكنّهم لم يجيبوا. كتبت تقريرًا آخر وهدّدتهم بأنّي سأكشف كل شيء، قالوا إن الرفيق السكرتير لم يكن موجودًا لكي يردّ على رسالتك. لكنّ أختي تقسم إنّه كان موجودًا. كتبت تقريرًا آخر توسلتهم فيه أن يحلوا هذه المشكلة الكبيرة – مشكلة الحمل – قالوا إنها ليست مشكلة كبيرة. بعد أيام عرضوا علي تسفيرها إلى بلغاريا لإجراء عملية إجهاض، لكن صحة أختي لا تساعد. كنت أشعر بالدمار النفسيّ. لم يكونوا يظهرون أيّ اهتمام ببطن أختي التي تنتفخ. كنت مرعوبًا. الأهل والجيران والأقرباء سيكتشفون كل شيء عن حملها. اتصلت مرّة أخرى بالقيادة وعرضوا عليّ إجراء عملية إسقاط للجنين هنا في بغداد. وافقت لكن أختي رفضت بشدّة. توسّلت السكرتير عبر التقارير أن يتمّ عقد قرانه عليها، قران شكليّ فقط من أجل تكميم أفواه الفضيحة ورفض هذا العاهر وأنا أغرق كلّ ساعة في العبث، الشعور بالعار يجلّلني، يغرقني في بحره. كنت أحسّ بآلام فظيعة كوني قدمتُ لحمي إلى الموت والفضيحة واللؤم.

الشيء المؤلم الآخر أنّ الحزب أخذ يتعامل معي بفوقيّة حقيرة. وبعد أكثر من ساعة من الانتظار في غرفة جانبيّة للغرفة التي تجري فيها عملية الإسقاط لأختي. خرج الطبيب وقال: البقاء في حياتك. معقولة!!! شعرت بدوار وتيه لا أستطيع غلق فمي. هبل ذباب ملوّن عنادل طيور ماقبل التاريخ. كنت أركض وكأنّما في كابوس، بكيت مثل شيطان. أجهش وأنا ألتمس أنّي أنام وتحت رأسي جريمة ما الذي سأقوله للأهل؟؟ لأمي وأبي والأقرباء والجيران، أردت أن أحمل مسدسًا، رشاشًا، وأن أطلق عليهم الرصاص، كنت أريد أن أملأ رؤوسهم بالطلقات. تم استحصال أوراق

مزوّرة. وجرى الدفن بسرعة وأحدهم قال: الحزب سيعتبر البنت رفيقة حزبيّة تُوفيت أثناء الواجب الحزبيّ. شهيدة من شهداء الحزب وعرضوا علي من أجل راحة أعصابي وتوصية من الرفيقة زوجتي أن أسافر إلى موسكو للاستجمام. رفضت أوّل الأمر، ورفضت الرشوة الحقيرة وبأن يتم ترقيتي حزبيًّا. بعد ذلك وافقت أو أرغمت.. في موسكو كنت أخطط أن أطلق الرصاص وأفضح السكرتير، أريد أن أقتل. صوت قادم من البريّة يقتحم دماغي ويقول لي، اقتلهم كلهم ودفعة واحدة. فكّرت بأكثرَ من طريقة وحصلت في بغداد على مسدس وبدأت أفكّر في الطرق. غريزة القتل والانتقام أعمتني تمامًا. وبرغم أنّ موضوع الحبل والموت تم التستر عليه لكنّي تهت في عوالم خرافيّة، طنين يدمّرني، شهوة الانتقام تشجني. وعندما قدّمت استقالتي هددوني بأنّهم سيفشون أمري إلى الدولة. أبناء العاهرات، سيقولون للدولة إنّي وكيل (ك جي بي). قلت لهم أنا أيضًا سأكشف هُويّاتكم وأسراركم فقالوا وماذا عن الرفيقة زوجتك وأولادك؟ ففتحت فاهي وعندما هممت بدخول بار في الباب الشرقيّ في مساء ملتهب من مساءات بغداد اندفع نحوي معتوه و(طعّنني بدرنفيس).

لم تكن محاولة الاغتيال هذه هي الوحيدة. كنت أشعر أنهم ورائي في كلّ مكان، كنت أتشمّمهم مثل كلب. رائحتهم قوية مثيرة وتدفعك إلى الجنون. حملت مسدسي في ليلة مضطربة واندفعت إلى بيت السكرتير لكنّ البيت كان فارغا وأدركت للتوّ أنّهم غيّروا كل البيوت وتركوني بلا انتقام. كنت أسير في شوارع بغداد تائهًا في الزمن. أسير مترنحًا ومثل أبله، مثل موصوم بالخطيئة الأصليّة، مثل أرعن، أحلم بالانتقام لاستلاب زوجتي وأختي وحياتي الدرنفيسيّة، ولجاسوسيّتي.

الدرنفيس: مفك المسامير اللولبيّة

لقد شللت، تركت عملي وأهملت نفسي. لايمكن تحمل الشعور

بالعار. انقطعت عن اجتماعاتي الحزبيّة لكنّهم اتصلوا بي وقالوا إن لم أُعد الاتصال، فإنّهم سيشون بي، سيشون حتمًا، سيحرقون سمعتي الشخصيّة وعندما يتمّ اعتقالك من الدولة بتهمة التخابر مع دولة أجنبيّة فاقرأ على نفسك السلام. عُدت إلى التنظيم مشوَّها، تائهًا مع اضطهاد الرفيقة المرشّحة زوجتي لي. كنت أشعر أنّي أغتصب في كل لحظة وفي كل اجتماع وصدر قرار بإحالتي إلى اللجنة الفكريّة لإعادة تأهيليّ وأن أوضع تحت المراقبة ويتمّ الاتصال بي شخصيًّا فقط. في الحزب أجابوا على تساؤلات الرفاق حول سبب الاتصال الفرديّ بي ومنعي من الالتقاء مع الآخرين، بأنّي تعرّضت إلى مرض نفسيّ، مريض، مخبول، مهشم، وأعاني من طفولة يساريّة، وكل الأمراض الحزبيّة. قالوا إنّي مصاب بالاكتئاب وبالشيزوفرينا وأنّي مهووس بالرجال. كنت أسمع كل هذه التقوّلات، أسمع البحر وهو يلفظني والمناجل تجرح وجهي. الرفاق يارفيقتي لم يكتفوا بأن فتحوا مخالب القتل نحوي، بل ذهبوا بعد أن أشاعوا أمراضي إلى أبي، أسرّوا له أسرارًا، أبدعوا في النكران والدسيسة، قالوا له إنّي مريض وبحاجة إلى المكوث في مستشفى الأمراض العقليّة. حملني أبي في انهياراتي إلى المستشفى ولفّوني بالحبال، لفّوني وأنا أصرخ للعقبان الهازئة والمحلّقة فوق رأسي، نسور بريّة قادمة من ممالك الصمت الكليّ، وأنا أصرخ أن ابلعيني أيّتها الأرض، ارميني أيّتها السماوات في دبيب النمل وأزيز النحل اللاسع. وفي المستشفى غلّفوني بالأسلاك والكهرباء الشفيفة التي نخرتني تائهًا في ضياع الظلمة والكدرة البائسة والسهام والعقابيل.

بعد ذلك أخرجوني من المستشفى – مكسور العين[1] – مبهورًا من هذا العالم. وشكل أهلي حولي طوقًا من الصمت وحتّى أطفالي كانوا ينظرون إليّ كأني لست بإنسان بل مخبول واتجهت وقتها إلى الجنون، اتجهت إلى

(1) مكسور العين: مغتصَب.

صمتهم ونكرانهم وكنت أتصنع في النهاية هذا الجنون لأخلص، لأبحث عن عالم آخر بعيدًا عن التهجّدات والتأرجح بألسنة النيران والأحجار الشيطانيّة والصمت أمام الأنهار. صرت أخرج من المنزل ولا أعود إلّا في متأخر الوقت مع الضجيج ومنغمر بالنفايات والبصاق، مملوء بصخب العالم ونظراته وخوفه وتقززه منّي، يا للخبال يا رفيقة! يا للجنون وأنت تفقد العالم! تفقد كل المسمّيات والطوفانات الهادرة وضجيج الأصوات والأقدام العجولة والمتراكضة وهي تدوسك. وأن تشعر بأنك حشرة وأنهم حطّموك، قتلوك، نثروك مثل الشوك اليابس فوق صخب الصحراء وصمت الأمكنة وموت الفكرة واهتزاز السماء. كنت وحيدًا، نائمًا، خائفًا، شريدًا في هذا العالم وها أنت تأتين الآن. هل أبني أعشاشاً للنسور وأوكارًا للأفاعي وأوجارًا للضباع؟ والعالم الذي رميت فيه يبصقني إلى المالا نهاية. كلاب، كلهم كلاب. وفي النهاية يجب أن تأخذي القرار الصحيح.

وينهار وأندفع وأمدّ يدي وأرفعه وأشعر بأنفاسه اللاهثة بوجهي ودبيب القمل وتهيجات الأمعاء وفوضى الدماغ وانفلات الزمن من بين يديه. وتمرّ فترة صمت وهسيس اشتعال النار في مدفئة علاء الدين القديمة التي أعارتنا إيّاها ربّة المنزل، يشوي أرواحنا التي ينظر بعضها الى بعض. وينهض ضمير وتنظر أمي مبهورة إلى وقفته وانحناء ظهره ولحيته الكثّة غير المشذبة ورائحة السجائر الخانقة المعجونة بعفونة. ويقول فيما اقترابه من الباب يتقلّص إلى الدرجة الضئيلة: كلهم هربوا أيّتها الرفيقة، كلّهم هربوا. النظام نفسه منحهم مبالغ ماليّة كبيرة. أعرفهم وأعرف كميّة الأموال. منحهم النظام أيضًا جوازات السفر وتذاكر طيران مجانيّة على الخطوط الجويّة العراقيّة وفي الطائرات أخرجوا صكوك الأموال، صكوك هروبهم وبيعنا للنظام. وفي الطائرات كانوا يغنون، يغنون ويفتحون قناني الويسكي الاسكتلنديّ ويغنون جير جير بنطلونك هاها.

أمّا نحن الكوادر فنثروها إلى الريح، نثروها وباعوها بثمنٍ بخس. لاتتصّوري كم كان مؤلمًا قاسيًا وأنا أشاهد الكوادر تبحث عنً وسائل هروب ولا تَجِد. اتصلوا بالجبهة الشعبيّة بالجبهة الديمقراطيّة. بعض الرفاق كانوا يعرفون بعض المسؤولين في هذه المنظمات وساعدونا، ساعدوا الكثيرين وأنقذوهم من براثن البعث والتحقيقات الجنائيّة ومراكز الأمن والتعذيب والقتل. لكن من استطاعت هذه المنظمات مساعدتهم أفراد فقط. وذلك لأنّ هذه المنظمّات لم تكن تمتلك القدرة على توفير جوازات ووثائق سفر للجميع. من فلت فلت ليكون مشرّدا في المنافي والجوع والألم أمّا القيادة فكانت تنعم بالملايين التي سلّمها لها النظام. يقترب من الباب أكثر، قامته تذوب في رائحة السجائر التي تلفّ دائرة في المكان وأتوقّع أنّه سيصدم الباب، لكنّه يجده في النهاية وفي ارتعاش وجهه وغضون جبهته وموسيقا النّزف السماويّ لأعصابه. تتلمّس أصابعه نتوءات الحديد ومثل أعمى يفتح الباب المموسق بالمغاليق القروسطية وتصدمه رائحة النذور والحِنّاء وصور الإمام علي وبخور رخيص يعبث في سمفونيّة المكان. ومن ضجيج الأطفال وصخب الشوارع المتربة ينفلت إلى العالم الخارجيّ ويذوب كما الزهرة في زبد البحر.

الفصل الرابـع

مسبقا عرفت بما سيحدث لكني لم اعرف انه سيكون بهذا الشكل. أقترب منها وأضم أصابعها الباردة، أشعر برائحة الأمومة تموت في عالم من النكران الكلي. تأتي ربة المنزل وتطلب ببكاء مرير وإلحاح مع صخب الفروخ[1] أن نخرج من المنزل حالا. ونخرج من البيت بوشاية العالم إلى المجهول. نسير في الطرقات مثل مأثومين. الخطيئة الرابضة خلف الباب تكبر هي أيضًا وأولاد الأفاعي يملأون الطرقات. نمرّ بهسيس الصّمت على الكثير من السيطرات، سيطرات كثيرة تتفتق عنها الأرض وكأنّك في مشهد من نهاية العالم حيث الشيطان يكبر بحجمه الهيوليّ ويملأ الغيوم. أشعر أن أمي مريضة وأحاول مساعدتها. البرد قارص، ومع النقود القليلة نحسّ باختناق، نصل الباب الشرقيّ ومن هناك نذهب إلى جوريّة – صديقة أمّي – التي ما زالت تعيش في محلة التوارت منذ أن خُلق العالم. نطرق الباب بأصابع يابسة هشّة. يخرج الزوج ويفاجأ بوجه أمي. تريد أمّي أن

(1) الفروخ: الأطفال بلهجة جنوب العراق وبلهجة أهل بغداد تعني الولدان المخلّدون الذين يلاط بهم.

تدخل، يمنعها ويقول: جوريّة ليست هنا. نبقى دقائق غارقين في الصفنة ثم نترك الباب، نترك كل شيء، نتحرّك في درابين المحلة الآيلة إلى الانحطاط ثمّ نسمع صوتاً نسائيًّا خلفنا، تلتفت أمي، إنّها جورية!! تقبّلني جوريّة وأمي تحدّثها عن الوضع. تقول صديقتها إنّها لاتستطيع استقبالها في البيت إذ إنّ زوجها فقد عضويّة حزب البعث قبل أسبوع وحالته النفسيّة صعبة. تتنهد وأسمع صوت التنهد عاليًا ويرتفع في حلقي يباس. تقدّم لنا جوريّة مبلغًا صغيرًا من المال نأخذه ونعود إلى الباب الشرقيّ.

نصل شارع المشجر ونلتقي قريبنا إبراهيم في مذخر المنارالذي خرج من المعتقل قبل أسابيع. يصعد بنا بعجالة إلى حجرة على سطح المذخر ونشاهد هناك عظام دجاج وقشور باقلاء متيبّسة وقناني بيرة فارغة وجرائد قديمة. في ذلك الزاغور، الكنج نتكتل، أمي وأنا، على أنفسنا كجرذان وليدة ومطر نشيجيّ يهطل على حافات النافذة. كنت أنظر إلى المياه الهاطلة كما المصاب بالطرش، أنظر بجنون التيه الذي أنام تحته مشوهًا ومضرجًا بالأوجاع، محتكًّا بالهسيس، ملاصقًا للنكبة والتهيّج الروحيّ. يأتي إبراهيم في اليوم التالي ويقول لأمي: إنه من الأفضل لها مغادرة العراق، الحملة الأمنيّة قويّة والمطاردات مستمرّة وكلّ قيادة الحزب الشيوعيّ غادرت العراق وأنّه من الأفضل لها أن تهرب هي أيضًا. وتستمع أمي بانبهار إلى كلامه وتنظر إلى النافذة طويلًا، تنظر إلى المطر السماويّ والملائكة الهاربة والجياع ورحلة السنوات الطويلة في العراق. الآن يُطلب منها أن تترك كلّ شيء وبكل هذه السهولة.

يقول إبراهيم إنه يقترح السفر حفاظًا عليها وعلى أطفالها وتتمتم أمي: الأطفال، أين أتركهم؟ ويلتفت إبراهيم نحوي ويقول: سنتدبر أمرهم، سأرسلهم لاحقًا. وتقول أمي: وماذا بخصوص زوجي؟ سنتدبّر أمره هو أيضًا، سأحاول الحصول على جواز من الجبهة الديمقراطيّة أو الشعبيّة

وأضيف إليه الأطفال وسيلحق بك إذا لم يرتكب حماقة كما هي عادته. وأشعر بارتباك أمي وقلقها وانشداد بشرتها. ويقول إبراهيم أيضًا إنّه اتّصل بأحد الأصدقاء في الجبهة الشعبيّة، ويريد صورة شخصيّة وبعض المعلومات. ننزل ونحن نحتكّ بالحيطان القديمة وعبر درج مُلتوٍ، بعيد، طويل. صورة أمي مضبّبة في الظلمة الكدرة وعبر ممرّ خلفيّ لِلمذخر تذهب مع إبراهيم إلى مصوّر شمسيّ. في اليوم التالي تُصاب أمي بنزلة برد وارتعاش وسعال وضعف في صوتها أربكني. كنتُ أشتهي لملمة جسدها والسفر به إلى عوالم سماويّة بعيدة وأشعر معها الآن بالقلق والترقب، عيناها تزوغان مع البرد وعدم وجود مدفأة، ومن ثقب الباب المدلوع للعاصفة والتشيؤ في المكان والرغبة في ابتلاعنا وقذفنا إلى المجهول أسمع صوت الريح كعواء وهو يثقب طبلة الأذن.

عندما استيقظ بعد إغماضة عين قصير أشاهد وجه أمي يسافر إلى مسطحات المياه المسحورة. أستطيع الحصول على جولة بائسة في مخزن المذخر وتعمينا رائحة الكيروسين وأصابع أمي النظيفة متّسخة. وأنا أوقد الجولة أفكِّر بأصابعها، أفكّر بجسدها الذي لوّثه زوجها، وأشعر بالرعب وهو يماحكني وترتعش أصابعي لحظات وأفكر في أوجاعي ومرارتي المتأتّية من نومها معه. أوجاع تتركني منتهكًا لقسوته معي. لا أعرف إن كانت تفكر هي أيضا به أو تتذكر في نسيانات الزمن صوته ورعدته ورعشته القتيلة والمُموّهة بالأشواك، لكنّي أحسّ بغصّات تتصاعد.

في لحظة أشعر أنه يجب قتلها وهي تروم الهروب من العراق إلى المجهول، خلف المدن، وراء البحار وعلى حافّات الصحراء العربيّة. ومن داخلي تنبعث صور الموت، موتها الدمويّ. أشتهي لعق دمها في لحظة عري غريب شامل. أجرب تردّد النظر بعيون يتيمة مندهشة إلى وجهها، عيون تشبه في حدقاتها حدقات السحالي الصحراويّة عندما تتوقف

لاصطياد الفريسة. وجهها الذي غادرني إلى أطفالها الآخرين. أنا المموّه بالألم، بالعزاءات، بالتراتيل المحمديّة وقراءات قرآنيّة مبتورة تتوقف دائمًا عندما أكل يوسف. لم تكن تفهم نوع التأثّر الذي تمارسه علي تلك المرأة الغامقة، الضبابيّة، المرأة الوحيدة التي تتساوى لديها مواقيت الليل مع النهار والبكاء مع الابتسامة. ولشدّة خوفي من التسلق الوحيد ومنفردًا لهاجس الرغبة في أوقات الموت، أتوسّل الطيف الخفيّ الذي أشاهده في الأحلام أو الشبح الشفيف الذي يمرّ تائهًا بين غفواتي أنّه يجب أن تفتح تلك الأمّ منازل الأقمار لتستقرّ في ذهني وتلمس باندهاش نوع الغربة المؤلمة التي أعاني منها والتي استمرّت في حياتي كلّها وإلى اليوم الذي شعرت فيه مفرغًا من الأمل، أنّه يجب أن ينتهي هذا الوجع ويجب أن اقتلع بيدي كلّ أشجار الشوك والخطيئة.

أنا أعرف ملهمًا بغوايات الشيطان ربّما، إنّ نزيف الأمومة الذي أُعاني منه ليس له علاقة بالله، أو الإنسانيّة، إنّما له عَلاقة مؤكّدة بها هي. هذه المرأة التي تجمع تحت أصابعها كلّ الألغاز وكلّ الأحلام وتمارس سلطة عجيبة على أحلامي ونزواتي وعشقي الغريب للاقتراب من النساء إلى الحدّ الحاسم الذي يرغمك على قتل الأنثى واستحضار الدونيّات المريرة من الوقوف على سواحل البحار كلّها، وأن تدعو الشياطين لتمخضني كل دروبها ومزاراتها وأن أكون أنا الذراع الكليّ القدرة والسرمديّ للموت. وعندما أعرف مقدار سموات ابتعاد الله عنّي استُفز في إشكاليّة ابتعادها عني، الابتعاد الذي ما كانت تعرفه ولا تفهمه في هذا الطفل الغريب والمدهش متسربًا إلى عالم مؤطّر بالوجع والشظف الجنسيّ والإنسانيّ.

كنت بحاجة قاسية لأنّ تلمسني، لأن تجعل أوجاعي عبارة عن أضرحة يمكن للملائكة أن تطوف بها وأن تطير بي إلى المدارات المتوحّشة لله مع النار الأزليّة وإلى أكوان مجاورة وقوانين ليس لها علاقة بقوانيننا.

وكانت النار زورق كبير محمل بكل الأجزاء الكونيّة لجثتي التي أريدها أن تموت بعد هرب الأم وزواجها. موت الأم والبنوة الضائعة التي تشبه العشب المتفحم والركام الحديدي الملوث بالزرنيخ والأكاسيد. في أوقات كثيرة هشّة أحسّ بنقص عجائبي واشتهاءات للمسّ طبقة صفائح وجهها المطريّ وملمس طبقة الدهن الرقيقة تحت شحمة الأذن وخيط العرق الصغير المنهمر من الإبط باتجاه صفحة الجسم الأبيض الملون بعشرات الشامات الرقيقة. هجس أني غادرت رائحتها التي تشبه عطر الغابات عندما تطيل السماء وابلها المطريّ.

صورة ذهابها معه إلى غرفة النوم تتأرجح أمامي بشكل قاتل ومبعثر لأسمع منها الآهات الذليلة لنوع الأنثى اختياريًّا لسلطة الوهم الرجوليّ. أمامي تتفشّى الجوار الكُنّس للتهدّمات الحجريّة لبنية الوهم وإشكاليّته، مرارات خيانات تسللاتي الدمويّة الغامضة المزنرة بالسيوف المتآكلة والقلائد الجاهلية والأرواح التائهة على سدرة المنتهى وذات أنواط، في ليلة شتائيّة تشبه ليلة خروج الله إلى العالم من العماء وحيدًا إلا من كلمته وصولجانه الكليّ وروحه القدوس السائر على ضفاف الأنهار والبحار النيرانيّة. وانتحب في المطبخ وصوت زوجها يعركني لأجل أن أسكت. كنت أمارس نوعا إسطرلابيًا من محاولات الجناس الذهنيّ واقتراب من هيوليّة خوف اشتباكات الظلمة، وهجرتني في تلك الليلة التي كنت أشدّ ما أكون لارتجاجات حضنها. فكّرت وقتها وللمرة الأولى بكينونة تدفيق نزيف الانتحار غير الظّاهر للعَيان، اللا ملون كسائل الغدد اللمفاويّة وبالقمع وبالهزيمة الصُّلبة لتركها جسدي في دهليز الخراب أمام شهوة العواصف ورشق النوافذ بالمطر وسيلانه كمجنّحات إلى الأرض مشفرًا بنبوءات، تأرجحات أضوية نائيّة تنتهك العزلة وتظهر الشياطين.

منعطفات ظلال تلك الليلة لاتني تعذّبني وصور هجرها لي في وسط

تفجيرات ضجيج الفلق والنجم الثاقب وساعات البروج الليليّة وكهيعص متراخ في نون الذئب اليوسفي وتكسّر نصال أغماد الخناجر اليمانيّة أمام تمثال الإله المقدّس الجليل بقوة عضوه المتوفزة إلهًا للقمر. وأنا انظر من نافذة البيت وحديده، إلى المكان الأصغر اختزالا خارج المنزل مكاني، ليلة التوحش، المكيدة، اللا تناغم، اللا ئيكيّة مخلوطة بتبر رغبة التبول ومطر كبير، كثيف، سريع، سماويّ وأنا أتلمس الحيطان الطباشيريّة في الظلمة بسبب انقطاع الكهرباء.

شعرت في بيتها بأنّي أريد أن أرقص السامبا بانجراح محنتي، بأشعار المتصوفة اليزيديّة في مدائح الشيطان وا نتهابه الفوضويّ وبالبراكين تفيض بالأحجار النيزكيّة التي توضع في زوايا تكعباتي، تجرفني، باللا معنى، بالانثلام. وأسير للمرة الأولى في الظلمة لأقف متنصّتًا على بابها المغلق قامعًا الدسيسة وحنجرتي والأصوات وملتمسًا جسد أنفاسها، دفء النهد والارتخاء الذي أريده عارمًا، ضحايا في مشهد الإحاطة الجنسيّة لأرض طفولة الأحلام الجميلة. برغم أني كنت سأبلغ مبلغ الرجال عانيت ولم أزل من افتقاد تهافت النهد، الثدي، العريكة، الاصطخاب، انتفاض الشعيرات الإبرية للحَلمة، الدائرة البرجيّة، سلالم العروج الملائكيّ، قدس الأقداس، جفاف الفيض الإلهيّ في معبد، كنيس، مسجد، كنيسة الإلقام، رائحة لمعان إيحاءات زيت الإبط وهي تغرز فيك تضخم غدة الأمومة والعرق غزيرًا، مدرارًا كفيض في لهيب آب، واهبًا نفسي بعيدًا في التثام الأصابع، في نوسان توسُّل أظافرها.

كنت بحاجة مدمّرة إلى رائحة جسدها الذي لم تفهمه هي. عطش، ظمأ، تلاسنات الملائكة أمام جثة الشيطان، دوّامات تيّارات هوائيّة ساخنة، تدحرج من جبل قاف، سهل تشتعل فيه السنابل والخيول المتراكضة في ضوء القمر عند خيام بدويّة سوداء ورائحة الحطب والقهوة والنار. وعندما

شممتها بعد زواجها هربت عاريًا، هلعًا، كنجمة الصبح، إلى المهلك، المطهر، أرض اليمبوس، إلى مقبرة موت الأحلام المتوسّدة صخام القشعريرة المباغتة كشعلة تنغرز على أطراف الأضرحة المقدّسة في تصحّر الرمل ويباس الحياة. أعترف أنّي غدوت كقنديل مطفأ، فانوس، لالة، شمعة، وبأني ارتميت بعيدًا إلى الأنهار كصابئيّ، غطسًا، ثكلًا، نكلًا، بعيدًا إلى ضفاف دجلة والفرات، قريبًا من وهج الانفجارالمميت لانبثاق الضوء الأزليّ ومحاولة الشيطان مصارعة أسلحة الله الجهنميّة، ثم ارتعشت من الدهشة، كقصبة عارية وأنا أشمّ الرائحة الجديدة.

كانت قاسية، أعترف، أخضع لسلطان الهواء وإله هذا الدهر في لا منح الثدي، مذاك نفرت كأنثى من طعم مذاق الرجال، ثم تماهيت في المكنون من عقدة اللا وقت واللا مكان والانسلاخ في غبار الفضاء.

أنظر إلى وجهها المثقل بالتكهُّنات الآن والتغضّنات التي بدأت بالظهور. أيام طويلة انقضت لم تغتسل فيها، لم تمسسها مياه بحر دجلة. رائحتها الحلوة، السوسنيّة، كنت أتنفّسها بشبق غريب كالكافور، شبق تائه في رائحة الشاي. لكنّي أبتعد عندما أتذكّر زوجها،أبتعد في نفور غريب، مهلوس. أتلمّس أصابعها، أقربها من الجولة تضغط هي أيضًا أصابعي تقول لي: هل سيأتي إبراهيم قريبًا؟

صباؤت حياتي أمامك يا أمّي فيما هي تفكر بأطفالها بصوت عالٍ، تفكّر في إلقام الثدي للأصغر من الأطفال. ثديها مترعا بالحليب – حليبي المهراق – تشعر بجفاف فمها. وأناولها طاس ماء لكنّها لا تتمكّن من الشرب، تحسّ بغصّة تصعد إلى حلقوم جاف في بهاء أضوية بغداد. لم تنطق بأكثر من كلمات هشّة، متراخية. ومع الصمت كان هناك ضباب يلوح من الكوّة الصغيرة. الباب مغلق غير أنّ حوافّه يتسلّل منها ضوء ضعيف كامد. أمُسُّ أصابعها وأحاول أن أضمّها، أدفع بالجولة إليها، بصخامها

برائحة الكيروسين. أشعر أنّها تغفو، تُهذي ببربرات قادمة من اضطراب الذاكرة عندما تمزّق الستارة مخالب النسور.

حيث الجثّة تكون الوحوش وحيث الدهشة تموت الوجوه والصدمة. أحسّ بالتواء أعصابي ومثل أصابع حديديّة تندفع الأسياخ إلى عيني. تورُّمات كبيرة، تورُّمات في هطول المطر وهو يتسلّل من حافّة الباب. لا أسكفة لا ضراعات، كل شيء يهجم من حافّات التلصُّص على العالم والجرائد تنتشر في المكان وتغطّيه.

عندما تحوص في هذه العلية يمينًا أو يسارًا تسمع خشخشات أشتات الورق. الحروب السماويّة تدفع الهواء الذي يتسلّل مثل لصّ بخفوت بموسيقانيّة مدهشة ويلسعنا. كم هو بارد شتاؤك يا بغداد؟! سيّدة المدن التي انتحرت عندما اغتصبها البعثيّون، الشيوعيّون. وإذ بعد أيّتها النكال السود والجماجم المتراصّة على السفود، ستصيرين وردة متفتّحة على مسامل أوجاعنا وكسور عظامنا ونحن نموت على جسورها مثل فخاتي الهيام والزرازير الهاربة من أسلاك الكهرباء. أتوحشك ريح بغداد وأنظر إلى الأسكفة المخلعة وضجيج الصمت المترافق مع سكون الآذان والالتفاتات إلى الأزمنة السابقة. الموقد - الجولة - الصينيّة الصنع بفتائلها تغزونا.

أنظر متألّمًا إلى وجهك أمّي وهو يشيخ. إطلاقات تنوير تعبر سماء بغداد فجأة. مسدّسات البعثيّين تنتحر في أفواهنا وإخصائنا يتفجر، مدويًّا قادمًا من ألف ليلة حيث السلطان أميرًا للزمن والكينونة والهواء والنهارات وسيافون قتلة وفعلة في غيابت الجُب ويوسف أكله الذئب.

أشعر بالشفقة على تنهدات، تعجلات نويترونات أرواحنا التي تصطخب هنا متلاطخة في أنبوب العدم. مدنَّسا بالألم، بالحجارة السوداء وهي تشتعل أمامنا، بالنكران من العالم لضمير التنهدات المكبوتة ولتقربنا

زلفى من إسراء العدم الوجوديّ بعد موت الضغينة والحواسّ، ومن أسكفة العالم الصدئ أشعر بغُصّة الوَحدة والتشنُّجات التي تعانين منها. أتذكّرك ببروق واشتهاءات غريبة على النّفس. تأصيل للقرنفلة المزروعة داخلي، للقتل غير المبرّر لإنسانيّتي. طفل يحلم بك في عالم من الأنوار المقدّسة وكلّما أحلم بك، منذ الطفولة وحتّى الآن أفرح، غير أنّه حتّى في الأحلام، تنحرفين فجأة لتذهبي لزوجك وأطفالك. حتّى الأحلام يا أمّي كنت شحيحة بها لا تمنحيني ولو قُبلة، زهرة، وردة. غصن مقدّس وأنهار سيحونيّة، أنهار في الحلم المرتبك وأنا أشاهدك تمزحين مع أطفالك وزوجك أمّا أنا فأقف حيث الباب ملتصقًا بالأسكفة التي انسحق تحتها ناظر إليك، تجاهك، نحوك، مكلّلا بالدموع وملاصقًا وجهي لخشب الباب.

الدموع المقساة أمّي ما كانت لتوقف الحشرجات القتيلة ولم تني تنبعث من الحلقوم وغُصصي عارمة صدقيني. نظرتي أيضًا مليئة بالجوع لشيء ما، لعملٍ لا إراديّ. بعد ذلك في حياتي المتوّجة بصخب ابتعادك عنّي زرع في شيءٍ لا أفهمه حتّى الآن، شيء غريب، قاس، ذئبيّ. شريحة إلكترونيّة تصرخ في جمجمتي. وعندما مارست الحبَّ العربيَّ لأوّل مرة خلف الأشجار ملاصقًا للسدرة مع بنت الجيران شعرت بهبوب عاصف لريح سريعة وأردت قتل الفتاة، أكلها، ابتلاعها، تشويهها وامتصاص بظرها والدخول إلى مهبلها الورديّ. منذ ذلك الوقت، منذ اللحظة الديماغوجيّة لتحوّلي، كرهت كل شيء يتعلّق بك، حتّى الرغبة التي تحفّزني لقتلك، الوشاية بك. مَن يشي بك؟ من يشي بتنمّري؟ بذئبيّتي المتفاقمة. كنت وأنا مع جدّتي وفي كل مرّة تهاجمني صورتك كالنسور، أضرب جدّتي، أضربها بقسوة، أضربها لغير سبب، أطوي صحون الفافون، أمزّق ملابسي، أقطع أربطة حذائي. كرهتُ العالم، كرهتُ طفولتي ورجولتي وشهواتي غير

المبرّرة للعطش الخفي. أسبح في المستنقعات المتوحّشة لأصطليَ بردًا. أشعر إزاء كل امرأة بهجوم عاصف لريح مغامرة ونسيانات وابتلاءات، وأتيهُ فجأة في سمويّات مجهولة. لأنّ الوردة ستبقى وردة طالما الغصن يحملها، ولأنّ العاصفة لا تشتهي إلا القتل لذا كنت أقتل نفسي، أعذّبها، أشوّهها، أقتل كل طفولة في وجهي. أجرح أصابعي. أغرز إبرًا في شراييني وكانت جدّتي تبكي، تبكي انهماري من شاهق. جدّتي المسكينة التي كانت تغمرني بكلّ تنفساتها أحطّمها. لم أكن أفهم هذه الذئبيّة. لا أفهم إلا الضجيج من مجهول الذهن، من فضاءات سحيقة وكأنّي في لعبة دولاب هواء يريني دائمًا صحراء جفافي.

***

صباح أسود آخر يتسرّب إلينا من الباب. نحن ننتظر بلا أمل. يجيء إبراهيم مهمومًا ومعه صحن كباب. يجلس وينظر إلى وجه أمّي التي تقول له بصعوبة: حمامة لو غراب؟ أريد أن أخرج إلى العالم. ويقول إبراهيم: فشل كل شيء، وصلنا متأخّرين. أبلغوه في الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطيّة أنّ كميّة الجوازات لديهم نفدت، سلّموا كلّ ما يملكون إلى قيادة الحزب الشيوعيّ. ويتقلّص وجه أمّي. أشاهد التغضنات تتزايد ويقول ابراهيم إن هناك مخرجًا آخر. سيحاول أن يرسلنا إلى صديق يأخذنا إلى شمال العراق حيث الجبال والغابات والرفاق الشيوعيّين من منظمة كردستان. يغادر وأشعر بهبوبات لثورة وهيجان، وأقترب من أمي. أقول لها: ، الله هو الذي فعل هذا، فعله بسبب النكران، نكراني بنكراني. وتنظر أمي إلى وجهي شائهة. نظراتها شاردة، قلقة، منزوية، متكوّمة مثل خرق بالية. أحسّ بجسدها يذوي. تحتضن الجولة وتلتصق بها والتصق أنا أيضًا، بحافات ثوبها، التصق بوجهها. أشعر أنّي أريد أن أُقبّل هذا الوجه وأطعنه. أقول لها إن عليها أن تتذكّر كلام سليمة حزقيل. أريد أن أقول

لها أيضا، إن اللعنة المدويّة لم تزل تعمل في جسمها، لعنة عدم الاختيار الصحيح للانتماء إلى الحزب الشيوعيّ. أذكّرها بما قالته لها سليمة حزقيل يوم قرّرت الهرب من العراق.

هناك لعنة على العراق، لعنة أبديّة ربما بسبب اضطهاده لليهود. هكذا قال الأب، وهو يقرأ في التوراة وأسفار أشعيا وربّ الجنود سينتقم، ستكون هناك مذابح، قتل، سحل. ويبرز إلى ذهنها فيلم فوضويّ، شريط أسود من التنهدات. لقطات الفيلم تتحرّك مع ظلال رماديّة وسوداء سريعة وفيما هي تفكّر في سليمة حزقيل وكلماتها، تتذكّر الوابل الدمويّ من المطر، الوابل الجهنميّ لتاريخ بلدٍ مُرِّغَ في الدماء. تتذكّر اليوم الذي تعرفت فيه على سليمة. تشعر الآن أنّ كلامي قد يكون صحيحًا. يجب أن تتذكّر، أقول لها: من أجل نفسك، من أجل روحك. أقترح عليها أنّ تسلم نفسها بدل كل هذا. تنظر إلى وجهي باستغراب، تحاول أن تستقرئ أفكاري. أعرف أنّها تفكّر الآن، أعرف أنّها تمرّ بنوع من المراجعة الدمويّة للتاريخ الحادث والمستحدث. تمدّ يدها إلى الكباب وتلتقط قطعة لحم. مذاق الكباب الذي يسيل له لعاب أعظم الأفواه في العالم، يحكي نزوات التذوّق للعراقيّ ببهرجته في تنغيمات الطعم. ومسيس قطع اللحم ليس اشتهاءً فقط لطعم اللحم إنّما نزوة سريّة في التماثل مع الوطن، في التماثل مع تاريخ مهووس بالانعجانات الذاتيّة للنفس مع طين الأرض ومذاق اللحم العراقيّ في سريات تكوُّنه المذهلة وكأن الأرض تضع والآلهة معها شحنة التذوق المبهمة والمشدودة إلى العقل. لذلك، فإنّ طعم اللحم العراقيّ له تنوينات خاصّة، له ارتباطات سريّة ومتشابكة مصنوعة من طعم تراب الأرض مع النباتات، مع الأشجار، مع الأزهار، مع الأنهار مع الأسماك مع العنادل واليمام والمعادن المخزّنة عميقًا في الأرض ومع تكوينات التربة وملوحتها. تقول أمي بعد لقيمة صعبة البلع مع الزردوم المنهك والإلهام

الضبابيّ للأحلام: كيف لي أن أترك تكويني الكلِّي مع هذا الوطن؟ عقلي وسريّات جيناتي المصنوعة من طعم هذه الأرض.

تتمدّد على الحشيّة وتسعل بعد اللقيمات وتضع ذراعها فوق جبهتها، متذكّرة موسيقا غريبة تجلدها. رضوض روحها وأمواج تضرب جنبات سفن ارتحالاتها. بحر من المياه القاتمة تتساقط مطرًا غريبًا، زوبعة تتفجّر من بعيد. تنمو إلى ذهنها صور شتات الأطفال والزوج والبيت الجديد الذي كوّنته بعد وفاة زوجها السابق – أبي – ذاكرة مموّهة بمشيئة كره وهي تتراكض مع سليمة حزقيل من بيت لبيت. هروب من ملاحقة لليهود. يتمّ إلقاء القبض على سليمة وتسحل من شعرها، من البيت الذي تختبئ فيه. صراخ وفوضى وأذرع وعيون وغطيط ونحيب. تركض باتجاه سليمة، لكن الأخيرة يتم اغتصابها بمساعدة نسوة.

منظر سليمة بعد الاغتصاب ونهب دارهم يجعل أمّي تشعر بالتقزُّز. سليمة التي كانت السبب في انتمائها للحزب الشيوعيّ تقول لها عشية هروبها من العراق: اتركي هذا الحزب. تلمسها، تحتضن أصابعها الباردة، تنظر في وجه سليمة الباهت، المائل إلى الصفرة، تتحسّس أصابعها، بروز أنفها المجروح، الأذن أيضا، فروة الرأس التي انغرست فيها أصابع المغتصبين. تمسّ المطر الهاطل من عينيها وسليمة تقول: زكيّة أستطيع أن أقول لك إنهم كَذَبَة، وتشعر بارتعاش وجه سليمة وهي تحدثها بمرارة عن الفقراء الذين كانت تطعمهم وانقلبوا عليها واغتصبوها في أيام الفرهود. تتذكّر بألم، يوسف سلمان– فهد[1]– تتذكّر رفاقه في المكتب السياسيّ، الذين كانت تموّلهم وتخبئ بعضهم، كيف حاولوا واحدا بعد الآخر غوايتها. تصطدم بمن تحول من القيادة الأسطوريّة إلى ذئب يجري خلف ضحيّة. انتبهي زكيّة، انتبهي جيدًا، بعد خروجنا عشعشت شياطين مخيفة

(1) يوسف سلمان – فهد –: مؤسس الحزب الشيوعيّ العراقيّ.

في هذا الحزب. أشياء شاهدها أخي بعينه يوم كان سجينًا. كانت الأوامر الحزبيّة تأتي إلى بعض الشبّان الذين يمتازون بالجمال بأن يرفّهوا عن رفاقهم. لا تستطيع أن تفهم كيف اختار يوسف سلمان كل هذه التشكيلة الغريبة لقيادة الحزب وهي التي تعرفهم جيدًا.. الشيء المُثير هو إصرارهم – الرِّفاق – على أن يكونوا عملاء للدول. حدثتها عن اتصالهم وتعاونهم مع السفارة البريطانيّة وتلقيهم الأموال منها ثم نشاطهم في تجنيد عناصر للمخابرات البريطانيّة. وأشاعت أنّ الثوار الفلسطينيين الذين يقاومون المشروع الصهيونيّ عملاء للمخابرات الألمانيّة. هوس غريب، جهنميّ، على إتيان الأولاد. عرضوا عليها أن تكون عميلة لبريطانيا. أخذوها لمكتب القنصل البريطاني. ومرّت في دروب متعبة ومليئة بصراخ العالم والناس البسطاء. وهناك في السفارة عرض عليها أن تكون عميلة لبريطانيا العظمى. بعد شهر من هذا اللقاء استلمت أموالًا أخرى من السفارة عبارة عن تبرّعات للحزب الشيوعيّ العراقيّ لدعم نضاله ضدَّ الألمان، ضدَّ دعايتهم. كان الرِّفاق ينتشرون في المقاهي لالتقاط أية أحاديث عن حرب البريطانيّين مع الألمان. يقيسون للسفارة مستويات التأييد الشعبيّ لألمانيا، للحرب القذرة. حملت في العديد من المرات أموالًا من السفارة لدعم جريدة الحزب ودعم أنشطتهم كلَّها، وحساب سريّ في بنك عراقيّ للطوارئ ثم بعد ذلك تحوَّلوا إلى عملاء لموسكو. دورات تثقيفيّة، دورات لتأسيس جهاز الحزب الأمنيّ، دورات مجنونة جديدة لتكوين بؤر تجسسيّة. مرة أخرى تجسّس على الشعب وقواه الوطنيّة ونقل كل شيء إلى موسكو، لكن بعض الرفاق بقي عميلًا سريًا لبريطانيا. الأم الرؤوم، التي أنجبت بذاتها ومدّت ذراعها وكوَّنت الحزب الشيوعيّ أصلًا.

***

مزمور للزمن، مزمور للمرادفات العفنة والمضايقات التي جاءت من

بعيد حيث العسس والشرطة السريّة تنداح في بغداد مثل تنانين قديمة، حيّات، وحوش تشبه الأسود بأفواه تشبه الميدونات.. مزمور لحياتك أمي. للواهنين مثلي والصارخين في الطرقات. مجدك ووعدك وابتهالات روحي وهي ترنم لك. مزمور للنكايات التي تنبسط على وجوهنا ونحن يا أمي ننداح في كراجات السيارات وباعة الشايِ واللبلبيّ وسندويشات الفلافل الرخيصة والفشافيش والمخلمة. متخلّلين بقلقنا بين الشرطة السريّة ورجال الأمن والمخابرات ورجال حماية القصر الجمهوريّ وتكارتة يسكرون في نادي العلويّة ونادي الصيد ويتقيئون في السيارات الجديدة التي اشتراها لهم الرئيس. نعيش بالروح المكلومة والرهبة والارتعاش كلّما اتّجه شرطي نحونا، ثم نكتشف أنّه ذاهب للتبوُّل في شارع جانبيّ قرب عمود كهرباء متعب وخلف كشك يصنع الفلافل والسندويشات البائسة، في ظلمة قاسية وتشنّجات سائقي الباصات الغافين والصاحين بمشقة وروائح العرق تفوح منهم، ووليد الفلوجيّ يقرأ ماتيسر له من سورة يوسف في ليالي باهتة وباردة ومضبّبة وليس هناك غير ظلمة وعرة. في شوارع مملوءة بالأزبال وزبّالين منهكين يتوقّفون كل دقيقة عن العمل ليصنعوا لفافة تبغ يستغرق صنعها ساعة وتدخينها ساعة ونصف. نسير ملهمين مكبّلين بالفلق في كينونات استرهاباتنا ونحن نسحب أرجلنا ببطء كحيّات خارجة للتوّ من سلّة هنديّ.

بغداد المكوّنة من الوهم وتجسّسات الأهل والأقرباء والأصدقاء عليك في بلد البائلين على الحوائط التكتونيّة في اشتهاءات العبث التكريتيّ بحياتنا وتشنجات أعصابنا، وأنت في مراكز الشرطة وزواريب مدينة الثورة أو التحقيقات الجنائيّة.

بين أبواب الخصاء ومطاردات الشرطة السريّة وانفلاقات الحروب الخربة على الأرواح المتناغمة مع البلاهات. الزمن البعثيّ وقبله الزمن

الخصائيّ الشيوعيّ وممارسات اللّواط العفِن وسراديب النّجف والولدان المخلّدون بسياقات النقد والنقد الذاتيّ، وبعثيّون لاطعون لطعة الخراء التكريتي المقدّس يزحفون على المناكب والأرجل في عورات الالتباسات المحمّلة بالطعونات الحلقية والفتنة والقراعين النرجسيّة لتمثلات السيد الرئيس مع أنسابه المقدّسة في بحبوبة أعصابنا المتجحفلة كفيالق الحروب التوراتيّة.

أتذكّر على نحو شديد الاستثارة من ثورات الانبعاصات للذاكرة، وأنا في هسهسة وأنفاس الصبح الداخن أو أمام بائع جرائد ننتظر وصول المجلات المستوردة للاطّلاع على العالم فيما وراء بتلات الحاجز الحديديّ للاستبضاعات الجنسيّة لإطاحة أرواحنا في بؤر الدسيسة الشيوعيّة والبعثيّة والأساليب الستالينيّة في تمزيق الخلايا الأحاديّة لحياتنا، واستكناهات عقولنا المتشحة بالانبساطات الدوائيّة والمخدّرة بفعل البنزين والسيكوتين وأدوية الصرع والالتهابات المهبليّة للخراف في الوطن ومضاجعات آخر الليل في الزواريب المظلمة في علاوي الحلّة وتحت شاحنات النقل في كراج النهضة.

وفيما دوخانات العالم المضطرب تسفح أحلامنا يزوّدنا إبراهيم مع إحساسه العظيم بالفشل بعنوان رفيق من منظمة الحزب في كردستان.

أرسلتني أمي للحصول على بعض قطع الملابس من بيتها وبعض النقود المخبأة أسفل قنينة الغاز قبل ركوب سيارات وباصات النقل للسفر إلى مخابئ الثوار في شمال العراق. وصلت البيت ووجدت فيه عائلة غريبة وحينما استفسرت عن سبب تواجدهم في البيت ضربوني بالنعال وكِسر الطابوق والحصى وبجزء من أنبوب ماء تركته أمي قرب السياج وبجوار المن اسويج ثم بعد التوسُّل قالوا: إنّهم اشتروا البيت من شخص يُدعى حسين.

باع هذا النغل بيتك يا أمّي، هذا الذي جعلته يسافر إلى وارشو ويلبس أحذية وبدلات إنكليزيّة علامة العلمين ! ويشرب القهوة المعدّة على الطباخ الغازي ويدخن سجائر بول مول أمريكيّة. حكيت كل شيء وأمي تنظر مستسلمة. ويقول إبراهيم إن المكان ماعاد آمنًا.

تتنهّد أمي، تطلق زفرات وتنظر إلى الباب. شعرها يضيع مع أبواق السيارات القادمة من عالم خفيّ وموحش وتقول: حزبها أنهار مثل جبل من الرمل، جبل من الورق، سريعا جدًّا، بل أكثر سرعة من نيزك. تصاب بعد كلماتها، بنوع من الاكتئاب تقول أيضًا: هل يمكن أن ينتهي حزب عمره أكثر من نصف قرن بليلة واحدة؟! تضحك بتشنُّج وأعرف أن ضحكتها واهنة، قلقة، عصبيّة. كل تعب الأيام السابقة ظهر فجأة مهدِّدًا جسدها الواهن. أناولها قطعة من خبز تتناولها بِوَهَنٍ وبلا اهتمام وتضعها في فمها وتمضغ. أختنق وأنا أنظر إلى فمها المتعبِ. تشققات كثيرة وضئيلة تملأ شفتيها ويصل كل شيء إلى حافّات التقيؤ. هل اقتسمنا الخبز؟ أم لم نزل؟ نظرت بعد خروجي من العلية إلى السماء، فكرت في الله وفي المصير وفي أضوية بغداد الصفراء وهي تتراقص كما في بركة مياه.

الفصل الخامس

وأنا أسير مع ميري أواسيه في شوارع بغداد، أشعر أننا في حالة نباح. سيارات مرسيدس جديدة وبأعداد هائلة، تم استيرادها خصّيصا لقمة عدم الانحياز، تقتحم الشوارع ويقود هذه المركبات الخرافيّة العربان في تموجات البرد الجزريّ والثأليل وأمراض الغدّة الدرقيّة وأصواتهم الحيوانيّة تنفلت في وجهك وهي تبعدك عن طريقهم وعلى أكتافهم عشرات النجوم الذهبيّة وعلى الصدور الشارات والميداليات والشهادات المستوردة خصّيصًا من جامعات العالم.

نسير أنا وميري مثل مجانين في الوطن، مجانين في عالم غريب يتراكض فيه أهل بغداد ويدخلون الأورزدي بالآلاف ويشترون كل شيء حتّى الخراء. نعيش أنا وميري حالة من التهميش النسقيّ، نعوي في الشوارع مثل آلهة مطرودة. وعندما نعترض على حكم الإله نفاجأ بأهل العوجة يضربون مؤخراتنا بأحذيتهم وقنادرهم وعصيّهم.

أترك ميري وهو في حالة جفاف روحي بعد أن طرده لوكية البعث من

اتّحاد الأدباء عند حسنين المصريّ في منطقة المربعة يلتهم وجبة الفول المدمس مع رأس بصل وطرشي أسود، وحسنين يحكّ شعر عانته وأتوجّه إلى قريبي الذي أصل بيته وأنا أشعر بالإنهاك واللخبطة بعد عواءات ميري في الفراغ الثقافيّ للوطن. وبسرعة يجهّز قريبي مطيّته ويضيف تنكة زيت إلى المحرّك وزوجته تنظر بازدراء من وراء ستارة الهول وتحكّ رقبتها وتلقي نظرة إلى نهدها وبعد محاولات مستميتة يشتغل محرك السيارة وتنبعث هالة عظيمة من الدخان الأسود والأبيض والقرقعات ونختنق ويطلب دولكة[1] ماء من زوجته الا إنها لا تغادر النافذة وتبدأ بالهرش أسرع وتمتدُّ أصابعها إلى رقبتها وشعرها وتتشمّم بعد الهرش أظافرها. قبل الوصول إلى بيت فَرَّاش الأمن أشعر بانهزام روحي، أشعر أنّي مبلّل وأنّني منذ أمد بعيد تبوّلت في بنطلوني. وفوق هذا نما إلى ذهني أنّي سأواجه صدمة حتمًا، لكن حتّى من خلال الصّدمة يمكن أن أستشف على الأقل أين أمي الآن.

الليل بارد، زمهريريّ. السماء كتلة من الجليد الصحراويّ المتدفّق وعندما تسير في الشارع، فإنّ العواء والهمجيّة والطقس البارد يلسعك أو يعضُّك ويعوى خلفك كل دقيقة.

نصل بيت فَرّاش الأمن. الحيونات الطائرة والوحوش الهمجيّة والتقيؤ يزداد ومعدتي تلتهب بخرائيّات عجيبة. أدور مثل المجنون في متاهة شيطانيّة. التقلبات تمنحني ألَقا أخّاذًا لكن هذه التقلبات تداهمني وتمنحني عواءً وصهيلا أيضًا وبعثرة للروح وأنت تلهث مثل كلب وتقف أمام باب الدار بارتعاشاتك، بتساؤلاتك، بالخبرة المستحصلة من عمليّة

(1) الدولكة: إناء كبير للماء ويقال له أحيانًا- الدولجة - بلهجة أهل النّجف وفي بعض مناطق بغداد - سراحيّة - وأحيانًا تستعمل كلمة الدولكة تعبيرًا عن السخط كأن يقال مذهب الدولكة أو الدولجة أو مذهب الطرمبة.

تذويب عظامك في سائل التيزاب ولا يتبقى إلا الدماغ، الدماغ المضروب بالقنادر والطكاكيات، ويتلبسني شعور المرارة ويقول لي القريب: لاتستعجل وأقول له: عندما يتركك العالم فلا معنى للإبحار على زورق الرغبة ولا الوصول إلى منبع الظلمة لأن النهارات كلها متشابهة وأن الأمل يفقد مسمّياته والدهشة عميمة والخيبة كبيرة. ينظر قريبي إلى وجهي ببله ويقول: طاح حظك، راح تبقى بهذي السوالف " ربّنَا لا تُؤاخِذْنَا بمَا فَعَلَ السُّفهاءُ مِنّا، ربّنا واغفر لنا انك أنت التواب الرحيم " ويخرج الفراش من مغارة الشياطين بملابس العمل وهي بدله سوداء قطعة واحدة وبينباغ[1] ومسدس تحت السترة وشوارب بعثية كثيفة وطويلة تشبه حرف ثمانية ووجه مستدق ورغبة ميكافيليّة في التهامك من اللحظة الأولى، منذ أن فقد العالم براءته. وفيما يتحدّث الفراش بسفسطائيّته ولكنته التكريتيّة المستلبة والمقلدة، أفهم أن لا خلاص ويعلن الفراش فشله وقبل أن نغادر دربونة الفجيعة والبهجة الميتة والصباؤوت والأطفال الذين يتبولون على الحيطان والمراحيض المملوءة بالصراصير والاشتهاءات المؤجّلة والموت على الأرصفة والنزف من بين الأفخاذ وقطع المحارم النسائيّة المبثوثة في الجوار. يركض الفراش خلفنا مثل تائه ويمسك بأطراف أثوابنا وكأنّما يُمسك المسيح في بوابات أورشليم ويهود ومرتزقة يطلقون عليك الرصاص في يوم بارد حيث الأشجار تموت منحنية والورود مفتتة والشوارع تضوع برائحة البول المليء بالشوائب. وعندما تنظر إلى بولك في قنينة الفحص الطبيّ تفاجأ بالمني أشبه بخيوط لأنّك مهان والاعتصار الجسديّ ينز من عينك ويقول الفرّاش بلهجة بغداديّة وكأنّما الضمير المغيّب قد استيقظ فيه: إنّ من الأفضل أن نتصل بشخص مؤثّر. وينصحنا أن نتصل بأمّ وليد، ألا تعرف أمّ وليد، معقولة؟! طيّح الله حظّكم، على

(1) بينباغ: ربطة العنق.

كل أم وليد تسكن في منطقة البياع، هي أهم امرأة لدى وطبان مدير الأمن. وطبان، يا للتفاهة يا للسفلس والدزنتري وداء الغرغرينا والاستسقاء! . ونحمل الخيبة مثل رضيع على وشْك الموت تحت سنابك الخيول ونبرر بالموت واللا شفقة، ونتّفق أن نذهب إلى المرأة الجهنميّة في يوم آخر.

أترك قريبي وأذهب إلى أقرب بار، حيث البول الدافئ يمنحني نوعًا من التراخي لإمكانيّة أن أنسى أمّي لدقائق.. وأنت تتراخى في وسط بحيرة من نار الوجع والكبريت يحترق لأنّ السماء فوقي واهنة، ولأنّ الله ترك أبناء القحبة يحكمون. وفي البار الهزليّ، بار الطبقة المسحوقة والعربنجيّة وجباة مصلحة نقل الركاب حيث العواء بارد وينزل من سماء برودتِنا الأصليّة هناك، هنا. في كل الأماكن، أسكر بقنينة واحدة واضعًا فيها الملح لأنّي أريد أن أنسى العالم، أنساه أو أتناساه دفعة واحدة وأتذكّر حياتي الماضية والحاضرة والمستقبل المملوء بالقمل والمباضع والجراحين يمزّقون جسدك وأقول ليس مهمًّا أن تمزَّق، المهم أن تشرق الشمس من خلال فتحات التهويّة السريّة في أفواهنا. ومن بطل البيرة يحدث كل شيء. هذا البُطل – القنينة – نشرب بها الخمرة الآن وإذا فكرت بالقيادة والبعث فإنّك ستجلس على ذات القنينة. أسمع من تلفزيون صالة الرعونة أنّ أحدهم فجّر قنبلة في مظاهرة تسير من أمام السفارة الإيرانيّة. وتعوي صافرات سيارة الشرطة والإسعاف ويتحوّل الصوت إلى هستيريا جماعيّة ويبكي عربنجيّ قربي وأشعر بالهزال الشديد والتوتر والقلق. أترك البار مهلوسًا وشاعرًا بجنون يهطل عليّ مثل مطر بارد وأحسّ بالتكوّمات في روحي. تكوّمات من أنّي أضيع في مشهد اللا مكان والمكان ينهار والعمارات تنهار وتتساقط البيوت. أشعر بالهستيريا تجتاح بغداد. كرات من الوجع تكبر وتكبر وتنفجر تحت أقدامنا ونحن حفاة، ملغومين. عبارة عن مربّعات ومستطيلات مختلفة الأضلاع. لكنّنا مستطيلات برغم الزمن

وقواعد التكامل والتفاضل والزوايا الحادّة تحصرنا ونريد الانفجار، نريد البهجة، نريد مياه آسنة وبحيرات من التنتريوك لتعقيم جراحنا وجراح أمواتنا.

أعود إلى قريبي بعد احتسائي البيرة مفكّرًا، وأتوسّله أن نذهب الآن إلى أمّ وليد، ونصعد سيارة الفكسهول القديمة. الأشجار تنهار، العاصفة لا تمرّ، الزوبعة تتوقّف، الدوّامة تنام، البالوعات تفتح. ونمرّ عبر شوارع بغداد بتيهان المعنى ونقاط الأمن والمسلحين والجيش الشعبيّ والإنذارات العسكريّة وكل شيء في بغداد يتحوّل، يتحرّك بسرعة غريبة ليتّجه إلى مجهول لا تعلمه. وفيما نحن في الطريق إلى البياع. نسمع بتفجير قنبلة أخرى. العواء يتفجر، سيارات الأمن تجوب الشوارع ويدخل رجال الأمن البيوت والأزقّة والحارات والغيوم والمطر ويخرجون عوائل أصولها إيرانيّة. وأشعر بالخوف والرعدة من أن أكون أنا أيضًا ذا أصول إيرانيّة. أعيش كابوسًا، كابوساً كبيراً من الظلمة والألسنة المدلوقة وأحلم برجال الأمن وهم يطاردوني في كل بغداد وأهرب، أهرب بعيدًا ونائيًا وأصل إلى مقبرة زبيدة وأتضرّع لهارون الرشيد، لبغداديتي، وفجأة تخرج الشياطين ورئيسهم بعلزبول وفي جوّ السحل العراقيّ تصل تعليمات للجهاز الحزبيّ بالإخبار عن أي عائلة إيرانيّة أو تبعيتها إيرانيّة ويعيش البعثيّون اضطرابًا أخّاذًا، اضطراباً مبهماً وصمت وأفواه يسيل منها اللعاب وارتعاشات مدوّية للأصابع والعيون والرمش الكبير والعيون المليئة بالقذى والسهر المضطرب.

عندما ينام العالم، فإنّ رجال الحزب والدولة ينتشرون مثل صراصير المراحيض في الشوارع مع الغبش ومع دكنة الظلمة. ومن الزيف الملوّث للوجوه تسمع أصوات الزمن، أصوات الخيبة والمرارة. نساء يتوسّلن رجال الأمن ونساء يقبّلن أيادي رجال الحزب وصراخ وعويل وصرير

أسنان وأطفال يرتعشون في غرف جانبيّة، فيما أحدهم يعملها في بنطلونه بلا رائحة وبلا صوت، فقط صرير الأسنان والضراط لأنّ الأمعاء أصبحت عصيّة على الفهم، لأنّ الكون يستحيل في انهماك ذاتيّ والملائكة تصعد وتنزل بلا فائدة حيث الله ترك العالم، ترك البعثيّين والتكارتة وأهل العوجة يصولون ويجولون في طرقات العراق. لكن رجال الحزب لايهتمّون، رجال الأمن يسحلون الرجال دون النساء وينعجن الأطفال وتتراكض النساء بلا عباءات، بلا غطاء الرأس وثياب ممزقة وظلمة عميقة وشتاء بارد وبول بارد وسماء باردة ووجوه باردة. وعندما تنظر إلى القمر لا تشاهد الضوء ولا النور بل عتمة رماديّة وشوارع إضاءتها صفراء ووجوه مغلّفة بالدم والتدافع وعصابات أعين وحشرجة قاتلة ورجال مصابين بالصمم والصدمة والبهوت واللا وعي.. هكذا حسب مشيئة الموت وسلطان الظلمة القابع خلف الغرف السريّة وخلف أجهزة الهاتف الليليّة الكثيفة الرنين والأجهزة اللا سلكيّة والموجات الخاصة وموجات الـ FM والكابلات المحوريّة. وإسرائيليون ينزلون بطائراتهم في الحدود الغربية ويضعون صمامات جهنميّة للتجسّس ثم يشربون القهوة في مضيف البدو الذين يظنّون أنّهم قوّات خاصة عراقيّة، ويطير الإسرائيليون مع رصاص التوديع للحمير والرفاق الحمير في الشوارع وفي العواء وفي العاصفة وفي الزحمة وفي التعثّر والسحل وجذب الأطراف وفي الأحذية وهي تسحق المؤخرات والضرب والتدافع قاسٍ والحشرجة متواصلة والبرد زمهريريّ والتبول بارد. تجمع آلاف العوائل من أصول إيرانيّة، ملايين العيون، آلاف الأنوف والشعر والنخام والبصاق والقشعريرة الحيوانيّة والأحلام والأطفال والشباب والأرامل والعجزة، بشاحنات وبسيارات الشرطة والأمن والأجهزة السريّة التي نعرفها والتي لا نعرفها، ويتم إركاب الجميع وتقطع السيارات الشوارع مع أصوات البكاء واللعنات والهمجيّة

والتوسّلات. وفجأة تحسّ نفسك في عالم من عوالم ألف ليلة وليلة، وفيما تنظر إلى السماء الملوّثة بالدم تشاهد الطائرات تطير والعصافير تقتل والضفادع تنقنق والعاهرات في الشوارع مرتبكات والبارات تضج ورجال الأمن يسيرون زَرافات ووحدانا ويطلبون من الناس استخراج شهادة الجنسيّة العراقيّة. وتصرخ الجماهير وتُصاب بالهستريا، وعلى أبواب الدائرة المختصّة بشهادة الجنسيّة تشاهد آلافًا، ملايين، مليارات العراقيّين في لهاث، أرق، اعوجاج الأفواه، شلل نصفيّ، جلطة، ملاريا، تبول لا إراديّ وتقصفات الشعر، والدزنتري، وداء الثعلبة، والوجوه المكوّمة والصراخ واللّعنات ويتصاعد إلى روحك أنّ العنب المُجتبى من الشوك يكبر، يكبر بصورة وحشيّة وسريعة والشرير يضحك مع سقم. وبين ليلة وضحاها، بين ليلة وانفجار لكريات الدم الحمراء والبكاء، تسير السيارات المحملة بالشحنات الإنسانيّة الإيرانيّة وتعبر قيظ اللا معنى ويتمّ عزل الأبناء عن الآباء ويؤخذ الشيوخ والأطفال وتتوقّف السيارات قرب الحدود محاذية تمامًا للأسلاك الشائكة وقناني بيرة وشربت يافا على الأرض وغائط جاف. ينزل الجميع والعيون المسحوقة بالسهر والتقلب في الشاحنات وتوجَّه البنادق ويلعلع الرَّصاص ويختلط الصوت مع صوت الرضَّع والأطفال والثغاء واللعثمة والتراكض والدعاء والعباس والكاظم والحسين. وبعد زخّات كاملة من الرَّصاص في الهواء وتحت الأرجل وفوق الرؤوس تضيع الأصوات على الحدود العراقيّة الإيرانيّة وتبتعد وفي الأثر يتراكض الضباب والتراب وتموت الأرض.

فيما نحن نسير في سيارة الفكسهول الإنكليزيّة يشاهد قريبي تجمّعًا لنساء ورجال وأطفال وشيوخ. كومة من البشر تتصارع أمام دكان، ينزل وأمسك كمه. يدفعني ويدخل المعركة، يدخل الكومة الجهنميّة وبعد ساعة يأتي بدشداشة ممزّقة وملوّثة باللُّعاب والحنّاء والطين والبصاق وبلا

أزرار وهو يحمل بين يديه طبقة بيض نصفها محطّم ويقول لي: سيوزعون بعد قليل بصل. وأتوّسّله أن نترك المكان وأن يشتري البصل من السوق السوداء. في سيارة الفكسهول الإنكليزيّة ونحن نسير في الشوارع الغائمة وصليل صوت عريض الموجة والتردّد ينزل ويسيح في الشوارع، أشعر أننا نطفو على الوحوش التي تطفو بدورها في متاهات الأنهار البريّة، في فضاءات من العدم واللا شيئيّة واختبارات لصلوات كهنة تركوا ربّهم وحده في طرقات العالم. أسمع مع انهيارات السكُر، القريب وهو يردّد ابتهالاته ورعبه من أن يكون إيرانيّ الجنسيّة والتبعيّة، أسمعه يصلّي بإلحاح مخز مثل هندوسيّ يصلّي لبقرته. تضراعاته الجهنميّة ولجاجته في القسم علىً الله أن يكون من تبعيّة عثمانيّة وليس إيرانيّة، مدمّرة، عشوائيّة، تشبه مرحاضًا يبتلع ويبتلع إلى الأبد الغائط والسوائل اللّزجة وشعيرات قصيرة سوداء – كيرلي – متساقطة على حافة المرحاض. يمسك القريب مِقود السيارة وأسنانه بارزة مثل حصان مصاب بالبله والاضطراب النفسيّ برغم أنّ الخيول لا تُصاب بهذه الأمراض ونسير في الضباب الدّاكن، من خلال تقلّبات النهر واللعثمة وانحطاط الذهن، نسير مثل أطفال مصابين بلوثة المصّاصات وشعر البنات وزنود السّت ونُلحس، نُلحس إلى الأبد بألسن مدلوقة ومتناغمة طوليًّا مع الذات المنكمشة. عيوننا مثل القطط التي تغتسل بمياه الأنهار الجافة والبعوض والسفلس على الضفاف. في المدن التي ليس لها نهايات ولا بدايات، في السُّتَر – مفردها سترة – التي تخفي مسدسات براونينغ وتقارير عن الانحطاط السفلسيّ للشعب وهو يصفّق للقيادة ويبكي وينبري الشعراء والكتاب لتمجيد الآلهة الوثنيّة في بيت الله حيث الله نفسه بصق علينا وأتمّ كلمته بنكراننا. من خلال السيوف والخناجر والزغب وتوسّل العاهرات ومراكز شرطة مليئة بالقيء، من خلال صور السّيد الرئيس عندما كان نائبًا ندور بسيارة الفكسهول في الشوارع،

نصل البياع، شارع عشرين قرب هوس زحاميّ وإخطبوطات وطبقة وسطى وأزبال تملأ الشوارع، نصل بيت أمّ وليد، نصل البغية والدليل والاستكانة والضراعات الوثنيّة. قريبي قلق جدًّا وأنا أهذي. أحلامي الهذيانيّة تمسحني مصلوبًا أبديًّا على خشبة عار التوسّل والضّعة، حيث الكل يتفل في وجهك وأنت تحمل صليب نكرانك مثل سفينة قادمة من عمق التاريخ. نترجّل من السيارة مثل ملوك الهزيمة. ليكن بولك دافئًا وشرابك باردًا وبابك مخلوعًا ونهايتك قريبة وسماؤك مقشوطة وحليبك نافدًا وتضرعاتك غير مستجابة. أضحك بملء الفم، أضحك للسخيف الذي تحدث عن بوله الدافئ، لكن هنا حيث الهمج القيادة يملأون حياتنا كبعوض وحرمس وبق وقمل وصُواب[1] وبرغوث فلا أمل في عالم من التأصيل ولا رغبة في إنسانيتك، نتوسل العاهرات لنعرف مصائر المبجلين والقديسين في زمن السفلس حيث الرعاة والحفاة ومقطوعي النّسَب يتربّعون على سُلّم حياتنا. ومن السُلّم تنهار مقاوماتك وترابيعك العشريّة ومستلزمات حياتك في وطن غريب جدًّا وسماء أكثر غرابة وبرد شباطي ملعون يلسعك حتى وإن كنت ترتدي كل أسمال العالم.

ننزل من السيارة ونتوقّف أمام باب مهيب، باب مصنوع من الحديد المقسى بترابيع ورسومات وحلزونات وورود وجهنميّات، والجيران ينظرون لنا نظرات مضحكة وكأنما يشمتون بنا، وكأنّما يؤشرون بأصابعهم نحو الخطيئة الرابضة عند الأسكفة.

نقرع الباب بأصابعنا لأنّنا أضعنا الجرس في زحام الأفكار والتواصل اللا متواصل، نقرع ويهرع نحونا أحدهم، رفيق يعرفنا بنفسه ويجري تحقيقًا أوليًّا عن سبب طرقنا الباب وعن الذي دلّنا على البيت وأسباب تواجُدِنا هنا. نجيبه بتلعثُم المرتبكين ويبتعد ليقف على مسافة منّا. تفتح

(1) الصّواب: بيض القمل في اللهجة العراقيّة.

إحداهنّ الباب بهيوليتها الكبيرة، بأبعادها الأنثويّة والجنسيّة وهي تنطوي على التغنج والاستغراب والمكابرة وأساور الذهب ونسأل إن كانت أم وليد هنا؟ وتتراكض خلف الفتاة امرأة أخرى، امرأة لها منظر المستأنسين وملاحة المُستظرَفين ورغبة الجنس القادر على ليِّ الحديد، وتجيبنا بتقليد لكْنة أهل العوجة بأنّ أمّ وليد في محل الكماليّات التابع لها في المنصور قرب حلويات الشموع، ونحسّ بارتعاش فكُوكِنا مثل فكوك الموتى عندما تسوطها ملائكة النار. وأحدّق في وجه قريبي ببلهٍ منزوع من كمالي الإنسانيّ والرفيق الحزبيّ ينظر بخيبة كوْن المرأة لم تنهرنا ليأخذنا هو إلى الفرقة الحزبيّة للتحقيق.

نصعد السيارة على عجل وكأنّنا نهرب من حالة اغتصاب جماعيّ في ملعب الشعب ونتوجّه إلى المنصور، عبر متاهات الطرق وانبجاسات القلق والترقّب وفي الطريق حيث تموت فيك زهرة القرنفل تتناهبنا مشاعرُ شتّى.

نصل المنصور ونترجل من سيارة الفكسهول، نترجل من حياتنا الإنكليزيّة ونترك كل التاريخ خلفنا يوم أراد الإنكليز أن يجعلونا شعب الله المختار فاعترضنا وثرنا ودفعنا آلاف القتلى لأنّ حضرة الشيخ شعلان أبو الجون لم يستطع أن يهضم كيف يكون كلب الضابط الإنكليزيّ أنظف منه؟، إذ يتمّ غسله كلّ يوم بصابون إنكليزيّ فاخر فيما الشيخ شعلان يغتسل مرة واحدة في الشهر وبلا صابون مكتفيًا بالشنان.

بعد تردُّدٍ قصير ندخل محل الكماليّات، ندخل أُبهة مهولة ومحلًا كبيرًا مليئًا بالبضائع المستوردة ونشاهد أمّ وليد جالسة تخدمها النساء مثل ملكة إغريقيّة، مثل إمبراطورة، وعندما نقترب برعشة التوسّل وأمل المشبوبين ترمقنا بنظرتها العارمة، نظراتها التي أذابتنا فجأةً في الخوف والإحساس بالدونيّة.

الفصل السادس

عبر زجاج النافذة المدلوع للعاصفة أسمع صوتًا، صوت الريح حفيفًا متتاليًا. في الباص تميل أمي برأسها إلى النافذة. سيولات من التذكّر ومطر كثيف يلتصق بوجهها المنمّش، تحدّق باستقامة مثل الموجة الطوليّة، مؤشّر الموجة لا يشير إلى تغيير اتجاه، إنّه واحد، غير متردّد، عجول، يستحثّ أيّوناته بمياه الطوفان الأوّل. في الباص الذي ينقلنا إلى كركوك أحاول أن لا أحدّق إلى وجهها طويلًا، ألمحها في ذاتيّات خاصّة، فرصة للانزواء والتشيؤ على الذّات الكليانيّة منطلقًا من الوَحدة الخاصّة. الوجه يشكو من انسيابيّة غريبة. أنظر ملتبسًا بالجو البارد والنافذة المفتوحة قليلًا وهبوب هواء بارد يلفظ روحي. ترفع أصابعها وتعدل خُصلة شعر، الكفّ المرتفع من التلال الباهتة منمّشًا تغزوه تشقُّقات وبقع لكدمات مجهولة. تنساب البقع مثل زيت بطيء لزِج في إيحاءات غريبة منطلقًا من جنون اللحظة وانبساطها. أنظر إلى أصابعها محاولًا استلهام تذكارات وإن كانت بائسة. أشعر فجأة ببَله مُموّه بالثعابين، بصور إله هنديّ يُدميني ويصرخ، لكنّي أتوسّل القسوة بأن تمنحني اهتبالات، مساومات، انبجاسات. اليد

التي منحتني يومًا ما فرصة النجاة من هذا العالم تضمحلّ ببهتان وينغلق ذهني مثل رحم امرأة.

أستعيدُ ذاتيًّا فعل لمس الأصابع، كفّها، ذراعها، قَصة الشعر السبعينيّة و.. بوهن وتلقائيّة دون أن أجعلها تتأمّل وجهي. يا للهول!! أكرّر في سرّ نفسي: أإلى هذا الحدّ يمكنني التحليق وحيدًا في سماء غريبة دونها. كان هذا ممكنًا أمّا معها فإنّي أتحسّس أدمغة تتوقّف عن الرؤية لتشابُك المشاهد، مثل كاميرا تصوّر حركة سريعة - أكشن - تصلبت نظرات أمي فجأة عندما توقّف الباص وصعد شرطيّ للتفتيش. مددتُ يدي، وعصرتُ كفّها وكنت أشعر بالتوتُّر يدبّ إليّ لكنّني لم أنظر إلى وجهه ولا إلى ..... تضّرعت باستماتة، كنت أشعر أني أرتجف بالتياع نحو أمي.

أحسّ باضطراب أمي شفيفًا وتتذكّر هي مفاصل بائسة من حياة تتكوّر الآن وتتّجه إلى مجهول. كم شعرت بالنِّسيان ورجل الأمن يقترب. في تلك اللحظة أردتُ أن أصرخ فضغطتْ أمي أصابعي. للمرّة الأولى كاميرا الطفل - المخرج - تتوقّف أمام المشهد. أصابع أمّي قاسية، أتذكّر ملمسها الشفيف والرقيق، ها هي الآن باردة ومتعقّلة. يقترب رجل الأمن منّا بسترته الغامقة وشعره العَكِش. احتشاد من الكوابيس يمرّ بطيئًا جدًّا. أنت لا تستطيع أن تفكّر، تفكّر فقط في الله، تفكّر فقط في هجوم الارتباك المضنيّ. أشعر أنّي أريد أن أنهض وأسير خلف الشرطيّ وأنزل من الباص وأتوجّه إلى منصة الإعدام سريعًا جدًّا. أتوسّل الطفل - المُخرِج - أن يُحرِّك الكاميرا سريعًا منتقلًا إلى المشهد التالي. أرجوك انتقل أيًّا كان المشهد، إنّه ارتباك ولعثمة وبهتان عظيم. في تلك اللحظة يكون الوجه جافًّا، العيون متحجّرة، الأذان تسمع أصواتًا، الصدر يتحرّك سريعًا، النَّفَس يصعد ولا ينزل، تتوسّله بقوة أن يهبط تلقائيًّا، إنّه بحاجة إلى قوة مُحركات ضخمة وأنت مهلوس، مخبول، جهنميّ، معتور، مُجتحف. جفاف وجهك وربّما

تعرّقه وربّما اضمحلاله، يرتحل بك إلى مسميّات ذهنيّة من العبور إلى الوله بالقتل، إلى الاحتكاك به والنفور منه، لكنّك تحبّه وستحبّه أكثر في اللحظات التالية.، إلى الأبد ستشعر بالامتنان منه آليًّا، أبديًّا. تهالك أذن إلى مقعدك وأصرخ بصوت كامل النبرات والتعبيرات اللحنيّة، لكنّ الصوت والارتجاج لا يخرجان، إنّه تقلّص لا إراديّ لعضلات الوجه.

في تلك اللحظة المجهولة من الزمن حيث الطيور تهرب والسماء تتلبّد أنتمي إلى فقدان ذاتيّ، أشعر أنّ أمّي وهي باردة جدًّا تتضاءل إلى المقعد وتهاجمها ذات الكوابيس، كوابيس الاعتقالات والغرف الأسمنتيّة الباردة. الرجل يقترب برائحة السجائر والجواريب والفجل. لسان ذليق يهبّ. طويلاً كان الهروب وعلى الحشائش بقع الدم وجنود يقتسمون ملابسي. أحاول أن أنهض، أن أذهب إلى دورة مياه مبنيّة من حجر لكنّ الرعشة تضربني. يقترب رجل الأمن، ألمح نظرته الحادّة متذكرًا عيون رجال الجستابو والعاصفة في أفلام الحرب العالميّة الثانية. أضغط أصابع أمّي، أتلو آياتٍ من الصُّحف الأولى، أقفز من عالم إلى آخر، من المركز إلى المحيط ومن مشايعين ليسوع إلى أئمة آل البيت والتلمود. كل دعاء يكتسب قبولاً. توسّلت وفيما مسدسات – وبللي – تقترب، أن أموت، أن تتخطفني النسور وآلهة العرب، وللمرّة الأولى أشعر بهذا الاهتزاز والبرد المرهق. وعندما يتخطّاني رجل الأمن أشعر بهياج عارم، ضربات القلب تهتزّ، تعمل بعجالة غريبة. أموت وأنا أنظر إلى وجه أمّي وألمح يباس زاوية فمها. يصل رجل الأمن إلى نهاية الباص ويعود لينزل. أنهارُ وتنهار أمي أيضًا. أصوات رُكّاب الباص تتحوّل إلى همهمة، غطيط، قوقئة، لم أعد أميّز بين العيون والأفواه المفتوحة ولا الأصابع ولا رائحة العرق المخزّن في ثنايا شحمة الأذن والأنف. تسند أمي جبهتها على الحافّة العليا للمقعد المقابل، تتمتم بأشياء لا أفهمها فيما روائح الجوارب والأحذية تكتسح

الباص كلّه. عندما وصلنا كركوك في طريقنا إلى إربيل شعرت أمي بإعياء كبير. نزلنا من الباص وأقدام أمي ترتعش وأحاول قدر الإمكان مساعدتها. نميل إلى رصيف ونجلس. تقول بلهاث متقطع إنّ الأحلام تتعبها. أقول: هل حلمت بشيء مُعيّن؟ تقول: العصافير تهرب دائمًا من حقول جرداء وهناك بين الصخب والترقُّب والدهشة أجلس أنا على كرسي التحقيقات في مديرية الأمن فيما كيبلات مطاطيّة تطير في الهواء.

أقول لها: إنّه العقل الباطن، كل شيء سيكون بخير. سنصل إلى الرفيق وسيأخذك إلى مكان آمن، مكان في الوطن. تقول: أريد الأطفال، أشعر بوخزة أَلَم في صدري وأنتظر دقائق لأقول لها: سأتّفق مع الرفيق على إيصال الأطفال لك. وحسين؟ أقول بعد تردّد وإحساس بألم مضاعف في صدري: سأوصله أيضًا. عليك أن تجده أولًا. هل قلت إنّ الأطفال عند جدّهم؟ أقول نعم. لا أصدق أن يحدث كل هذا!!. هل يُعقل أن يتحطّم الحزب بهذه السرعة؟! لا أجيب. تخفض رأسها وتحاول التقيؤ أنهض وأجلب لها طاس ماء من دكان وتغسل وجهها وفمها. تقول: لا أستطيع التحمُّل أكثر، اتركني هنا، أعصابي منهارة. تتقيأ مرّة أخرى وأمسح القيء عن فمها وملابسها، معدتها تعتصر والمزيد من سائل أصفر يخرج.

عابرون من أمامنا ينظرون، أشعر بدسيستهم تلاحقنا. تقول لي مرة أخرى: اتركني. أشعر بوجعها وروحها المنهكة، أجلس قربها تائهًا في الكراج الكبير لا أعرف ما الذي عليّ فعله؟ تقول: سأسلم نفسي. أنظر في عينيها مباشرة، أحسّ بإصرارها على النزوع الأخير. أقول: ارتاحي قليلًا، يجب أن نصل أولًا إلى الرفيق في إربيل. تقول: لا أستطيع. تختلط كلماتها مع ارتعاش ودوران تائه حول أطفالها، ترى ما الذي يفعلونه الآن؟ تتساءل، أشعر بالموت لأجلهم. أقول لها: إنهم بخير صدِّقيني. يجب أن نصل أولًا ثم يدبّر الله كل شيء ترفع نظرها فجأة وتنظر إلى المارّة بنظرات

تائهة تقول: أعرف أحد الرفاق في كركوك، تنهض بصعوبة وتعدل العباءة. أنهض أنا أيضا. تقول إن محلّ عمله قريب من الكراج، ننسحب، نخطو بتعب، بتشوّه وجوهنا، نخرج من الكراج مع صراخ الباعة. أكتافنا تتدافع لكن وجوهنا تنظر إلى بعيد. لم نلمح الأجساد التي تصدمنا: هناك هدف يجب أن نصله. بعد دقائق نحن أمام مقهى صغير.

تقول أمّي: اتبعني. أسير خلفها، تدخل المقهى وتتّجه مباشرة إلى أحد العمال الواقفين قرب نار مشتعلة يُعد عليها الشاي. تمسّ كتف العامل. يستدير ويُصدم. ألمح تغيّرات كثيرة على فمه ووجهه. يُمسك وزرة الشاي ويعتصرها. تقول له أمّي: وصلنا الآن، دبِّرنا. فجأة تنقطع أصوات المنادِين، لم نعد نسمع شيئا. يقول لنا انتظروني خارجًا. تأخذ أمي طاس ماء بارد وتغسل وجهها مرة أخرى. تتذكّر أمّي أنّ من هذا المقهى كانت توصل الجريدة إلى أعضاء الحزب. على مقربة من المقهى نقف، تنظر أمّي إلى المارّة بحاسّة البحث والحذر. أشعر بأنّ قوة تتفجّر في وجهها. يصل الرفيق عامل الشاي بلا وزرة ويسألها بتلهُّفٍ عن الأوضاع في بغداد، تسرد له القصة كاملة تقول: إنّها بحاجة إلى مكان الآن، تسأله أيضًا عن الرفيق في إربيل، يقول بامتعاض هذا كرديّ. تقول له أمّي لا ترتبك وتلفت الأنظار. تعدل عباءتها على رأسها.

يقول لنا الرفيق اتبعوني. نسير مثل جرحى الحروب، مثل أفلام الموت في الحرب، لكنّنا بلا أناشيد هنا، أناشيد الأمميّة الثانية وهي تُنشَد في المؤتمرات الحزبية العلنيّة في بغداد. تتذكّر أمي أنّها الآن ضائعة في الطرقات، تسير بين الأزبال، بين الشرطة السريّة والعلنيّة والدسيسة والافتراءات المضيئة وعيون ملايين المخبرين وبتمهُّل عجيب وقدرة فذّة على إخفاء اعتلاجاتنا والقلق، نصل باب بيت قديم. يدخل العامل ونلحقه بتماس مع الحائط الخَرِب والمصباح المعلّق بسلك مُتدلٍّ بطريقة عشوائيّة

ثم نتوقّف. تأتي أمُّ عامل الشاي بعُجالة. تُفاجأ، تُبهر، تتراجع خطوة واحدة، تنظر في وجوهنا نظرة شائهة. يقول عامل الشاي: هذه رفيقة زكيّة التي عملت لك عملية القلب مع الدكتور سميسم، هل تتذكرينها؟ وبعيونها المتعبة تقترب الأمُّ، وجهها يقترب من أمّي، تمسّ عباءتها، ثم ترتمي عليها وتُقبّلها، تدعونا بسرعة إلى الداخل. نجتاز الممرّ بحيطانه المقشّرة ونصل إلى فسحة صغيرة. تسدل الأمّ العجوز ستارة بائسة، تفتح أمي عباءتها. تجلس على الأريكة، تقول بارتباك لا نريد أن نتأخّر. تحضر لنا أمّ العامل كليجة وشايًا، نأكل بسرعة. بعد استكانة شاي ثانية يقول العامل بتلعثم إنّه يشكّ في الرفيق الموجود في إربيل لا يمكن الوثوق به، يعتبرك معزة ويبيعك، بكل سهولة، دون وازع من ضمير. لمَ لا تنتظرين هنا؟ الوضع هنا أفضل من بغداد، البعثيّون لا يُطاردون الشيوعيّين، هم يُطاردون العُصاة – الأكراد – والمُهرّبين. تقول أمّي: هذا أخطر. تريح أمّي رأسها على الأريكة، تبدو كمن يفكّر في الأيام الماضية أثر التعب والإرهاق يمزّقان وجهها، النّمش الخفيف حول عينيها يتراءى لي وهو يختفي نائيًا. تنظر ببهوت إلى المصباح المتدلّي من السقف، إلى السلك وتأرجح الذباب، تنظر أيضًا إلى أعمدة الخشب التي تشكّل جسورًا يستقرّ عليها السقف وكأنّما ترتحل عميقًا جدًّا، بتصلُّب ورغبة في استذكار أيام ماضية. تغرق في انهمامات ذاتيّة، أصوات، تردُّدات، صرخات. سيل من الذكريات المضطربة. تستمع فجأة إلى صوتي الذي يخترق أحلامها ويقول بوعي مباشر، بفم موجوع. اتركيهم يا أمّي، اتركي هذا الحزب اللّعنة، البؤس، الحراشف، التقزّزات، الدم، ميراث يتفجرّ مثل ينبوع أسود من الكراهية، اختلاجات وشذاذات عنصريّة، انتقامات، رغبات شرّيرة، اغتصابات، دسائس، بقر بُطُون. يقفز إلى ذهنها أنّي قادم من خلف السنوات الشبيهة بالأحلام. تفكّر في العالم، العراق، التذكارات العطشى لمُلامسة الوجوه

المُهملة والمرهقة وهي تنزل لحمامات الدم في شباط ١٩٥٩عندما تصل إلى محطة قطار الموصل لإحياء مهرجان السلام. كانت الموصل إحدى المدن التي ينشط فيها أعوان جمال عبد الناصر إضافة إلى أنّها إحدى المدن التي قاومت المدّ الشيوعيّ في العراق. كانت تفكّر بمَن أشعل تلك الأحداث. رفاقها برّروا مقدار القسوة المستعملة بقسوة المؤامرة التي كانت تستهدف الجمهوريّة العراقيّة الوليدة. لكنّ المشكلة ليست في تبريرات رفاقها أو البعثيّين أوالقوميّين العرب، المشكلة تكمُن في هاجس الاستعمال الأقصى لأدوات الموت.

لم يكن هناك ما يستدعي القسوة عندما حدث الفرهود بحقّ اليهود، لم تكن هناك مؤامرة ضدَّ العراق، ولم تكن هناك مؤامرة من قبل العائلة المالكة تستدعي كل القسوة والانتقام منهم. كانت تسير في أحداث الموصل مع الحشود، حشود أنصار السلام الشيوعيّين وأعلام الاشتراكيّة. وأقول لها بما يشبه الإيحاء بغيابات، انطفاءات، تسفعات الوجوه الكمدة المزمومة بهستريا بلد الاشتراكيّة الأوّل في العالم: إنّهم ليسوا شرفاء، ليسوا إنسانيّين. دمٌ كثيف مرشوش على وجوههم وسيرتهم الغريبة والمشفوعة بالتسلُّط. يجب أن تكوني إنسانيّة يا أمّي. التعصُّب غالبًا ما يعمي البصيرة والبصر والمصائر الإنسانيّة المكتومة في لهيب عطش التحول الإنسانيّ إلى حيوان مخيف نَهِم. تأخذ انهمامي وهمسي على محمل البحث، تدور ذاكرتها في آفاقَ شباط ١٩٥٩ مسيرتهم في الموصل، شباط بارد، زمهرير يتدفّق من جهة الشمال، وكأنّما ذئاب متوحّشة تركض في بريّة واسعة بانفلاتها المدويّ، بصليل يشبه صليل أسلحة الموت وانفجاراتها بالوجوه. تسير مع الحشود الكثيفة في الشوارع، حشود أنصار السلام، وتلاحظ أنّ بعض الرفاق كانوا يحملون عصيًّا وكبول وأسياخًا، سيوف وخناجر قصيرة ومسدسات. تشعر في تلك اللحظة وفجأة وكأنّما روح الله

يبتعد في السماء ليقول لها اهربي من حمّامات الدم. تشعر لمرأى السيوف والخناجر بوعكة ذهنيّة، تحاول الاقتراب من الرِّفاق الذين يحملونها لكنّ الحشود تدفعها. تشعر بارتهان وقلق كبيرين. المظاهرات تتدفّق في الشوارع وتهتف مطالبة بسحق الخونة، وفيما هي تهتف بوعي الحزب، مُتجانسة مع انفعالاته. تسمع صرخات مدويّة قادمة من إحدى الجهات، صرخات مكتومة، إذ ينادي أعضاء الحزب فجأة، فلنهاجم المتورّين وعملاء مصر والطورانيّين والقوميّين وأعداء الجمهوريّة وأعداء الزعيم.

تتراكض الحشود والنفوس، صور عبد الكريم قاسم تتراكض أيضًا مع الكيبلات والخناجر والقناني وتتداخل الوجوه واللحم ويقتحم الرّفاق بيوت معيّنة وكأنّما معروفة سالفاً ويجهزون على الناس والعوائل والشباب القوميّ. تسحل الجثث في الشوارع بعد أن رُبطت أقدام الضحايا بالحبال ثم يهجم شباب الحزب وجماهيره على الضحيّة بالقناني المكسورة والخناجروالسكاكين والحجارة والمدَى.

كانت تشاهد الدم المتدفّق من الضحايا وتسمع صراخ الجماهير الشيوعيّة والأيادي المرفوعة بالسّكاكين، أصوات، أبواق، لهاث، حمحمة، حشرجة، أنفاس متشنّجة، وجوه متقلّصة. تشاهد الرفاق الأكراد أيضًا وهم يقتحمون البيوت بأفواههم المكشّرة، رفاقها في كركوك. أرادت أن تركض باتجاههم لكنّ الرّفاق سحلوا التُّركمان في الطرقات ثم علّقوهم على أعمدة الكهرباء وانهالوا عليهم طعنًا بالسكاكين، طعنات مخيفة يتجلّى فيها الحقد الشوفينيّ القوميّ. أصابع أمّي ترتجف، وجهها يبترد ملوثًا برغبات الخوف والهستيريا التي انثالت على جماهير الحزب الكرديّة. فوجئت وقتها بعمق الغرائز القوميّة الدمويّة القاسية وهي تتفجّر وشخص شيوعيّ يعمل قصّابًا يتولّى مهمة تعليق الجثث على الأعمدة وطعنها بالسكاكين وقناني المشروبات الغازيّة المكسورة مثلما كان في بغداد عام

١٩٥٨عندما قتلت العائلة المالكة وتمّ التمثيل بجثث نوري السعيد وعبد الإله الوصيّ على العرش.

يقول عامل الشاي إنّه جهّز لنا متاعًا بسيطا للسفر إلى إربيل، المسافة ليست طويلة، لكن قد نحتاج لزوّادة. تنهض أمّي وتضع في حقيبتها مبلغًا من المال وفرّه لنا الرفيق العامل أيضًا، ثم تُخرج العنوان له، يحدّق في الورقة الصغيرة، ينظر لها بتمعُّن. يقول: نعم، إنّه هو أنصحك بعدم الذهاب. تقول له: يجب أن أذهب. أعرف الكثير من الأسماء لو وقعت بيد الأمن لانهارت منظّمات كبيرة، لا أريد دمًّا أكثر، يجب إنقاذهم. يسلم العامل الورقة إلى أمّي بتنهُّد ويقول: ومَن قال لك إنّ هذا الرفيق لن يسلّمك للأمن؟ الأفضل أن تسلمي لتنقذي نفسك وتنقذي هذه المنظّمات من الجحيم الذي ينتظرهم. القيادة مغامرة ومجنونة. صدِّقيني، أنا ناصح أمين لك، حافظي على نفسك وحياة الآخرين، لا تدعي القيادة تأخذكم إلى الجحيم ثم إنّ القيادة نفسها تركتكم. تنظر أمي لوجهه باستغراب. تقول: لمَ تتحدث وكأنّك غريب عن الحزب؟ صوتُك يأتي وكأنّما من خارج الحزب؟ ترتعش شفتاه، يقول: نعم، أنا لم أعد ضمن الحزب، فصلوني بسبب كوني تركمانيًّا. هل تعرفين أنّهم فصلوا كل الرفاق التُّركمان في الحزب باستثناء واحد على ما أعتقد. لم يكونوا يسمحون لنا أن نتسلّم مناصب قياديّة في الحزب. كتبت تقريرًا تحليليًّا للحزب أشرت فيه إلى نزعات عنصريّة داخليّة. استدعوني، حقّقوا معي، حاربوني، فصلوني من الحزب، بعثوا لي شقاوات أكراد، أشاعوا أنّي وكيل أمن. كلُّ هذا كذب، افتراء. قالوا أيضًا إنّي سرقت تبرعات منظّمة كركوك. مهزلة لم يبقوا شيئًا لم يلصقوه بي. ينظر إلى وجوهنا تائهًا. كانوا مافيا. أولئك الأكراد دمّروا الحزب، حطّموه، حوّلوه إلى حزب قوميّ كرديّ لا يقلّ ضراوة عن الأحزاب الشوفينيّة الكرديّة. آه لو كان فهد موجودًا.

هل تتذكرين أيّتها الرفيقة ماذا فعل فهد مع القوميّين الكرد والشوفينيّين؟ أبعدهم عن الحزب، رفض كلّ مقولاتهم القوميّة. فهد كان يريد حزبًا فوق القوميّة، حزبًا إنسانيًّا، عراقيًّا يعمل من أجل الهُويّة الوطنيّة العراقيّة. بعد إعدام فهد حدث الخراب، بعد اعتقال سلام عادل تسلّلوا إلى الحزب، كمنوا داخله وعندما أُلقِي القبض على سلام عادل، بمؤامرة منهم ربّما، وبعد إعدامه، سيطروا على الحزب كلّه وانتهى الأمر. مؤلم، مؤلم جدًّا عندما طالب قادة الحزب[1] في الخمسينات وهم - بهاء الأكرع وكريم أحمد الداود أبو بولة وحميد عثمان العجمي وجمال الحيدريّ أبو زربة - بحقّ الكيان الصهيونيّ في أرض فلسطين كما طالبوا بإعطاء الشعب الكرديّ في العراق حقّه في تقرير مصيره والانفصال. مهزلة، مضحكة. اشترك الحزب في المجازر ضدّ التركمان بفعل قيادته الكرديّة. تآمروا مع الأحزاب القوميّة الكرديّة لاقتلاع التركمان من أرضهم. كنّا شوكة في أفواههم وكانوا يريدون الاستيلاء على كركوك بعد أن استولوا على إربيل، إربيل المدينة العراقيّة الأصيلة التي حوّلوا اسمها إلى هوليرا. اسم مدينة إربيل هو ذاته منذ آلاف السنين وكانت تعبد فيها عشتار آلهة البابليين، لكنّهم طردونا منها واستولوا عليها في عشرينات القرن. جاءوا بلبنهم وماعزهم وبعرورهم من جبال أرارات في أسيا ومن السهوب الإيرانية وقتلوا كل شيء أمامهم، والحزب حزبَنا - ساعدهم بل كان هو الذي يكرّد كركوك. شيء فظيع. تنظر أمّي في وجه الرفيق، يتنهد وأصابعه ترتعش كأنّما يحاور روح خفية تهرب إلى الفلوات.

ويقول: انتبهي لنفسك أيّتُها الرفيقة، ليكن الله معك، الله هو الوحيد الذي يستحق أن نعيش ونموت لأجله. لكنّ الله لا يريد أن نموت لأجله، يريدنا أن نعيش فقط بروح التسامح والمحبة مع النفس والآخرين، وأن

(1) الحزب: الحزب الشيوعيّ العراقيّ.

نتذوق السلام الروحيّ بسبب الاقتراب منه. لا أمل في هذا الوطن. هل تتذكرين عندما قتلوا اليهود المسالمين؟ وعندما قتلوا العائلة المالكة؟ عندما سحلوهم في الشوارع؟ نحن غارقون في الدّم، الدّم المرشوش على وجوهنا أعمانا عن حياتنا، أعمانا عن الرؤية. إني أشعر بالتعاسة لنفسي ولهذا الوطن. اسمعي نصيحتي، أكرر وأقول: أنت تسيرين في طريق مخيف أؤكد لك أنّه خاطئ.

* مجازر كركوك: مجازر ارتكبها الحزب الشيوعيّ العراقيّ ضدَّ التركمان عام ١٩٥٩ أثناء المدّ الشيوعيّ في العراق بعد ثورة ١٩٥٨

تسمع أمّي كلامه ولا تُعلّق بل تنظر إلى وجهه وفي لحظات معيّنة تستقر عيناها على مصباح البيت المعلّق المتدلي من السقف مثل مصلوب، قتيل في عري كامل يختلط في زوبعة المشاعر المضطربة. تُقبل أم العامل أمي، تقبل رأسها وجبهتها، تمس شعرها. تمسّ عباءتها الحائلة اللون والمستعارة. نخرج من المنزل محملين بالدعوات والكليجة والأدعية والتراتيل. تسكب أم العامل طاس ماء لأجل العودة والسلامة.

البرد قارس كالحديد والأرض كالنحاس. عيوننا مثل عصافير في ريح دروج، ننزوي في البهتان وهي تسير تنمو إلى ذهنها صيحات متفرقة، أصوات وكأنّما قادمة من ما وراء أسنان حادّة، أصوات قوية، هل هو صراخ الشيزفرينيا الذهنيّ؟ نحن في الارتباك، في أرض النكران. تسألني أمي عن الأصوات، أقول لا أصوات. وحدها صرخات الحسّاسين والعنادل تنداح فوق ركامنا وكأنّما تقول: " اللّهم إن متعتهم إلى حين، ففرّقهم فرقًا واجعلهم طرائق قددًا ولا ترض الولاة عنهم أبدًا، فإنّهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا فقتلونا"[1] نختلج بالكلمات الصارخة وتختلج في صدر أمّي

(1) من مقولة للحسين بحقّ أهل العراق.

مشاعر متداخلة، ليس حزنًا ولا فرحًا ولا موتًا ولا حياة بل مزيج ثقيل. روح وكأنّما قادمة من ما قبل تأسيس العالم. هل هي ذاتها التي تسير الآن مشردة؟ . يا له من عالم أبله! هناك أو هنا، قنابل تتفجرّ في سمائها، عالم وحشيّ. تفكر في سرّها لكن هذا العالم، الكون المتوحّد والمنغلق على ذاته ميت في أوصاله، بالتشرُّد ذاته الذي يعتريها دافعًا بها إلى الأرض، الطين، البارود والجامعة في اليد. كانت قد نهضت من الارتماس في مياه باردة وتشعر أن انتعاشة مفاجئة للذاكرة تنفتح على فضاء وسيولات مشعّة تتدفّق في السماء الباردة الملبّدة بالغيوم. تفكّر، كم يبدو الوطن نائيًا! وهي تفتح أجفانها وسط الركام الهائل من المقولات الفلسفيّة الحقيرة للنوع البشريّ والحيوانيّ في تطوره الداروينيّ أشعر وأنا أنظر باتجاهها بالحزن لهزالها، هزال ذاتيّ عميم. تنظر بعين الخوف إلى الشوارع، لا نهايات. تحدث نفسها، تفكّر في أصواتهم، قلاقلهم. همهماتهم، أطفالها، زوجها، أين اختفى هذا العالم في ذاك الحُلم؟ بين ليلة وضحاها فقدت كل شيء، حتّى البيت وهو كل ماتملكه استولى عليه زوجها. كانت تعرفه، سيسكر ويقضي ليله في الملاهي مع العاهرات، لتذهب الماركسيّة إلى الجحيم. إنّها نظرة الماديّة الديالكتيكيّة، الماديّة التاريخيّة، نقد ليفي شتراوس، علم الأناسة، علم نفس الاجتماع الماركسيّ، قانون رأس المال، البيان الشيوعيّ، كلها قادمة من الأثر البعيد وتمضي إلى ما لا نهاية، لكنّها عابرة. تفكر بصمت كينونيّ، بصمت مملوء بالخشية، بالأقدام والزمن الذي يحملها هنا وهناك. بين العيون المغلقة للتاريخ وهو ينثال، ينساح. ها أنت تتجهين إلى المجهول. كل حياتك ضاعت، حتّى الحزب. يا للسخافة! اللؤم العميق لزوجها وهو يبذر النقود الآن، كيف صنعته من اللا شيء.

ترتفع إلى حلقومها كآبة شفيفة في طريقها إلى التوسُّع والانتشارعلى كل جسمها. تتحسّس رقبتها، تتحسّس الطرقات والبشر وأصوات الباعة.

عوالم كاملة أمامها. تشعر أنّها بحاجة ماسّة إلى أطفالها، رغبة مثل العلقم والمرّ واللبان اللاذع، تفكّر أيضًا في روحها، ابتلاءات الدّم. منذ اليوم الذي هربت فيه من المستشفى. تفكّر، بقساوة مبالغة. كم مرّ من الوقت؟ خمسة أيام، ستة، شهر، عام، حوْل، عِقد، قَرن، من ما قبل الميلاد، من أيّام السومريين على هذه الأرض، منذ أن هبط آدم مطرودًا والخيانة في نفسه، آه الخيانة وتردّدها بهمهمة وتشعر بألم جرّاء قسوة زوجها عندما تركها تعبر وادي الموت هذا.

نصل موقف الباصات ونقترب من الباص المتّجه إلى إربيل. بغتة ينفجر صوت شرطي خلفنا وهو يسألنا عن هُويّاتنا نرتبك، نتلعثم ثم أعطيه هُويّتي ويتمعّن فيها ثم يرجعها إليّ. نصعد الباص بارتعاشة أرجلنا، بنزو الحاضر على المستقبل. أشعر ونحن نجلس قرب النافذة أننا نتّجه إلى مجهول، مجهول قادم من حكايات السندباد البحريّ.

***

إذا نجحت الخطة ستسافر أمّي مع الرفيق الكرديّ إلى الجبال، في الثلج الذي ستذيبه الأقدام الحارّة والمتعبة والبغال والإنهاكات في الصباحات والليالي وعواء الذئاب وحمحمة السماء وارتعاشة الأفاعي وانزواء الأسود وهروبات الزمن المهرب تهريبًا. ستمرّ على قرى نائية لم يسمع بها إنسان، قرى متروكة في نهاية العالم وكأنّما أنت وحيد فوق جبال الهملايا حيث الصقور والغيم والوحدة. لكنّي وأنا أفكر في الهروبات الغائمة على صفحات سماء ملبدة وفيوضات مائيّة أشعر بالخوف يهاجمني، بالخوف من الرفيق هل سيصح ماقاله عامل المقهى؟ وأكذّب التأويلات الذهنيّة لكنّي أرجع مفكّرًا وماذا لو كان الأمر صحيحًا؟ وقتها ستغرق أمّي في سبات السلطة، ستغرق في رجس الأعمال والمحاكمات السريّة والسريّة جدًّا. أرتعش عندما أتذكّر هيولات التعذيب. الأساطير التي أسمع بها عنها

وفيها، في الموت المخزن عميقًا في جزيّئات العقل البارد والميّت، في سلطة لا ترحم وفي نظام لا يرحم، تحت سماء ملفّقة بالوجع والانبهارات بوسائل خرافيّة للتعذيب المذيب لوجهك وإنسانيتك، للتقزّزات المثيرة للنفس المتمرمرة بالعذاب المستمرّ، بالصحون القاتلة والمشابك الحديديّة وقلع الأظافر ونهش الوجه وكلاب تعوي وصرخات من ليل كأنّه ليس ظلمة إنّما ظلام – مبهر – قاتم، أفعواني يتسلقك من الأسفل ويعلّق بمؤخرتك متمهلًا ثم يستمر في اغتصابك أمام أهلك وبناتك وزوج أختك. وفي النهاية عندما تكون بقايا حيوانيّة فقط تُسحل بالحبال والكيبلات تنهمر عليك وترمى في غيابة الجب مظلمًا بروحك ومفارقًا حتّى الأحلام.

يمرّ صمت طويل وأمسك أصابع أمّي، أشعر ببرودة جسدها وأحاول تمسيد رأسها. أشعر بشوق طفولي لها، لكنّها ما إن تغمض عينيها حتّى يتراءى لها على نحو مضطرب الارتكاض والقتل في شوارع الموصل، كركوك، النجف، البصرة، بغداد. تقول، لمَ هذا النزوع الكبير إلى القتل؟ النزوع الميكافيليّ نحو قتل الآخر في فكر حزبها. ومن ابتلاءات الذاكرة تنتقل إلى تنسم عبير شوارع بغداد وهي تزهر بالدم، الدم!! يا لينين وروزا لكسمبورغ. وتغرق في اشتطاطات العواء والنوستالجيا وتتراكض مع سليمة حزقيل في بحور ظلمة الشوارع وأفواه القتلة. وإذ تبحث في الذهن عن الصور الدموية للقتل تشعر بالقشعريرة تسيح في شارع المشجر، الشارع الذي عشقته كل أيّام حياتها، وهناك عند النقطة الجوهريّة لذهنها تبرز فجأة مشاهد السحل الذي لم يشترك فيه الكبار فقط إنّما الأطفال أيضًا. الصورة الهمجيّة لتعويد كل الأجيال وتدريبها على مشاهد القتل، السحل، الطعن، تمزيق الجثث، ربط القدم بحبل وسحله بسيارة والدوران به في الشوارع والجسد مربوط تنهمر عليه الأحذية والأحجار والعصيّ

والقامات والخناجر والقناني الفارغة والدماء تنزف والنساء تهلّل.

تتذكّر أمّي رفاقها في الحزب الشيوعيّ وهم يحثّون الشعب على المطالبة بتسليم كل المتآمرين على عبد الكريم قاسم لسحلهم في الشوارع. سحل، سحل، بلا محاكمات، بلا قانون، فقط دكتاتوريّة البروليتاريا وحماية الجمهوريّة وصراخ الرعاع: اعدم، اعدم، اسحل، اسحل. لكن السحل ليس صفة مؤقتة إنّما صفة استدلاليّة راسخة، عميقًا في الذهن العراقيّ، في المرارة السريّة التي تضرب وجه أمّي، في التمثلات الحزينة لشهقات الخوف، تقفز إلى ذهنها أيضًا بانورامّيات انقلاب ٨ شباط البعثيّ على نظام عبد الكريم قاسم. الخوف المعدنيّ في برودة الصباحات عندما أعلن في الإذاعة عن الانقلاب. تهرع إلى الشوارع. تهرع بدون تعليمات من الحزب، تركض باضطراباتها الذهنيّة والتشكل المعرفيّ والقلق والخوف والرهبة. الإشاعات تقول إن عبد الكريم لم يزل يقاتل. وينك يا" أبو حسين"، وينك يا" أبو راس الحار"، كرومي[1] موجود في وزارة الدفاع مع ثُلّة من الجنود. الانقلابيّون حول وزارة الدفاع برشاشاتهم وغدارات بور سعيد المصريّة. الحزب الشيوعيّ يصرخ يطالب بحمل السلاح والتوجّه لقتل المتآمرين، سحلهم، لكن الدبّابات تهدر في الشوارع والشيوعيّون يرجمونها بالقناني والحجارة وتفتض البيوت.

صرخات البعثيّين والشيوعيّين تملأ الشوارع والشوارع مدماة، الجثث تتناثر مثل النجوم. يقول البعثيّون إنّها عروس الثورات. البعثيّون الذين سحلهم الشيوعيّون في الموصل وكركوك والنجف والبصرة والكاظم. الدماء لا بدّ لها أن تولد الدماء، لا بدّ أن تفتح الأفواه وتطلق زمجرة قويّة، حشرجة، تأوّهات، تضرعات، شلل ذهنيّ - ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة - اسحلوا حتّى الرمق الأخير، اسحلوا أي شيء حتّى ولو كان

(1) كرومي: عبد الكريم قاسم.

السحل ذهنيًّا. تنطلق أصوات الشيوعيّين في كل أرجاء العراق، تسمع الصوت بصداه، بتداعياته، بنخيره، بأنينه، بإضراباته، بماسوشيته البهيميّة. الشيوعيّون في الموصل عام ١٩٥٩ يدخلون البيوت، يدخلون على الأرامل، أرامل البعثيّين وزوجاتهم ويقبضون على الأطفال ويقتلونهم ويرمون الجثث في براميل الأزبال.الدم غريب في تموجاته الساديّة، وينتهك الشيوعيّون الأعراض وبعد أن يغتصبوا النساء في حيوانيّة العدم النهلستيّ والدراما الغيبيّة، يخرجون بأفواه ملوّثة بالدم والصديد والوَهَن والقتل وتقلُّصات الأعضاء الإنسانيّة واستحالتها إلى مليودراما متجانسة. ثم يسحلون النساء ويسمّروهن بالمسامير على الأعمدة الخشبيّة، على الأشجار، على الحيطان ويبقرون البطون. هلّلويا لمهرجان السلام الممزوج بدكتاتوريّة البروليتاريا!.

البعثيّون الآن في الشوارع، بمجنزرات ودبّابات وحرس قوميّ، ينتقمون. دبّابات ضخمة تقتحم كلّ شيء وتتقدّم بسرعات عالية. سرعات جهنميّة وتقتل المقاومين المبثوثيين في الأزقّة والدروب. وتشعر أمّي بالبرد يقبض على المخيلة والخيبة تتأرجح متلاومة في الضياع الذهنيّ وإضراباته التي تستحثّ المخيلة وتجعلها تلهث. الزمن يتحرّك مثل ماكينة قديمة تعاود الحركة بعد دهور من النسيان الإنسانيّ. الماكينات بحاجة إلى تزييت والبرد القابع في العظام والعيون المنهكة بفعل السفر تهزّها بإضراب الذهن المرتعش والصور المستحثة استحثاثًا مُتواصلًا. تفكّر بغير رغبة في كل الأزمنة والضياعات، تفكّر باللحظة الدونيّة يوم سلموها قوائم بأسماء البعثيّين وطلبوا منها أن تذهب إلى التحقيقات الجنائيّة وتسلم القوائم، وعندما رفضت هددوها بتهمة الانحرافيّة والطفولة اليساريّة، وأعلنوا لها أنّهم سيفضحونها هي. وقتها ضحكت للغباء القاتل، ضحكت وهي تتذكّر يوم أُلقي القبضُ على فهد العظيم الخالد، أُلقي القبضُ عليه بسبب عاهرة.

وشعرت باهتزاز الثوار، اهتزازهم الذي يريد أن يناضل حتّى يتحوّل الواحد منهم إلى مخبر شرطة سريّة. لكنّها في النهاية وتحت الإكراه استسلمت لهم، استسلمت خوفًا من أن تُتّهم بالبتي برجوازيّة وملايين ملايين التّهم الجاهزة.

كانت تقشعر، يتنمّل بدنُها كلُّه وهي تسلم القوائم إلى الشرطة والمخبرين السريّين الذين غزوا روحها قبل أن يقتحموا الشوارع والحارات والبيوت ويتمُّ اعتقال البعثيّين فيما الرفيق سلام عادل - حسين الرضي البهبهانيّ - سكرتير الحزب يناور ويسكر ويغلق أبواب الغرف السريّة في منزله والثورة الشيوعيّة الحمراء القادمة مع الرفيقة تماضر ومادلين مير والرفيقة بلقيس في الاهتزازات المتناغمة للكفل والزرور مع الكؤوس المترعة بالعرق المستكيّ السادة في أحضان الرّفاق للترفية.

ونصل إربيل الموحلة كما الحضارة. شوارع غائبة عن العالم والزمن ونشعر بنشافة ريق وأعصاب مشدودة. أمّي تشعر باعتساف الطريق وأحاول مساعدتها وتوحلنا الطرقات ويوحلنا العالم بمطر الرجرجة، بزمهرير يجتحفنا بأوناش الأجزاء الحسّاسة من أجسامنا وانبثاق كمدّ العيون وكأنّنا مغيّبون في الشوارع حيث يسير أكراد ببنادق حزب البعث.

تقول أمّي: هل تعرف الطريق؟ أجفل كفرس وتكرّر أمي السؤال وأشعر بتقبض وجهي وانغلاق ذهنيّ وأقول: إنّي، إنّي... وتهزّني، تقبض على زندي. تقول في وجهي الناضب: أتشعر بالتيه؟ أتشعر بالتيه؟ أبتسم كمداً، أضحك، أضحك نتيجة قلوص روحي ونكولها يا الله!! ما الذي يحدث لهذا العالم؟

نتوقّف عن السير ونسأل صاحب مقهى، وإذ يعرف إننا من بغداد ونبحث عن أحدهم، تغمره السعادة وكأننا نستفز كرديّته الجميلة وعفويّتها ويأتينا بخبز وطاس من لبن الماعز وننحشر في أيكولوجيا الدماغ وهي

تستحثّ لذّة الشبع. بعد التهامنا الطعام واستكانة الشاي نودع ببهاء أخّاذ ووداعة كبيرة وحسن مآب ونصل إلى العنوان الذي دلّنا عليه صاحب المقهى. إنّه هو، هو، بيت الرفيق. تهزّنا الأصوات المحمحمة في أذهاننا وعقلنا وأشعرُ بخوف الهاجس وانبعاثاته العقليّة. أشعر بارتعاش أصابعي وهي تطرق الباب وأمّي متوجّسة بفعلِ انهيارات الأيّام واللغو الشيوعيّ وسيموطيقيّاته. بعد دقائق نسمع سحلًا وينفتح الباب، باب مثل أبواب الجحيم أو الرحمة ويبهرالشخص الواقف. نقول كلمة السرّ وتفتح الأفواه عن لغو الحاصل الذهنيّ ولا أفهم من هذا اللغو إلا الضياعات والتجمّد في المطر والسلام وأشياء لا أفهمها. ندخل البيت مع حصيد الانغلاق، بوجوهنا، بإخفاقات أصابعنا وهي تلمس الحيطان المتباعدة والمحشورة آنيًّا في أدمغتنا فنشاهدها بعيدة، نائية، ومنفرجة بزوايا التذكارات الممزوجة مع الرؤيّة الحاضرة.

نحن وهو نسير متثاقلين، شاعرين بالكره الحاصل بسبب للقاء الأول على الباب. بين الأسكفة الواطئة وزوايا البناء المائلة ندخل بهاجس التوجس ورائحة المنزل التي تذكّرنا بالنسيان تتطاول، تتناءى، تقدّم لنا إسهاماتها الدونيّة في جعلنا أكثر خوفًا. تقول أمّي: إنّها خائفة ويهرشنا القلق مثلما يأكل الدبيب الأبيض الخشب، منخورين، منزوعين من شيئيّاتنا. ندخل ونصل إلى فسحة البيت والرفيق أمامنا محدودب الظهر ونجلس شاعرين بتآكل عظامنا ويحدّق الرفيق في وجوهنا لحظات ثم يقول: هل أنتم أكراد؟ ونقول له: لا عرب. ونشعر بردّة فعل مباغتة تظهر على الأصابع. أنظر إلى وجهه محاولًا استقراء أيّ شيء، أيّة نأمة، أيّ تقلص، زاوية الفم، أرنبة الأنف، درجة ميلانها. وترمش عين أمّي فجأة وعيني أيضًا. أشعر بصمم يغلف وجوهنا، برد شنيع يتسلّل إلى ظهورنا ملامسًا العمود الفقري والكتفينِ والبرد يهبط، سريعًا مثل ماء بارد.

ينهض الرفيق ويقول: كاكه، استريحوا أولًا ثم نتكلّم بعد ذلك. ويخرج ويتركنا نهبًا منهوبًا. وأقول لأمّي الأماكن تكرهنا هنا ونشعر بالاختناق، وقوة جبّارة تختطف السيرتونين من عقولنا فنشعر بالاكتئاب. أقول لها: إنّي خائف، هل انتبهتي إلى نبرة الصوت؟ وتقول أمّي لننتظر وأقول: ننتظر ماذا؟ مديريّة الأمن، رجال بشراويل يقفزون على البيت ويعتقلوننا. وتقول أمّي ثانية: لا، مستحيل أنت تبالغ. وأقول: أمّي أرجوك ألا تعرفين قراءة العيون والنظرات؟ ألا تعرفين سيموطيقيّات الكلمات والمعرفة العقليّة بتجاريح العيون والنظرة الخاصّة؟ وتقول أمّي: أنت تبالغ. وأهتزّ معصوفًا بالريح، الريح الهابّة من كل الاتجاهات وقلبي شفيف جدًّا ويتحسّس أقلّ التردُّدات. ربّما لأنّ أمّي منهكة فتشعر بتبلُّدات الذّهن لكن أنا لا. العاصفة تنثرني، الريح تتعقّب أقدامي. وأقول لأمّي: فلنخرج من هنا بسرعة أرجوك، أتوسّلك، جفني يرمش سريعًا.

الفصل السابع

نتقدّم من أمّ وليد بمهابة السلطة وطبول، حلازين بدء الزمان من العدم التي تجلّلها وتنيرها، بالخوف المتناثر على العقول التي تتلبّسها مقامات المتصوّفة عندما يزحف المريد ملتمسًا عطف مرشده.

نقف أمامها مستضعَفين، بائسين، ملتوتين بالبؤس كالكلاب في حضرة الوقت والجوع. أو نشعر أننا نتضاءل وأننا مواطنون من الدرجة العراقيّة، وتتحرّك النسوة بين يديها مثل ملائكة الله عند بركة سلوام في أراضي بقشان ومدان ونخطو خلسة، خلسة فقط، بمناكب العارفين ونحن نشعر أنّه – إذا لاح علم الهداية للبصائر تطلبه اللطائف – نقف أمام أمّ وليد وهي تدخن النارجيلة وتنفث دخانها ناظرة إلى وجوهنا المزرقة. نحيّيها بتحية الإسلام فتضع الخرطوم جانبًا، ببهاء أخّاذ، بالصورة التي ظهر فيها لوسيفر إلى العالم وأمامنا، وننظر إلى الوراء حيث العشرات من الذين جاءوا أيضًا لطلب وساطتها. تقول لنا المرأة القائمة على خدمتها: أوجزوا، تحدّثوا بسرعة. ولا تتكلّم أمّ وليد وتنظر مباشرة في عيوننا ونحاول عرض مشكلتنا في خلال الخمسة دقائق الممنوحة لنا، اهتزازنا الروحيّ يبعثر الكلمات

على هاوية التوسّل. أحسّ قبل أن أبدأ الحديث معها، بتفخُّج الأطراف وتيبّس المذي وتمجمج العقل وانثيال الدموع وبأن لوسيفر خذلني في الوقت الغير مناسب للعالم وهو ينحُو نحو جانحة الموت والذئاب تتراكض في دماغي. أنا الوحشيّ الذي قتل أبو طالب وطالب بثمن بخس، هو مضاجعة هند في بيت الملائكة المجنحة والعصافير الضاجة والوحوش المبتسمة والأسنان الساقطة.

أتكلّم ومعي قريبي يلازمني مثل هارون أخي وأقول: حفظ الله روحك ووكّل السلامة بك وأفرغ الكرامة عليك وعصب كل خير بحالك وحشد كل نعمة في رحابك ورحم هذه الجماعة الهائلة من أبناء الرجاء والأمل بعنايتك ولا قطعك من عادة الإحسان إليهم ولا ثني طرفك عن الرّقة لهم ولا زهّدك في اصطناع حاليهم وعاطلهم، ولا ثقل عليك إدناء قريبهم وبعيدهم وإنالة مستحقهم وغير مستحقهم، أكثر ممّا في نفوسهم وأقصى ما تقدر عليه من مواساتهم[1].

وتضحك السيدة الملائكيّة الجالسة على يمين عرش الياقوت والزمرد وحجر الجمشيد والأرز والماهاجونيّ والسنط وبخور المقل أمامها وصورة الإله المرتعش في اهتزازاته الجنسيّة فوقها وفوق رؤوسنا جميعًا – السيد الرئيس ملك غابة الحيوانات – وأحكي لها الحكاية من طق طق إلى السلام عليكم، وأشعر لأوّل مرة بدموعي تهرب نحو الفلوات البريّة وبيات الدادائيين والبحار المتوسطة وبحر النجف والقلزم ومكابدات نصيف الناصريّ وموتات حسن النواب، وأنا أسيرعلى الساحل بشخص الوقت وحبيبي قربي – لوسيفر– حيث النكهة البرية لسجائر سومر تحطمني وأتوسّل الدموع النافرة وبيرة فريدة وشهرزاد وشراب تراوبي. وتقول أمّ وليد، بتمهل العاهرات الجميلات، بوحدة التطليق الحاصل لزوبعة تمرّ

(1) كتاب الإمتاع والمؤانسة – لأبي حيّان التوحيديّ ص١٠

على وجهي باهتزازاتها الدينوسيّة والمعرفيّة، أبشر يا أخَ العرب، أبشر فأنت الضائع وأنا الحلول، أنا البريّة وأنت المطر ولامنفذ لتوسُّلاتك إلا بي. اترك لي رقم هاتفك لاتّصل بك بعد أن أقوم بمحاولاتي. وأشكرها وأنحني مثلما أخرج من ضريح منحنيًا ومتراجعًا على المناكب.

يوصّلُني قريبي إلى البيت ويرحل مثل حصان أعرج. أدخل بجلد مكزبر لأُواجه اكتئابًا وانحطاطًا، ألقي بجثّتي على السّرير ناظرًا إلى السقف ونازا عرقًا مليئًا بوابل من المطر وروائح العالم وروائح التدخين والبيرة الهزيلة التي تشبه بول البعير. وفيما أفكّر في تهويمات قتلى وحروب وضياعات قادمة وآنية، يرنّ الهاتف وأسمع جدّتي تنادي، أنهض بسرعة صادمًا طاولة صغيرة ومتعثّرًا بأوراق ووسائد وأيقونات وأتناول الهاتف من يد جدّتي.

تبتعد الجدّة وهي تبربر وأسمع من الطرف الآخر صوتًا نسائيًّا متقلّب النبرات يقول بفحيح: إنّي أنا أمّ وليد، هل تستطيع أن تأتي الآن؟ وأقول لماذا؟ وتجيب: هناك شيء مهم. سأرسل لك السيارة. الصوت ينقطع، الصافرة الدّالة على انتهاء المكالمة تثقب طبلة أذني. أشعر بانفلات أشياء داخليّ، أشياء غير قادر على لمسها، لكنّها عميقة، مهلوسة. أشعر بالهلوسة دائمًا عندما أتناول حبة الشيزفرينيا مع الباراسيتيمول وجرعات من الخ..... أنظر من النافذة مثل خروف يساق إلى مذبحة، أشعر بالرعب يطوقني، أنظر عبر النافذة إلى حياة مدانة، إلى عصافير قذرة، إلى طرائد بحريّة وحيوانيّة. سمك جري يلتهمني، أسنان منشاريّة تقسم حياتي كلَّها. عندما أتحرّك بضعة خطوات، يتدفّق البول من عضوي الحيوانيّ. أنا أرتعش، مهيمن عليّ، يلزمني العباس، المقه، عشتر، الشرى، كلّ الآلهة العربيّة اللذيذة، خزّاني يثقب، أنا محنط وشبه إنسان والبراز يسيح من مؤخرتي. أركض باتجاه المرحاض لكن كل شيء انتهى. السيارة ستأتي بعد قليل، بعد قليل فقط، يا للضراط! مسافة قصيرة بين بيتها حيث تسكن

وحي اليرموك حيث أسكن. أنظر إلى الساعة، المرحاض يتمدّد طوليًّا، أرمي لباسي على الأرض. أصابعي ترتعش وهي تمسك الإبريق. صوت الماء نافرًا، ألمس عضويّ بلا مودّة، بتقاطع مع الكونيّات وهي تقذفني بعيدًا باتجاه شواطئ عارية إلا من النسور، لكن ليس هناك بحر ولا نسور ولا قواقع ولا رمال، هناك حجر واحد، حجر كبير أنظره وهو يأتيني مندفعًا من السماء السابعة، سريعًا، متفوقًا قرمزيًّا، تفوق سرعته سرعة القذف المنويّ للسيد الرئيس والسيد الرئيس عندما كان نائبًا. أنظر إلى عقلي وأكتشف فزعًا أن لا بحار هناك ولا محيطات ولا حتّى برك آسنة ولا أنهر صغيرة مثل نهر – الخر – قرب رئاسة المخابرات العامّة، وأكتشف بدلًا من هذا، صحراء شاسعة، صحراء بنهايات تكريتيّة وصمت مثل صمت القواقع الميتة. صمت الصحراء مخيف، لا صوت نهائيًّا، فقط العدم. يمكنك إذا كنت حيوانًا فقريًّا أو قطّة بريّة أو يعسوبًا أو أرولا أو ضبًّا أو إذا كان قياس جمجمتك مثل قياس جمجمة الساميّين أن تسمع صوت النجوم بمحركاتها النوويّة والهيدروجينة الهائلة وصوت الله يؤنّب الملائكة طاردًا إيّاهم من أمامه وجبريل يتوسّل ويغنّي ويرتّل بلا فائدة لأنّ غضب الله قد صعد وما عادت تنفع التراتيل ولا الترانيم ولا الصلاة ولا السجود ولا زيارة الكاظم ولا بكاء أرامل العالم.

أخرج من المرحاض مرتاضًا، هزلًا بعد أن تخلّصت من كل شيء وأتشمّم ملابسي، عفونتي والعرق النّازل من بين الأفخاذ وتأتي جدّتي وتقول لي إنّ سيارة متوقّفة أمام البيت وأنظر من فتحة عشوائيّة في الباب الخارجيّ وأحس بارتباك مشابه لارتباك ممارسة العادة السريّة في المرحاض. أتلعثم وأسير مثل خواء الأيام الماقبل تاريخيّة عندما كنا نشرب البيرة بالقدح وبالقندرة بعد نزو السيد الرئيس علينا.. جدتي تنظر إلى وجهي بتحيُّر، تنظر إلى هيأتي المُتغيّرة كل لحظة وتغيّرات الألوان في

وجهي والصخام والبيئة الحادّة التي تزأر بصراخ وعويل، لكنّ العويل في ذهني خاصّ، عواء متوالٍ وصمت أيضًا ولا تسألني كيف؛ لأنّي أنا أيضًا لا أعرف. وأفتح الباب الخارجيّ للبيت، في ظلام الأيام، في اسوداد قلبي والنظرة إلى الشارع المزرق والأسفلت الأسود وهو يلتهب بالأمنيّات الضاجّة في عقلي. أخطو كقرد أفحج وأقفز إلى المقعد الخلفيّ للسيارة المرسيدس وبعد دقائق من التناهب في الشوارع وظلال الستارة السوداء يغمرني بأهميّة مطلقة، أنظر إلى البشر والسيارة المحاذية نظرة استهزاء وعلوّ وقدرة عجيبة على إذلال الجميع، وأعجب للشعور المخيف التي تلقيه السلطة على الواحد فتجعله يشعر بالارتفاع عن الغوغاء والعامّة وقدرة جهنميّة تتولّد فيك من أجل سحق الجميع. شعرت بكل شيء دفعة واحدة، رغبة في البصق على الجميع دون أن تتولّد للآخر القدرة على ردّ البصقة، وتولّد في داخلي شعورٌ آخرُ، هو أنّي قادر على سحق الجميع بقدمي، بحذائي، بكالتي، بطكاكيتي، بنعالي، وأنتبه وإذا أنا، فعلًا بنعال أبو الإصبع ورائحة المرحاض، تفوح منّي وأعجب!! إذا كان جلوسي فقط في سيارة رئاسيّة يولّد فيّ شعور العظمة فكيف إذا كنت عريفًا في القصر الجمهوريّ أو كنت من أهل العوجة؟ وفجأة تستدير السيارة وتدخل إلى شارع الأميرات وأشاهد نفسي أمام أمّ وليد، أمام منزلها والهاشميّ الذي ترتديه يظهر كل مفاتن النساء على أنظار الرجال الملعونين مثلي.

المثير أنّني وأنا في حومة الهزء من روحي واضطراري إلى التقوقع وشعوري بالخذلان والانسحاق، أن ينتعظ عضوي كعضو كحمار وأشاهد لحمًا ترفًا، مرفّهًا، أبيض وأسمر، وألمح المنطقة التي تتلاقى فيها الذراع مع الصدر وأحاول بإلهام غريب أن اكتشف أنبتات الشعر والزغب الأسود في الأبط. تقول لي أمّ وليد بعد أن نسير في ممرّ البيت – القصر – ونصل غرفة الجلوس المليئة بتحفيات من محل بكزاد في المنصور ومزاد الصباغ في

ساحة الأندلس، أجلس. وبعار الشناعات التي تضربني أجلس إلى أريكة من تصاميم قصر فرساي، وتدعوني إلى شرب فنجان قهوة عربيّة وأجلس على حافة الأريكة ولا أقدر أن اتكئ أو أن أدع قفاي يلامس ظهر الأريكة، اذ كنت مهزومًا باللوعة وبنعالي أبو الإصبع وبشعور أنّي مواطن عراقيّ وفجأة أجد نفسي في بيت السلطة، في بيت المواطن العراقيّ من الدرجة الأولى. أنغمر مع شذا البخور ولوحات فائق حسن وبقيّة الرواد وأغرق في منحنيات أمّ وليد وملمس الجلد الباهر والمعطّر والمبخر ويلامسني شعور أنّي في خيمة سجاح واللبان يشتعل والقرابين تُقدّم والمحرقات تحرق وأمّ وليد بجلال الحالم الأبديّ تقترب مني ولا تجعل بيني وبينها إلا مسافة الارتعاش الخصويّ وتقول لي: هل تذكرتني؟ وأشعر بالصهيل داخلي والتلعثُم وأدرج مثل أعمى في بيت مظلم ولا ضوء هناك، لا ضوء إلا ضوء اللحم الذي تفوح منه رائحة الموسيقى وعطور شتّى، القليل منها معلوم والكثير منها مجهول، والمجهول أقسى وأمرّ وأتيه تيهان البعير في أطراف اليمامة ونجد والحجاز واليمن. وأقول لها: لا. أليس بيتك في البياع؟ وتبتسم مثل نعجة كبيرة، نعجة تعرف أن الذكر الحيوانيّ سوف يصهل في أودية عميقة ولا صوت إلا صوت النبوءة الحادّة والاراغن والتراتيل واقتسام الخبز والصّلاة على النبيّ. تقول: هذا بيتي وذاك بيت نسائيّ، قل لي كيف لم تتذكرني؟ ثم تقول أيضًا: ألمْ تكن في الجامعة التكنولوجيّة؟ ألا تعرف الدكتور منذر الآلوسيّ والدكتور مازن بكر عادل والدكتور التكمجيّ والمقرّر صلاح الأسود؟

وأتلعثم وعيني تدور في دوائر متباعدة المركز ثم تنحصر هذه الدوائر في رأسي. وتقول: ماذا الآن، ماذا أيّها الراكون الأسود والدعلج الأشهب، أين أيّامك، أين أغانيك؟ وأنت تحمل الكتب ورواية "الأبله" لديستوفسكي، وقصص عبد الستار ناصر مثل مخبول وتجلس في زاوية النادي وبيدك

دائمًا استكانة شاي وتنظر إلى طالبات قسم المدرّسين الصناعيّين محاولًا الحصول على لقطة سريعة لعري فخذٍ أو شيء من هذا القبيل، ثم تضرب المحاضرات وتتغيّب، وأجدك دائمًا في مقهى البرازيليّ، في شارع الرشيد تعاني من آثار اللطم والخيبة ومطاردات الـ .... لك. بالمناسبة ماهي أخبار حبيبتك أميّة؟

أشعر بعجف عضلاتي وعضلات وجهي تحديدًا وبدلًا من التقلُّصات التي ترين عليّ، أرى أنّي في مكان آمن نسبيًّا وأبتسم ابتسامة الدعلج، ابتسامة وكأنّها مسحوبة بصعوبة من وسط ركام هائل من صفائح الحديد الصدئ، ومع ابتسامة ورقة تقدّم لي سيجارة سومر تصدير وأدخن بارتخاء وأرجع قفايى الكلب إلى الخلف وأتذكّر وجهها بين الركام وأقفز سريعًا ناهضًا والسيجارة بين أصابعي والرماد يتساقط على السجاد وأفركه بقدمي وريثما أمرده بالحذاء يتكوّن رماد آخر ورأسي يتّجه إلى الأسفل في طأطأة وخذلان عارم. وتقول لي أمّ وليد بتأفّف: أترك هذا أرجوك وأقول لها: لا، لا.

تذكرت!! أنت خلود، خلود، كيف نسيتك؟. لكنّك تغيّرت كثيرًا. خلود في قسم الهندسة الكهربائيّة وأتخلّص من هوس سحق الرماد على السجادة. السنين مصيبة كونيّة، نكحونا يا حبّي. الزمن كائن حيوانيّ يرسمنا بتراسيم الوضاعة الجليلة، لكنّك تغيّرت كثيرًا، يا للضراط!! يا للجحيم!! يا للهباء!! وتبتسم وأدخّن بشراهة والدخان ينخرني، يخرقني، يبتلعني، الدخان هائل، أنفّثه مثل ديناصور، مثل تنين صينيّ كبير يسكن المستنقعات الوحشيّة والقصب والبرديّ والسومريّون والصابئة ينامون على أوراق الغابات والمياه والمشاحيف[1]. كنت مشحوفًا هائلًا يتكوّم فيه البهاء الأسطوريّ 4 5 لفلسفة المياه والدخان والمغارات الاستوائيّة في جبال عارمة الوحشة. أقول لها: هل لي بسيجارة أخرى وتنظر إلى وجهي

(1)

بتأمل جميل وباسترخاء تقول: كل السجائر لك حبّي، ما ظهر منها وما بطن وأضحك كفأرة.

آه أميّة، العاهرات مثل العصافير ما أن تحطّ حتّى تغادر. أحني رأسي مفكّرًا، ناظرًا إلى التواء دخان السيجارة. يا له من زمن!! ادردم زمن بعيد، ينهمر إلى العيون. أرفع رأسي هاربًا وأنظر إلى أمّ وليد. أنظر مهووسًا إلى جسدها اللاهب وإلى السمرة المخيفة والضاجة مثل ملايين العصافير، أنظر إلى أصابعها المقدّسة قداسة الكتب الهلينيّة عن آلهة الإغريق، فوق قمم جبال الاولمب وجبال الكربات وأصابع قدمها بسمرتها ودينونتها وطلائها تندفع في نعال أبو الأصبع. والنعال يقسم أصابعها مثل متوحش يقرأ كتابه المقدّس في حضرة الجنّ والتوابع ورئيس الملائكة والقدّيسين، نعالك خلود فنّ قروسطي يتمايل بضغوطاته القدميّة وأقيس عنفوان الجسد من وزنه، أقيس انضغاطاته الواهنة واللينة وأعبر بحر القلزم وخليج البصرة وهور الحمار والعمية وسربيل زهاب والمحمرة والجنّ يتبعني ليرميني بسهامه. أصرخ في ظلمة قاسية وأقبل النعال وربلة الساق من تراتيل وترانيم هاربة في الفلوات. وتقول لي: معقول أنّي تغيّرت كل هذا القدر؟ وأقسم ببعلزبول إنّ التغيير كان كبيرا.

تقول: إنّها أجرت جراحة تجميل للأنف. وأقول: هذا هو السبب الذي منعني من التعرف إليك. وأنظر إلى اللحم النيي أنظر وأشعر فجأة بانتصابات مزعجة وأحاول أن أضع يدي في جيب البنطلون وأكتشف وأنا أعبث معه أن جيبي مثقوب وأن كلّ الخردة التي كانت في جيبي تسربت. وتقول لي: هل تتذكر خضير الطويل؟ أقول لها: نعم، نعم أتذكّره وكيف يستطيع الواحد أن ينسى زمالا مثله وتسألني ثانية عن أميّة. أقول لها بعد استرخاء وشرب فنجان القهوة: كلّ شيء انتهى، انتهى وتركتني بعد معرفتها باعتقال أمّي. أصابتني وقتها كآبة حادّة وانتقلت إلى الأوج الأعلى حيث

الشيزوفرينيا والبهتان والهستيريا والكمود. تنظر خلود إلى وجهي ثم إلى الساعة الموجودة على الحائط، وأنهض شاعرًا بالحرج، وأقول كاذبًا، عليٍّ الانصراف، لأن لدي موعدًا. وتقول لم تتغيّر أيّها الدعلج الباهر والمنقار الشاهر. السائق سيوصلك. خذ سيجارة أخرى من العلبة وأقول: لا، أريد أن أمشي، وتمسّ بأصابعها وجهي الخطل، المشوّه، الناحل، البرقوقي العفن. يا للتماهيات يا خلود!!، يا للتضرعات وأنت في الغسق الأعلى حيث الناموس واللا هوت وإيليا يودعك بقراءاته والنمرود في القفص والحلكة والنار تشتعل في الأجساد الحيوانيّة. ليكن قلبك عارمًا ولا يعوز رأسك الدهن وثيابك بيضاء مثل زهرة القرنفل الأبيض. وتميل برقبتها قليلًا، وألاحظ ازرقاقًا خفيفًا عل جلدها، قريبًا من شحمة الأذن وأسفل التقوقع الأذني. أخرج من البيت متعثرًا، تلحقني هي إلى الباب الخارجيّ، متعثرة بالهاشميّ والخلاخل ورنين الذهب والعقيق والزمرد والجمشيت والبهاء ورائحة الآباط والزنود وبدايات انبثاق الزغب وخشب الصندل وخشب الأرز وجامات الملكوت السماوي في الأفق تترى وصورة صدّام على الهاشميّ عند الكتف الأيسر من الأعلى قريبًا من الرقبة والحافات الملهمة للتابعين والمتبوعين. أودعها باللهيب، بالسكيب الروحيّ، بالناسوت، ببيانو يعزف اللّحن الأخير، الشبقيّ، بالتضرعات والتوسُّلات وتقبيل الأيادي ولثم الأصابع وانزياح الفكرة وتبرعم الاكتئاب وإمساكه ببلعومك وزردومك وناصيتك وأصابعك ووجهك ويتقلّص كل شيء في عضوك وشفتك وعينك، وروحك تغدو مثل ذبابة حبيسة قنينة زجاجيّة.. أخطو إلى الباب، إلى الانحناءات الطوليّة لبوابة ملوكيّة صنعة مهرة وعمال جاويين وبخور مُلطّخ بالبواعث الإنسانيّة. تغلق الباب ومع الغلق أشعر أني خرجت من عالم وأقحمت آخر.

***

أصل البيت وأجد ميري سكرانًا ومتكأً على رنك شاحنة صغير يستقرّ عليه حُبّ[1] ماء. يا أبناء القحبة!! مَن هنا؟ يا مرحبًا، يا مرحبًا بالفلسفة التي تمشي بعرج في أنحاء العالم الهوسيّ، هللويا ميري أيّها المسكين، السحلية، المتبوع باللّعنات، المتبوع بهواجس الكتابة النايدرتاليّة أو الشنتويّة. لمَن تكتب أيّها العزيز؟ تكتب لأهل العوجة؟ أهل العوجة الذين رموك بكلّ هذا السفلس والجوع والعري لأنّ عبد الأمير معلة وحميد سعيد وعبد الرزاق عبد الواحد وباقي عصابة الحزب الثوريّ العلمانيّ جدًّا، الدينيّ جدًّا، النهلستي جدًّا، العضويّ والتحليليّ جدًّا، رموك من علية منارة، رموك من شاهق، إلى بحر التنوير المعرفيّ واكتشفت هناك، حيث القواقع البحريّة والضفادع والباجات والكوارع والكرشات وتشريب لحم ولبن وثوم، إنّك عبارة عن تائه مع هذا الإخطبوط الهائل وأنّك تستعدّ للانتحار مع البسطرمة لكن ليس اليوم أرجوك ميري، أنا متعب.

أرفع ميري عن الأرض بالقوة الشيطانيّة للعضلات المخدّرة والمهزوزة في سخافة الزمن الدنيْ، وأضعه إلى طاولة صغيرة في الغرفة وأدفع إليه عشرات الأوراق ويكتب، بإلهام خياليٍّ، يكتب، يفيض، يتقيّأ، عن نيتشه ومرسيدس زوجة غابريل غارسيا ماركيز وأحلام منصور والمقدّسة لطفية الدليمي. ويسوِّد قصاصات صغيرة عن التكوين الروحيّ للملائكة عندما تضيع في أرجاء العالم. إنّه مهووس بالنكايات والالتياع، بالناستوجيا والاست لوجيا، ونظريات المعرفة. عيناه محمرّتان، فمه قرمزيّ، وجهه ينتفخ باللعنات ومع كل الانتفاخ المرضي بسبب العرق الزحلاويّ واضطهاد الأخوة الأعداء في اتّحاد الأدباء، يظلّ وجهه شبيهًا ببوز حصان. دائمًا كنت أشك أنّ في ميري عرقًا غريبًا، حصانيًّا، عكركيًّا، ماسوشيًّا، وضعيًّا، تأويليًّا. أشعر بالشفقة عليه، بالجنون، أشعر بالاهتزاز الطوباويّ

(1)

معه وبأنّنا على وتيرة واحدة من اللا معنى والضياع في هذا العالم. لكنّه ليس ضائعًا، إنّه مفكّر كبير، حالم، عبقريّة جنونيّة. الوحيد في العراق الذي حلّل أصل العائلة المالكة وأثبت بالدّليل القاطع أنهم ليسوا كائنات ميثولوجيّة وأنّ في أحاديثهم مورفولوجيا، ذوبان عراقيّ، عمبة وصمون بدون فلافل مصريّة، ليس أكثر. ميري، يجلس على أرض الغرفة، يكتب بشغف شديد عن انحطاط الثقافة العراقيّة الصداميّة وقيم الحيونة التي بدأت تنتشر في مجتمعنا العراقيّ.

***

إنّه يرتفع، يستنكف غائطهم الحشويّ - في انسلاخ قطرة المخلص الرادوديّ - عوجيّين وبعثيّين وغائط قرب حائط وذباب واتّحاد حميد سعيد وعبد الأمير معلّة ولؤي حقي تاليًا، وباقي الرزمة في دار الشؤون الثقافيّة. أشعر بالشفقة - ميري- الإنسانيّ بلا عرق كفاية في بارات بغداد الرخيصة ومحلات الدودكيّة في شارع الرشيد قرب سينما الشعب والسندباد وخلف سينما النصر. ميري ستقتلك الفئة الباغية. ياربّ، كم شِمر في حياتنا؟ كم بعثيّ في أحلامنا! أشعر بالانتهاب الروحيّ واللّذة الناقصة كون ميري يكتب بالقلم وليس على آلة طابعة مثل عبد الستار ناصر. مساكين نحن، كتاب زمن التكارته والعوجيين حيث الحيوانات التوراتيّة تعمل على محاصرتنا في زمن خيبة كبير، كبير جدًّا إلى الدرجة التي لا نستطيع فيها إلا التقيؤ على ملابسنا. أشعر بشهوة غريبة، شهوة أشتهيتها أن آكل العمبة والصمون اليوم، العمبة عندما تسيح على قمع الصمونة وتبلّل الأصابع وحتّى عندما تغسل يدك وتفركها بصابون جمال أو صحّة أو عطور ألف مرّة فإنّ الرائحة لا تزول. تبقى، مثل غمامة افتراضيّة، مثل شيء سريّ، عمبة من النوع التوراتيّ، عمبة مخيفة حتّى رائحة ملابسنا وفمنا وأصابعنا تمتلئ بها. كنا نلوص لوصًا بصدق في التكوين الغريب لسائل العمبة اللّزج

المكوّن من البهارات والشريس والماء. لكنّ التكارته قضوا على العمبة، استبدلوا أكلتنا الرائعة بالفلافل القوميّة التي غزتنا من مصر ولبنان وسورية. لكن ليس الفلسطينيين، الفلسطينيون مساكين مثلنا، أوباش، ضحيّة. إنهم مهووسون بالحمص بالطحينة والفتّة. الفلافل خطرة جدًّا، ما إن تدخل بلد حتّى تغزوه الأمراض والفقر، هذا ماحدث مع اللبنانيّين والفلسطينيّين والمصريين والآن نحن يا....!!

أنا أحنّ بشكلٍ بوهيميّ إلى العمبة والصمون. يا ربّ العمبة والبهارات والشريس والسائل الأصفر. هل من ملاذ يا ميري في عالمك؟ عالم الصمون الحجريّ والعمبة وعرباتها الملوّنة أمام المدارس مثل عرس هندي. هل تتذكّر يا ميري؟ أرجوك تذكّر، أننا نخرج من المدرسة عارمين، مهلوسين ونتراكض مثل حيوانات ضالة يضرب بعضنا البعض الآخر بالحقائب وجزء عمّ في الحقيبة والجلاليق، ومثل جرذان صغيرة يصعد بعضها على بعض، حشرات مموّهة، نسانيس من غابة مجهولة، أفاعٍ طويلة ونتجمّع صارخين حول عربات العمبة بالصمون وبلا ذباب، لأنّ الذباب يهرب من صراخنا وفوضانا وجلاليقنا.

يا له من زمن غريب عجيب!! زمن مائيّ، ميثالوجيّ. هذه العمبة بالصمون مسؤولة عن العباقرة الذين ولدهم العراق من رحمه، من ذاته، من رحم غريب مكوّن من خلطة فكريّة عجيبة ومخيفة، خلطة ديناميتيّة تتكوّن من فلسفة المعدان، أبناء قبيلة معدّ العربيّة حسبما يقول جواد علي مضافًا لها الشروكيّة والأكراد وأهل عانة والأنبار ورُاوة والموصل واليزيديّين وأكراد خانقين والسريان والأثوريّين وبني لام والدليم والآراميّين والسريان. وهكذا تلاحظ أنّنا شعب غريب عجيب مكوّن من ملايين التفاهات والاضطرابات وأمراض العصاب النفسيّ والقوميّ والدينيّ، وكل واحد له فلسفة هنديّة خاصّة به وله ربّ وبقرٌ وآلهةٌ تصيب

فرجك بالسفلس والبثور، أضف إلى هذا الرُّكام المعرفيّ، الشيوعيّين بمختلف تصنيفاتهم الخرائيّة والبعثيّين من أتباع القيادة القوميّة السوريّة وأتباع القيادة القوميّة العراقيّة وميشيل عفلق وبعض اليهود وعشرات غيرهم في هذا الوطن الجميل والخرب والعجوز. ويجب أن تنتبه إلى أنّ في الوطن حزبًا آخر، حزباً خفياً هو حزب اللوطيّة ورجال ال..... والدودكيّة والفروخ والمغنيّين والراقصات والمتمايلات.

كم كنت أتمنى لو أنّنا مثل ألمانيا شعبًا واحدًا أو مثل البريطانيّين على أقل تقدير، فقط أسكتلنديّين وإنكليز وأيرلنديّين وليس مثل هذه التفاهة. لكن الشيء المذهل فعلًا أنّ الجميع يشترك في كونه عضوًا في الحزب والأمن والمخابرات والجميع يمتلك القدرة على سحقك وقمعك وسلبك.

هنا في العراق العظيم، في العراق التكريتيّ لا نستطيع اقتناء طابعة، لا نستطيع اقتناء فاكس ونعتمد على التدوين اليدويّ. عبد الأمير مُعلهَ ومَن معه، ينظرون لمَ شابه ميري على أنّهم مجرد أدباء شباب، حثالة، حقراء، قرود للضحك لمجرد أنّنا لا نستطيع أن نمتلك آلة طابعة مثلهم. مساكين ومرذولين في زمن البعث، في زمن الحيوانات الطائرة والمهيمنة على كل حياتك. بوليس سريّ، قواويد ونكرات، استدعاءات مجنونة، تحقيقات، طلب معلومات أينما تذهب في العراق العظيم يطلب من المنظمات الحزبيّة اكتشافُك وإعداد تقرير عنك وعن كل حياتك وإن كانت زوجتك قحبة أم لا؟، محجبةً أم لا؟، تذهب إلى الجامع أم لا؟. عندما تسير في هذا الوطن تحسّ دائمًا بالأهانة، كل شيء يهينك بمَن فيهم الشرطي ورجل الإطفاء وبائع الباذنجان المقليَ أمام القصر الجمهوريّ وسائق الباص والكوستر ورجل النقابة والعرّيف في الأمن والجايجيّ في رئاسة المخابرات ورجل الحزب وعامل التنظيف في مقر القيادة القوميّة. نحن شعب يحبّ أن يشعر بالقوة ويحبُّ أن يمارس نازيّته على أصغر المخلوقات في العالم، بشرط

ألاّ يكون هذا الصغير من أهل العوجة. مسكين ميري وأنا أيضًا.

الساعة الآن العاشرة إلا الربع مساءً. ميري يبكي بعد كتابته مُسوّدة كبيرة، يعمل الآن على مشروع كتاب جديد، ينهمك في العمل بشكل جنونيّ، يريد تشريح المجتمع وأدب خير الله طلفاح والأدب الروائي وتأثير عبد الأمير معلة فيه عبر روايته العظيمة (الأيّام الطويلة).

العاشرة والنصف، ليل مخيف. أنظر من النافذة إلى روح العالم البَشِع، العالم الضيق. أشعر بالارتكاس والنزعات الدونيّة تطاردني، أشعر بالانتهاب والتيهان وميري يحتسي آخر قدح عرق ويكتب بروح نيتشه، وفون شتات واسبينوزا وفوكو وبقية نكرات العالم. لكنه لا يكتب بروح حميد سعيد والجاحظ ولا ابن عربيّ ولا الزجاجيّ ولا الحلّاج. كلهم نكرات، أريد أن أتقيّأ عليهم على انفراد، خاصّة عندما أكتشف أنّ ابن عربيّ كان يسرق فلسفته من ابن ميمون وأنّ كلّ الإخباريّين العرب كان يلصقون ويضيفون من عندياتهم وأنّ التاريخ العربيّ ليس إلا كذبة كبيرة وتزوير ومضحكة.

أعجب للتساؤل اللافت للنّظر وهو لمَ هذا التزوير المخيف في تاريخنا؟ يجب أن أعترف، أن أعترف مرّة واحدة أمام التاريخ، أمام كل العاهرات في العالم، يجب أن أقول كلمتي الأخيرة قبل أن أجلس على حافّة جسر الشهداء وأتقيّأ على هذا العالم، أتقيّأ على بغداد والأنبار والبصرة والموصل والعُوجة وإربيل. أتقيّأ على كل الخراب في هذا الوطن وهو يصعد بروح العسكرتاريا والهمجيّة والبداوة التي حذرنا منها علي الوردي. جحيم من العادات البدويّة والجمال والأباعر والحمير والهوايش تنطلق في وطني. يجب أن أعترف الآن، أن أقول كلمتي دفعة واحدة وليذهب العالم إلى الجحيم. ميري هو فوكو العراق. اعتقلوه عندما أراد أن يهرب من الوطن، لكنّه رغم الرجات الكهربائيّة التي شحنوا بها دماغه بقي يكتب، إنّه يرعبهم

بكتابته، يشرّحهم مثل صرصار إلى مليون شريحة.

العاشرة والنصف وعشر دقائق إضافيّة من أجل الموتى. لاشيء يُعكّر صفاء هذه الليلة الغريبة غير عواء، ميري وأنا، عندما قبّلت وجه المسيح القُبلة الأخيرة، لم أزل أتذكّرها بوَهَنٍ ودهشة وعدم تصديق وكأنّما الذي حصل كان في عالم الرؤيا والغيبة.

أتمدّد على السرير وما إن أُفكّر مرّة أخرى بأمّي والمجهول، وما إذا لم تستطع خلود العثور عليها، حتّى يجثم عليّ إحساس الموت. أشعر بالاختناق واكتئاب ما بعد مرحلة التقيؤ بسبب العرق المغشوش. تدخل جدّتي الغرفة متثاقلة وتقول لي بتلعثم: كوم[1] سيارة بالباب! يا للعنة!! أقفز بملابس مدعوكة وسيجارة ترتعش بين أصابعي وأشاهد نصف وجه سائق أمّ وليد، ضوء الشارع الوحيد والأصفر يلقي هالة من الرعب. كنت لا أشاهد وجهًا، بل سفينة كبيرة آيلة إلى الانحطاط السفلسيّ. وأعجب في الحال أنْ كيف واتتني فكرة إن الضوء الأصفر والعامود الغبيّ يوجّج فيّ كل هذه العذابات المخيفة من أن أكون أنا نفسي ليس ذاتًا، إنّما فراغات تدخل فيه عاصفة من التناقضات المهيمنة.

وفيما أنا أفكّر بملايين الأشياء، مثل العقل الكلّي، يتقدّم السائق ويقول: الأستاذة أمّ وليد تريدك الآن حتمًا. أقول بزئبق يؤشّر درجة حرارتي إلى المليون وبكثير من المودة وجاجيك[2] على قميصي. وبنطلوني ليس مزرّرًا وأعاني من فكرة أنّ الجحيم ليس إلّا عبور الضوء الأصفر في ليلة غرائبيّة ميّتة، وأصوات مُواء تنبعث من الخرابة القريبة من المنزل حيث نكب الأزبال، نحن والجيران، وهذه الأزبال أول الأشياء التي أحلم بها كل يوم بعد العاشرة والنصف مساءً - كحالة مرضية - عندما يحرق احدهم

(1) كوم: قم

(2) جاجيك: مزة عراقيّة مكوّنة من اللّبن والثّوم الخيار.

الزبل وتفوح الروائح والضباب وحسب ازبال بيت أم عدنان ونوعيتها يكون الدخان؛ فإذا كانت أمّ عدنان قد رمت خرق الدورة الشهريّة يكون الدخان رصاصيًّا وإذا كان بنطلون الأب ببقع الغائط لأنّ ليس له القدرة على ضبط أعصابه ريثما يصل المرحاض، يكون الدخان أسود ورائحته غريبة يمكن أن تتنفّسها وكأنها قنبلة كيمياوية.

وأنظر في وجه السائق مبهوتًا وأقول بلسان ذَلِق: ألا يمكن تأجيل الأمر إلى الصباح ويقول لي بلكنة تكريتيّة مزيّفة. لا، الآن. الضوء الأصفر يحيطني وأشعر أني في غرفة الإعدامات وأترك ميري يعاني من تعتعات السكر واللعيان نفس وصرصار أحمر يسير ملاصقًا لساقه وأوراق المسودَّات حوله وأصعد المرسيدس بِبَلَهٍ. وفي الأعلى سماء من الخارصين وفي الأسفل زنك. وكما في أحلام بوليود وفي مدينة الألعاب القريبة من مدينة الثورة، تتدافع أمام لعبة الطير المهاجر وإذا بغلام يحاول العبث بمؤخِّرتك وعندما تشعر أنّك بحاجة للذهاب إلى الحمام تفاجَأ به مملوء بالذباب الأزيزي الأزرق والطنين والبعوض وأحدهم عملها أمام البوابة وعليك أن تقفز لتصل إلى الطهارة، هناك حيث صرير الأسنان. ويا للمتعة الجهنميّة!! وأنت مصاب بالشيزفرينيا وببعض الاكتئاب الارتكاسيّ وتحسّ بحلقك مغلقًا وأسنانك تضغط بقوة وأنت مفلس والديون تطاردك مثل حيوان تائه في قطاع خمسين[1]. لكن الشيزفرينيا لا تمنعك من تأمُّل كل شيء، من تأمُّل الخفقات الهاربة من قلبك ومن أضواء الشوارع الباهتة والصفراء ووجهك يتقلّب كل لحظة، بل كلّ جزء ذريّ منه بين تقلُّبات الوجع والإرهاص المعرفيّ والحيوانيّ. وتشعر أنّك تريد أن تقفز من نافذة السيارة، أن تصرخ عاليًا بين الجموع البشريّة وهي تتعارك وتتدافع أمام الأسواق المركزيّة بعد أن حولوا اسمها من الأورزدي باك الذي كان من

(1) قطاع خمسين: منطقة سكنية في مدينة الثورة في العراق.

أرقى المحلات في بغداد، حاله حال المقصّ الذهبيّ وعالم الأطفال في شارع النهر ومحلّات هيب هوب. لكنّ كل شيء انتهى وتمّ تغيير الاسم إلى الأسواق المركزيّة وتتدافع الجموع وتتدافع الاضطرابات الذهنيّة وتسحقك بأقدامها مثل القطعان الوحشيّة وتدوسك وتكون في النهاية مثل غائط مداس بآلاف الأقدام. لكن لا يهم يا حبيبي، لا يهمك، المهم أنّك موجود هنا، هناك، في كل مكان كما القائد الضرورة، بلا مركز ولا محيط. إنّها فكرة مجنونة، فكرة معربدة في محيط من المسامير والإبر الواخزة وأنت ممدّد، جالس في سيارة المرسيدس في تناغم صفر الوجوه وظلام الليل. وأفكر بعتوّ شديد، مثل قطّ وحشيّ، مثل حمر أهليّة، مثل ضبّ يؤكل أمام خالد بن الوليد، مثل فراشة أندينوسيّة تميل إلى الاحتراق في النار. أنا النار وأنت الظلمة، وأنا النهار وأنت البريق المتوهّج والمتفجّر من غيمة ماطرة، لكن العربدة الروحيّة هنا، هناك في كل مكان. مثل صوت إسرافيل يشرق في باران ويتلألا في تيماء ويأتي من القدس وليس من الصحراء. تجده في العاصفة والهواء والليل والدهشة وتتذكّر أنك في السيارة بلا حذاء ولا نعال ولا كالة ولا طكاكيّة ولا شحاطة ولا قبقاب ولا جوارب، ويا للمتعة المتوهّجة والمتولّدة لمساقات الفلسفة!!! عندما تنحني أمام تفاهة واحد من أهل العوجة وأنت في سياراتهم، فوق مطاياهم – سيارة المرسيدس – التي هي عصارة الهندسة الألمانيّة والأساطير الجرمانيّة وقبائل الأنجلو سكسون والهون والسلتيين والبراري المثلجة والصقيع البارد وهتلر والغابات الداكنة والضوء النازف من قمم جبال بعيدة عن جبال البرنس وبيرة بافاريا وعصارة كرمة نهر الراين وحواف جبال الألب وعقل ديملر وباير وكل العباقرة الأرقى في هذا العالم. تتلفع تكنولوجيتهم بعباءة أعرابي منفلت في رائحة المخافير. نكايات وأزمنة مرعبة وأنت في السيارة التي تسير بسرعتها الجهنميّة وتنظر إلى وجوه الناس والبشر المحتشدين

أمام محلات بيع البطاطا والطماطم والبيض والدجاج البرازيليّ وآيس كريم الخاصكي والرُّوَّاد. في متاهات الوجع المكتوم وأنت تقف في طابور يوصف بالملايين والأنفس والأرواح تتوسّل البائع أن يبيعك ولو أكثر قليلًا من الآخرين، علبة إضافيّة من قيمر المصلحة، لخاطر الله، الله ويدك أبو الغيرة دخيلك يا علي الشرجي، دخيلك يا داحي الباب، دخيلك يا سبع الدجيل، دخيلك يا عزير، دخيلك يا سيد مالك، وفي النهاية دخيلك يا (أبو عدي) ويهجم الرعاع على شباك البائع في فوضى الزمن الغريب والهمجيّ والانثيالات والدموع وتداخل الأجساد المتشاطئة المُتعبَة والمنهكة والمأزومة باللوعة والارتكاض المرير بين الدكاكين للبحث عن البيض، بيض أيّها السّادة المسكونين باللؤم والتفاهة المضطربة لحياتنا المأزومة والمنتفخة وألعاب جهنميّة تمارسها السلطة عليك وتتراكض في الشوارع والأزقّة والدروب موحلة بلا مطر، بلا غيمة واحدة تروي الظمأ ويكتب الكُتاب حكايات الرئيس والرئيس عندما كان نائبًا وينفلت رجال البعث في الشوارع ومعهم حميد سعيد وعبد الأمير معلة في الأزقّة، في العقول في البراري في الزواريب في الصحراء في..... وهم يحملون أوراق الكسب الحزبيّ وأبو طبر يلوح بسيوفه وخناجره والدولة مقلوبة، بالضباع المتأسّية، بالألعاب البهلوانيّة ومدينة العاب سمقة والآلام ومدينة كبيرة مثل بغداد تئن موجوعة بالتراكمات الذهنيّة والمعاقين نفسيًّا، بيض أيها السادة. سوف أموت لو لم آكل بيضًا، بيض وقيمر وزبد

المصلحة وتبحث في الأسواق السوداء والحمراء والخضراء وتشتري القيمر والبيض بأسعار مرتفعة وشنيعة من بائعات ضخمات قادمات من الثورة بملابس سوداء يفترشن الأرض. وعندما تقف أمام وكيل الألبان لشراء البيض أو القيمر يفرض عليك أن تشتري كتب خير الله طلفاح – خال الرئيس – بعرور شفيف أيّها السادة، غائط يلوث حياتك وأنت

تشاهد العاهرات والقحاب والفروخ القادمين من الفيلبّين يجولون في أرض الله. الأرض التي أنجبت البعثيّين والشيوعيّين والمعمّمين ورجال الإطفاء والحريق وعرفاء الشرطة والجيش وعرفاء الأمن العامّ والخاصّ والمخابرات وبيت أبو زينب قرب باب الحوايج وبيت أبو عبدو قرب مرقد أبو حنيفة وهكذا عزيزي، كلّهم أبو وأبو. وطهارة وقتل وسحل وإجرام وعواء في شارع الرشيد وبصقات كبيرة وعراقيّين يزحفون مثل الدود باتجاه النهر والنهر يلتهمهم وبيت أبو ريحة مغلقة أبوابه والعاصفة تنام عند الأرجل السحريّة لـ ... وكل أنذال العالم. وترتعش عندما يدخل بيتك بعثيّ وتنسى في اضطرابك أن تعلّق صور السيد الرئيس والسيد الرئيس عندما كان نائبًا، وتُصاب بالنقرس وتُصاب بالجالي وبحبّة بغداد والبواسير والفالج، وعندما يغادر الرفيق الحزبيّ البيت - بيتك - تُصاب بالقولنج والسفرجل مثل لونك والبهاء مثل عقلك وأنت تقرفص في زواية البيت وترتعش وتفكّر بالذي سيفعلونه بك لأنّهم لم يجدوا صورة الرئيس ولا صورته عندما كان نائبًا ولاعندما زار الأهواز ولا عندما كانت حلا جالسة في حضنه وهو يرتدي ساعة رولكس وتفكّر في الفرقة الحزبية[1] عندما يتم استدعاؤك إلى هناك، بين البنادق والرصاص والرفاق في الجيش الشعبيّ والرفاق في المخابرات والجهاز الخاصّ بالرئيس وتجلس في الزاوية مكلومًا، متقلصًا لكن بلا ضراط، مجرد فساء بائس ينسلّ باهتًا مثل اليانسون وفمك جاف وأصابعك تتقلّص وأمعاؤك، يا للعنة! تتحرّك بشكل دوديّ وتتمدّد وتطول وتبلغ كل أنحاء العالم ومثل النبتة المتسلّقة يكون عقلك وأنت تتوسّل الله وكلّ الآلهة وبغداد وحواري البتاوين عام 1959، أن يشفع لك الله عند القيادة السياسيّة وقيادة الحزب والثورة وفي أفضل الأحوال تلقى تأنيبًا لعدم وجود الصورة وتقسم لهم بكل الأسماء

(1) الفرقة الحزبيّة: مقرّ حزب البعث في كل منطقة سكنيّة في العراق.

التي تحفظها من أحمد بن حنبل والشافعي وابن ميمون والزجاجي وخضر الياس والعبّاس وعبد القادر الكيلاني وديك الجنّ ...غير عالم بالخراب الروحيّ الذي يدمّرك وكلّ ماعليك فعله هو أن تذهب قرب ساحة الرصافي، قريبًا من الحيدر خانة وتجد هناك بعد توغل في الدروب والطرقات والدرابين المعوجة والملتوية مثل حيّة، حائطًا وتجلس هناك وتتغوّط وتبول أيضًا، ولا أريد أن أشرح لك كل شيء لأن السماء سوف تلعنني كوني لست بعثيًّا ولا شيوعيًّا ولا رجل دين ولا غبيًّا، إنّما مجرد إنسان يريد لوطنه أن يعيش كأحلى وطن ولا يطلب أيضًا إلا أن يتركوه وحيدًا في هذا العالم ومع هذا الوطن المجنون والمخبول، نتراكض سويّة في مروج الذهب الجنوبيّة والهضاب الرماديّة والجبال البازلتيّة، وان أتذكّر هذا الوطن أثناء السكر والعربدة، كما أتذكّره أيضًا عندما أنام وأصلي صلاة خشوع لله أن يحفظ هذا الوطن.

وهكذا أبقى أصرخ في فراغ القدر الموضوع أمامي، أصرخ في الفرقة الحزبيّة أمام الرفاق، إنه حدث خلل ماوانك، وهكذا تقول للرفاق، نسيت أن تذهب إلى بائع اللبلبي لأخذ صورة الرئيس منه وأكتافك للعبّاس إن كنت كاذبًا. وينظرون إليك وعيونهم تشبه عيون البدويّ عندما يرى عرياً حتّى وإن كان لقطة أثناء النزو الشباطي، ويدفعون إليك بصورة. وعندما تخرج من الحضرة الحزبيّة تشعر أنك مثل بول متعفّن، مثل غائط ورائحتك تشبه الذين يسكرون كل الليل مع تدخين مليون سيجارة بغداد في غرفة تشبه غرفة صنع الأكياس الورقيّة في معمل حيدر في بعقوبة بجوار جامع الفاروق وسوق النعل المعاد تصنيعها بتكنلوجيا التصنيع العسكريّ لحسين كامل ولا تعرف لمَ تتذكر في هذا الموقف والبلوى والبانوراما، كل شيء مثل شريط مغناطيسيّ يظلّ يردّد على مسامعك كلمة خائن، مرتد، عدو ثورة ١٧ – ٣٠ تموز المجيدة. وتذهب إلى البيت وأنت

تعرج وسحاب بنطلونك مفكوك والمخطان اليابس بفعل الهواء يتدلى من فتحة انفك. وبعد أن تعلّق الصورة تقف أمامها، تقف إزاءها وكأنك أمام هبل والكهنة تراقبك لكن عوضًا عن الكهنة، هناك الجيران وبيت أم بثينة الرفيقة الحزبيّة التي وكلت بمراقبتك وتسمع الطرقات على الباب وتخرج من صمتك الحيوانيّ، صمتك الممغنط وتدخل أمّ بثينة وتتجوّل في البيت وكأنّه بيتها وعندما تجدِ الصورة معلقةً وفوقها كلمة الله تنظر شزرة نحوك وتفهم في الحال وتنزل اسم الله وتبتسم هي، وتخرج وتعرف بحاستك الحيوانيّة التي تكبر وتكبر، إنّه ليس أمّ بثينة وحدها من يراقبك، إنما كل منظمات الحزب في المنطقة وكل منظمات اتحاد النساء والشباب والرياضة. الجميع بعثيّون وإن لم ينتموا، وعليك في هذا الجوّ أنّ تردّد دائمًا مع نفسك أنّك تحبّ الحزب وتحبّ الثورة، ثورة ١٧ - ٣٠ تموز المجيدة، الثورة البيضاء التي لم يقتل فيها أحد باستثناء الذين ماتوا بعد ذلك وهم آلاف، ملايين، مليارات الموتى والمجانين والمعاقين نفسيًّا والأرامل والأيتام.... الخونة.

يتحرّك سائق أمّ وليد بسرعة مناورًا بين السيارات، وعندما نجتاز بشكل جنونيّ من أمام بيت سعد المخبل أشعر بشغف مُدمّر إلى أن أقول - بارود سكين وملح - أن أصرخ بها بوجه سعد المخبل لأجعله أكثر جنونا، أكثر حيوانيّة وهو يضربني بعصا أو قضيب معدنيّ أو كيبل نحاسيّ مغطّى بمطاط قذر.

أقول للسائق: أرجوك سيدي لنعد قليلًا إلى الوراء، أريد أن أرى بيت سعد، سأموت إن لم أره الآن، في هذه اللحظة، العجل العجل، المَدد المَدد ويقول لي: لا نستطيع، الأستاذة تريدك الآن بسرعة، حالًا. ياكواويد!! سأموت من الشيزفرينيا، أقسم بكل آلهة العرب الجميلة قبل الخراب.

نصل بيت أمّ وليد وأترجّل خائرًا، أترجّل والقمر يعوي والبرد يقصف

العظام والبخار يتدفّق من فمي وأحسّ بحفرة الفم مليئة بالذروق ومذاق بيرة متعفّنة مع مليون سيجارة. الدخان حولي وفوقي وعلى الجوانب. أنا لستُ ملاكًا، إنّما جحيم لاهوتيّ، مدراشيّ، سفسطائيّ، مسيانيّ. أخطو مثل فرس عرجاء باتجاه مدخل بيت أمّ وليد، أصعد السلمة الأولى والثانية، أنظر إلى الخلف بعيون محتقنة بالثآليل وبوح الإلهات بعد منتصف ليل غريب. أرى السائق يشعل سيجارته ودخانه مثل وحش الأزمنة وينظر إلى ساعته. وأخطو الخطوة الثالثة مرتمسًا بالتهليلات وأشعر بوخز القلب، بتشنجاته، ببطء الضربات ومحنة النوارس على السواحل الباهتة المتصدعة تؤجّج فيّ ملايين القشعريرات لوجود الأشرعة الممزّقة والقوارب الراسية في العاصفة. أطرق الباب، أخاف، أعترف، أنّي وَجِل، مُنهك. البتلّات الورديّة لجهنميّات عصر الخليقة الأول تنمو على فمي، مثل الدنابل، الألغاز، التقيُّحات.

أنظر إلى الوراء مرة أخرى، السائق يستمر في التدخين والدخان يخرج من مؤخرته ويحدق إلى عصافير ليلية وخفافيش تحلّق في سماء الدسيسة والترقُّب، الأشجار صامتة، الياس[1] ساكن، القواقع البحريّة تزحف، الضفادع تنقنق، الكلاب تنهش. صمت كئيب لا يمثله إلا صمت وجوه حماية الرئيس في نادي الصيد والعلويّة والأمباسي. أحني رأسي قليلًا وأنظر إلى قدمي، أنظر إلى الطين والعبث وشعري الكثّ مثل السحرة. بعد دقائق تفتح الباب وأدخل وتقول الخادمة. بخ بخ. بسرعة مع إيماءة من يدها: الأستاذة في ..... يا للجحيم!! يا لصحف موسى وإبراهيم والتقرير السياسيّ الثامن للقيادة القطريّة والمنهاج الثقافيّ للمؤيّدين والأنصار والأنصار المتقدّمين والأعضاء.

(1) الياس: نبات عطريّ معمّر.

الأستاذة في غرفة الخطار[1] تقول الخادمة. لماذا؟ لماذا؟ أرغو كبعير وتقول: أركض، أركض. وأهرول ومؤخّرة الخادمة أمامي تهزّ الانزلاقات الميتة للخصيّة وتوخزاتها، لكنّي لا أرى، لا أسمع إلا صوت خفقان قلبي واللهاث. نجتاز ممرات سريّة تشبه ممراتِ وزارة حميد سعيد وعبد الأمير معلّة، وأدخل الغرفة وأجد الأستاذة ممدّدة نصف تمديدة على – القنفة[2]– ومسجل نوع سانيو قربها وأشرطة موسيقيّة لجبار عكار وأحمد الانضباط وديمس روسيس وتينا جارلس وفؤاد مسعود وجيمس لاست وكوكوش وعلبة كلينكس من إنتاج معمل الرفاه وقطعة من بسكويت الجميلي على الأرض وأفزع شاعرًا باللواث العقليّ. وعندما تجدني أمّ وليد أمامها، تنهار بشكل أعمق وتنزلق من القنفة وتلتصق بالأرض وأثناء الانزلاق فوق سجادة الكاشان الرقيقة تصطدم يدها بآنية الورود وصور السيد الرئيس وتتساقط الأشياء وأهرع وأرفع صورة السيد الرئيس، وتصرخ أمّ وليد وتمسك رأسها وتجلس متربعة على الأرض وساقها طويل مثل الحريديم والبدو والكحل في عينيها يسيل، أجلس على الأرض قربها، فوق سجادة الكاشان وقطعة بسكويت الجميليّ قربي. تقول لي: مصيبة، مصيبة وتختنق وأطلب من الخادمة قدح ماء بارد ويجيء القدح ومسح الوجه والذراع والزنود وأشاهد وجه أمّ وليد يتقلّص، صلد، وحشيّ، بدويّ، عبريّ. الهشاشة تضيع والرؤية تلتبس وأحاول أن أهدئها وتشرب من القدح وتولول وتطلب من الخادمة أن تخرج.

أشعل سيجارة لها ولي وندخن متربّعين. أمّ وليد تشهق الدخان كله وصوت ديمس روسيس يرتفع وتقول لي مرّة أخرى: مصيبة وتضرب رأسها وتنغرز أصابعها في شعرها الفاحم والطويل والمخيف مثل شعر

(1) الخطار: الضيوف في اللهجة العراقيّة.
(2) القنفة: أريكة.

أمل الجبوريّ وأشعر أني أمام ربّة من ربّات طيّ وخزاعة وتميم ومعدّ. وأتوسّلها مرّة ثانية أن تهدأ. وأطلب فنجان قهوة لي ولها وبسرعة تشرب من قدح الماء وتبدأ بالارتخاء والاستناد إلى القنفة. وأقول: ما الذي حدث؟ أقسم عليك بسيد مالك.

الفصل الثامن

صرير، بقبقة، ابتلاع، صوت حجر يسقط في مياه ثقيلة، والأصابع ترتعش وأمّ وليد تتكئ وأنا أضطرم. أعصابي متوتّرة، الحشيش في الخارج أخضر يتآكل والسماء بطعم العفن والسيد الرئيس، والسيد الرئيس عندما كان نائبًا يتفجّر من خلال الإذاعة والتلفزيون وعيون حمراء محدّقة في السماء والله يبتعد ويسحب أحيائه.

الدموع تسيل وأنا مقرفص أمام أمّ وليد. السيجارة بين أصابعي، الرماد ينتثر على الأرض وملابسنا، وعلى وجوهنا الهاطلة مثل ديس[1] كبير. ديس بكبر السماء يرضعنا المرارة والعبث والموسيقى من آلة السنطور البابلية لكن الأوتار مقطعة. إذن لنسمع الثغاء والغطيط والحشرجة والبعران تنطلق في السماء طائرة، مثل الأجنحة الجهنميّة للعفاريت التكريتيّة. لكنّها تطير، تحلق، ترفرف، وعندما تحطّ على القمر، ينشق وتخرج منه مواكب الجانّ والحشرجة ورجال الأمن والصريف.

(1) ديس: ثدي.

أمّ وليد تنخر وأتوسّلها أن تحكي. تولول وتضع رأسها بشعره الأسود المبعثر بالعاصفة بين يديها وتقول لي: قتلته، قتلته. أنا الآن هاربة!! ويُغمى عليها. وتُفتح باب غرفة الخطار وتندفع الخادمة بتوحُّش وصرخات وتسكب العطور والأطياب والماء على وجه أمّ وليد وتتململ وأقول بتوتر عصبيّ، قتلتِ مَن؟ أرجوك جاوبيني.

وتولول أمّ وليد وتنظر في عيني مباشرة، تنظر إلى وجهي كلّه وإلى البؤبؤ تحديدًا والرموش والريح عندما تكتسح كومة من الشوك، وأتذكّر أنّي مثل الشوك ساعة يشتعل تحت موقد، بتكتكة، بهسيس، باشتهاء داخليّ، متهيّبًا من خروج الزبد من فم أمّ وليد. اقترب مثل باخرة عتيقة وأمسح فمها بالكلينكس وأخفض صوت المسجل وعرقنا ينزّ.

تتكلّم أمّ وليد وتقول: عدتُ قبل قليل، كنتُ في في بيت سبعاوي[1] وتضرب رأسها، وهناك قضمته، قضمته مثلما تُقضم السناجب قطعة من الجوز، عضضته مثلما تعض الكلاب زوجاً من الأرانب في بريّة فارّين. أرجوك ساعدني، ساعدني لخاطر العزير. نعم، بحقّ العزير ساعدني، أريد مكاناً للاختباء سيجيئون الآن. ماهذا الصوت؟ إنّه صوت سيارات الرئاسة، الرئاسة يا للمصيبة!! سيأتون، سأجلس على البُطل. سأعذَّب أكثر ممّا أُعذّب الآن، إنّي أموت، أنتحر، يجب أن أنتحر. أين يمكن للواحد أن يختبئ في بلد فيه 18 مليون مخبر. وأحاول تهدئتها وأقول إني لم أفهم شيئًا، أرجوك، احكي لي من البداية، وتنظر في وجهي مثل مجنون يُسلم إلى مستشفى الأمراض العقلية، النظرات نفسها، التوسل ذاته، عين الهاجس الداخلي عندما يقبل الإنسان على الانتحار.

تقول: اتّصل بي سبعاوي يوم أمس وطلب مني أن أذهب إلى بيته

(1) سبعاوي: الأخ غير الشقيق لصدّام حسين.

كالعادة، وعندما وصلت أدخلوني مباشرة إلى غرفته، وجدته هناك، يا روح الله!! كان في حالة انهيار نفسيّ ومعنويّ، وعندما شاهدني هجم عليّ بتوحُّش وجردني من ملابسي واغتصبني أمام الخادم، كنت أصرخ، أصرخ بهمجيّة وهو يضحك. ثم مدّدني على الأرض ورفع ساقي ودفع سبطانة بندقيته في المهبل. كان متوحّشًا، همجيًّا ومضطربًا وقال لي إنّه يشعر اليوم بإلوهيّته، يشعر أنه إله حقيقيّ، وكان يبكي ويدفع بالسبطانة في عضوي بقوة ويصرخ بألم ويبكي ويقول لماذا؟ لماذا أخذ وطبان منّي وزارة الداخليّة؟ سأنتقم منهم كلّهم بحقّ مزراحي وشمو وعبد السطيع.

كان عبارة عن قنبلة، قنبلة تفجرت في حياتي. وأحاول أن أتحرك تحته، أن أخرج السبطانة من الحياء، ويصرخ ويشدّ الشّعر الذي نسيت أن أنتفه ويعظه ويتشمّمه ويأتي بإطلاقات البنادق ويدفعها أيضا ثم ينحني ويمشي على أربع ويطلب منّي أن أسوطه بالكيبل وعندما أمتنع، يضحك ويشقّ ملابسه ويأمرني أن أزحف أنا أيضًا على أربع، ويضربني بالكيبل ويلكمني ويخمش وجهي ويمسك بشعري ويجعله مِقودي ويصرخ وهو يجلس على ظهري ويعوي مثل كلب متوحّش بريّ، مثل إنسان غابة.

كنت أبكي، أبكي بحرقة وبوجع والسوط بيده والضربات تنهال على ظهري وهو يصرخ: لماذا؟ لماذا أخذوا منّي الوزارة؟ وعندما تمدّد على الأرض منهكًا من النكاح والسوائل البيضاء تسيح من فمه تقدّمت إليه وهو في شبه غيبوبة مفاجئة وقضمتُ عضوه. وعاط إلى السماء،، إلى الجوبة، إلى السّدة وهربت بسرعة وجئت إلى هنا. أرجوك، أرجوك دبّرني، ما الذي علي فعله؟ ويداهمني شعور بالإغماء بقوة. أمّ وليد أمامي مثل جرو يتجهّز للخنق. يبكي الجرو وأبكي أنا أيضًا وأولول وأصرخ قائلًا: لماذا؟ لماذا؟ والزبد يملأ زوايا فم أمّ وليد، وأشعر أنّي أنهار فعلًا وخدر مفاجئ يداهمني ويبدأ باللسان ويندلق على نصف جسمي وأقع إلى القنفة. العالم مضطرب

وهلع، العالم يدور أمامي وسقف الغرفة ينفلق والأرض تُخْرِج قوم يأجوج ومأجوج وأسمع آلاف الأصوات، حمير تنهق وتعربد وترفس وأتوقع أنه في أي لحظة تقتحم الشرطة السريّة والحرس الرئاسيّ والمخابرات والانضباط العسكريّ الأبواب وأساق إلى الهاوية، الهاوية ومكائن الثرم الهائلة في الشعبة الخامسة[1] وأصرخ فيما يدفع بي بعد تعذيب مهول إلى فتحة المثرمة البشريّة وأخرج من الجهة الأخرى على شكل خراء وإلى نهر دجلة وأنثر مثل الحلّاج، مثل الحلّاج يصرخ في البريّة ودروب بغداد وفي باب الخليفة والسياف جاهز والسيف حاضر والحبال معدّة والخليفة مع قحبته، والخيزران وزبيدة ترفرفان بروحيهما فوقي.

هراء، هراء وأبكي وأشعل سيجارة من الأخرى، وأمّ وليد تقضم أظافرها وتنظر في وجهي. وأكرر صراخي الخفيّ وتقول أمّ وليد إنّه يجب أن يموت. يا للجحيم!! لكنّه لا يموت، لا يموت. دمّر حياتي، حطّمها، وتتناول سيجارة سومر مُحسن من العلبة وتقول: لا توجد امرأة في العالم تقبل أن تتحوّل إلى عاهرة، حوّلوني إلى قحبة، هذا الكلب دمّر حياتي. وتمجّ بشراهة وتمسك السيجارة بين أصابعها وتعصرها وأصابعها صفراء. النيكوتين غزير والقطران ينقط من فمها، قطران أسود وحياة سوداء مثل ليل بغداد، مثل شوارع مدينة الثورة، مثل رائحة تنفلت من المجارير المهدّمة عند تقاطع المربّعة مع شارع الرشيد. إني أصرخ كما عبد الستار ناصر[2] في كتاب سيّدنا الخليفة ومرّة واحدة إلى الأبد. تقول أمّ وليد إنّها مستعدّة للموت، تريد أن تموت إنّها تنتظره الآن، لا، لا تريد أن تهرب. أرجوك لا تساعدني، لا تجعلني أهرب، وتضحك بشكل غريب، بصوت

(1) الشعبة الخامسة: قسم في مديريّة الاستخبارات العسكريّة.

(2) عبد الستار ناصر. موسى كريدي. جليل القيسي. خضير عبد الامير، منير عبد الامير محمد خضير، كتّاب من العراق.

مهزوز. تضحك ليس بقهقهة ولكن مثل الذئب عندما يرتعش، مثل وسادة مليئة بالبق تتفجّر في وجهك وتغزوك ملايين ملايين الحشرات والصراصر وأنت مبنج[1] وتنظر إلى السقف وتبتسم. إنّها تضحك بقوة شيطانيّة وأنظر إليها من الأسفل. أمّ وليد تقف مثل طريدة محاصرة. أنا أهتزّ كسعفة، كشعرة. الاهتزاز يغمرني وإيّاها. نحن نبحر في مركب واحد يعوم على بحيرة ليس من النفط، بل من الغائط. في زمن وطبان وسبعاوي وآل المجيد[2] وآل لا أعرف منو والأستاذ عدي الأخرق، ثم بعدئذٍ الأستاذ قصي و... آه يا ربِّ، كدت أنسى، علي حسن المجيد وحسين كامل المجيد وصدام كامل المجيد وبرزان وحجي حميد والأخرق الآخر الذي لا أتذكّر اسمه، وليس مهمًا طبعًا، المهم أنّه من آل وهذا وحده يعني دماً مقدساً ونسباً سماوياً وسراق ونميمة وابتذال وعتوّ وبداوة وحيوانيّة وعتاوي[3] مثل عتاوي الشاعر الكبير نصيف الناصري الموضوعة على سطح بيتهم وأمه المسكينة تبكي لأنّه أصبح شاعرًا وليس كاتبًا مثل شوقي كريم.

***

تقول الخادمة: وضعوا فوّهة المسدس في المهبل.

تقول هي: إنّه لوطيٌّ وشاذٌّ، لا تصدّقوه.

تقول الخادمة: العصافير على الشجرة والشجرة تموء مثل القطط.

تقول هي: الشبح، الشبح، إنّه يدخل من النافذة وأقلام الحمرة والزينة موضوعة في الحمام. أرجوك حطّمها، هشّمها بسرعة أو ضعها في المراحيض واسحب السيفون. لكن السيفون عاطل، فماذا نفعل بحقّ الجحيم؟ أقول: لكن المرحاض يشبه وجه وطبان. هل أنت متأكدة؟ تقول

(1) مبنج: مخدر.

(2) آل المجيد: عائلة صدام حسين المباشرة وهي جزء من عشيرة البو ناصر التي تضمّ عوائل أخرى.

(3) العتاوي: ذكور القطط.

هي: ارمها، ارمها بسرعة لأنّ القطط بدأت والكلاب تضاجع الحيطان والبيت بلا مدفأة ولا يوجد كلينكس، لا في السوق ولا في الشورجة.

يقول وطبان: سأغتصبها بأيّ عضو غير عضويّ. سأغتصبها بعضو صوماليّ كبير جدًّا. ويسقط على وجهه وتتلقّفه الأرض وبشكل جحيميّ.

تقول هي: دماغه عبارة عن نكح ولواط وجلغ.

تقول الخادمة: أنا أبكي من أجلها.

يقول دهام: سأرسلها إلى الحماية من أجل اغتصابها.

تقول هي: انتقمت منه.

يقول برزان: سأرسلها إلى سبعاوي مدير الأمن. إنه أكبر مناضل نياك في الأمّة العربيّة.

تقول هي والخادمة: إنّنا نرتجف، نرتجف ونحن نقف في طابور، وسبعاوي يدور علينا ويمسك فروجنا ويختار الفرج الأكبر.

يقول سبعاوي: إنّها تكذب، تكذب، لا تصدقوها. لأنّي خصيّ، خصيّ.

نقول نحن: لخاطر سيد نور!! أو ما زال السيد الرئيس بأربعة أقانيم؟

تقول هي: وحوش في المراحيض والسيد الرئيس بأقانيمه الأربعة فوق والسماء تحت والعاصفة قادمة وأنا اختض. هل هو حُلم؟ هل هي رؤيا؟

أقول أنا: لابأس، لابأس، كل شيء سينتهي نحو الأفضل. أقترب منها وأوشوّش في أذنها وأقول: نهاية كل شيء أصبحت أمامي. اليوم أو غدًا و... وستصعدين المشنقة وينتهي كل شيء بسرعة خاطفة. أفتح فمي وأضحك مثل مجنون. السقف في الأسفل، على الجانب، إلى اليمين، إلى اليسار. يا سيد نور!! أقترب من وجهها ثانية وأهمس: احكي لنا الآن. احكي لنا كيف عرفت كل هذه الوحوش لخاطر لكحاب!! لمَ اقتربت منهم أصلًا.

***

النافذة مغلقة، الستائر مزاحة، البرد يتمدّد، القمر يعوي، الكلاب السائبة تركض في الشوارع. تنظر أمّ وليد في وجهي بخبل وأنا أحدّق في بؤبؤ العين. كنت أقف مهزورًا، مرتعشًا، موبؤًا بالألم. كانت تتحدّث بارتعشات مفصليّة مثل باب قديم يئنّ متى ما دفعته العاصفة والأنين فظيع، قوي، مجلجل... كانت تتحدّث وكأنّما تحت تأثير دواء الأولزابين.

بدأ كل شيء هكذا، تقول بمرارة وسيجارة سومر تصدير بين أصابعها. زوجي ضابط برتبة لواء في الجيش العراقيّ. اتصلت بالسيد النائب – صدام حسين – لرؤيته وشرح قضيّة زوجي الذي أصيب بكآبة وذهان من الطور الحاد. حُدّد لي موعد وذهبت، قابلت السيد النائب وشربت معه قدح عصير برتقال وكان هو يشرب قهوة عربية والقرآن بجانبه. عندما خرجت قابلني برزان وجلست معه وكان يجلس وراء مكتبه بين فناجين القهوة والقرآن على الجانب الأيسر. وأخذ مني كل المعلومات التي يحتاجونها، عنواني، عملي، وتفاصيل محرجة عن وضعنا العائلي وتفاصيل أخرى عن زوجي ودقائق حياته العسكريّة والجنسيّة. وصلت البيت في العاشرة مساءً بعد أن أوصلتني سيارة من الرئاسة. قلت لهم لا أحتاج إلى توصيلة، لكن برزان أصرّ.

صعدت السيارة وأنا أشعر أنّ أشياء تتأكلني. وصلت البيت وإحساس القلق يسيطر عليّ. في صباح اليوم التالي وعند خروجي من البيت، شاهدت سيارة فولكسفاجن (ركة)[1] متوقّفة قرب عمود الكهرباء المقابل لبيتنا، ركبت سيارة الدائرة ووصلت مكان عملي في مدينة الحبانيّة حيث كنت أعمل هناك كمهندسة. طيلة اليوم لم يحدث شيء. عند خروجي من العمل شاهدت سيارة الفولكسفاجن نفسها متوقفة وخلف المقود شخص ببدلة وربطة عنق.

(1) ركة: سلحفاة وهي كناية عن سيارة فولكساجن البيتل التي كان الأمن العراقيّ يستخدمها وقتذاك مع سيارت فيات جل ال.

في اليوم التالي وعند خروجي من العمل شاهدت سيارة الفولكسفاجن مرة أخرى، لكن بلونٍ مختلف، حاولت أن أشرح الموضوع لزوجي، لكن حالة الاكتئاب منعته من الفهم. كنت خائفة فعلًا، خائفة من أن يتطوّرالموضوع إلى أشياء لا أعرفها. قالت لي صديقتي: طبيعي أن تحدث مراقبة. لكنّ الموضوع لا يُوحي بمراقبة عاديّة. سيارة الفولكسفاجن تتبعني أينما ذهبت، إلى السوق، إلى زياراتي العائليّة، إلى المكتبة، إلى العمل، إلى المعارض التشكيليّة، إلى نقابة المهندسين، يا إلهي!! حتّى عندما كنت أذهب إلى مطعم بصحبة الأطفال، كانت السيارة تلاحقني وينزل ذلك المعتوه، ضابط أو رجل أمن، ويجلس أمامي. أو قريبًا منّي. كانوا يتصرّفون بطريقة يريدونني فيها أن أعرف أنّني ملاحقة وأنني أمام أنظارهم. بدأت أشعر بالقلق، لا ليس القلق، إنّه شعور مغاير واستثنائي. شعور غريب بالإحاطة والاستلاب، شعور بالغرق في وحول وأمطار وعواصف وافتأتات ولعيان نفس. اتصلت بصديقتي مرة أخرى وشرحت لها الموضوع. اقترحت أن أقابل وطبان وأشرح له الأمر. ارتبكت، داهمني إحساس خانق بالاكتئاب. في النهاية اتصلت وحُدِّد لي موعد. لا يمكن أن أشرح لك حقيقة الشعور الذي اجتاحني وأنا أتجهّز للّقاء. في اليوم الموعود كنت أمسك قلم أحمر الشفاه باضطراب ومتردّدة. المرأة تستطيع أن تشمّ الأشياء، تحسّها وإن كانت بعيدة. فكرت بعدم الذهاب. لا، ليس عدم الذهاب وإنّما شيء آخر. أن أذهب دون إجراء المقابلة. سأتسكع في الباب الشرقيّ، سأعبر جسر الجمهوريّة وأدخل مكتبة النهضة وأشم عطر الورق والأحلام والعصافير والضفادع. لكنّهم سينتظروني حتمًا، سيتصلون. عليك أن تفكر بمرارة، بقوة، بقسوة، بسرعة، بتكرار هزليّ لأحلام سوداء. سيتّصلون بإلحاح مزعج وسأكون أمام زوجي وهو يعاني من الاكتئاب وأنا أمامه شبه مخبلوة وجاحدة. سأصاب بقشعريرة عند كل رنة تلفون وصوت متحشّرج قوي يتسرّب إليك موقظًا فيك إبهامًا عامًّا وظلامًا مسترسلًا. لا، لم

أستطع أن أبقى في البيت، ولا مقاومة شعور ضرب الموعد. وضعت أحمر الشفاه، لبست أي قطعة صادفتني في طريقي وأحذيتي مبعثرة وهناك شيء ما يرتعد في قلبي.

وصلت في الموعد، أدخلوني غرفًا كثيرة وعندما فتحت أمامي بوابة كبيرة مرصعة بأحجار وخشب وآيات قرآنيّة، وجدت وطبان كخليفة أمامي ومثل كائن مبعد عن الملكوت، مثل قادم من مجرَّات بعيدة. اقتربت منه فتشمّمت عطرًا غريبًا. عطرًا لا يحسّه الرجال، وتفهمه النساء.

جلست ولا تفصلنا إلا طاولة شاي كنت أشعر بتوحّد، بصلابة، بتفتت. حكيت بإسهاب، ببعثرة، بهروب الحروف ونشّافة الريق وصعوبة البلع وانتهاء المفردات واضطراب الوصف. كنت أقول له: إنّي لا أنام، لا أستطيع أن أغسل أطفالي وأزيل وساخة العالم. لأنّي هززت، ثم أخذ يسألني عن زوجي، عن سلوكه في البيت، عن بكائه كلّ يوم. كان يقترب، أشعر به، أشعر رائحة الذئب تحيطني وبرغم أنّه كان بعيدًا وتفصلني عنه طاولة كبيرة وورود وزنابق وياس مزهر وأوراق ودفاتر وقرآن بغلاف أخضر، إلا أنّه كان يلمسني، يلحسني وأنفاسه تحيطني وأحسّ بملابسه تحتكّ بي وتهيلني وتبعث بي إلى المجهول.

***

صراخ في أنبوب يشبه حياتنا المرميّة أمام الكلاب وساعة التوقيت تشير عقاربها إلى النهاية. استظلالات تحت عيون شهوة شجر الزيتون والسرو في تكعيبات الرسوم وهي تتدفّق إلى حياتنا، تحيلها إلى الهباء المنثور. أقف أمامها ككاهن أقدّم صلوات الترانيم الحسيّة وأقبّل العهد والصندوق والظلال المنعكسة على الحائط بلهيب شموع الموقد الغريب في الغابة المنعزلة لحياتنا المهدّدة. أقف تائهًا مع الصراخ المكدود لوجهها وجزيّئات حياتها مثل أوراق القمارعلى منضدة تشريح تعفناتنا

ونحن نسحب قارب النجاة سويّة إلى الهاوية، أنا في البحث الاستقصائيّ عن منابع الموت والأمومة الضائعة في النسيان، وهي في شربها من الينبوع المحرم حيث تحرسه الآلهات بسيوف مضيئة.

تقول لي: إني أموت، أرجوك لنتحدّث عن شيء آخر. السماء والطارق مثلا. لا، لا أستطيع الحديث عن موضوع آخر، إنّي أهذي، هل تلاحظ شعري. إنّه مجنون في مركب حزين، مخبول جنسيّ في أوقات المضاجعات الليلة خلف مناضد دُسّت الحكم. مطاردات متّصلة، سيارات أمن في كلّ مكان. سياراتهم باللّون الأزرق والأبيض، سيارات فيات جي ال وفولكسفاجن، سيارات طويلة وقصيرة وذات أجناب وأرقام تنتهي ب ٨٨٨ او إدخال جمركيّ مؤقت. إنّي أهتزّ وأنا أحدثك. هل تلاحظ؟ أرجوك لاحظ، مهم جدًّا أن تصدقني لأنّي أرتجف وقشعريرة مريرة تمرّ على قلبي. هل تشّك في قلبي؟ لا تشك في قلب امرأة أبدًا، هل تعرف هذا؟

كنت أرتعش مع الاستدعاءات المتكرّرة، التلفونات تستمرّ في الرنين. يجب أن ينتهي كل هذا. زوجي يبكي، يبكي الليل متصلًا بالنهار. إنّه بحاجة إلى علاج في فرنسا، لكنّهم لا يمنحونه ذلك. هو بحاجة إلى أدوية كثيرة. هاجس القلق ينثرُني على وجه القمر. إنّي مثل التراب، ملوّثة بالانحطاط. أستسلم أمام الصراخ والعويل والاستدعاءات الأمنيّة. أشاهده كلّ يوم في الأحلام والكوابيس، الكوابيس تطاردني حتّى في اللحظات الأكثر حميميّة عندما أذهب إلى الحمّام لأمارس العادة السريّة. صرت مجنونة. إنّي أختضّ دائمًا كمصابة بمرض الباركنسون. في الدائرة كانت هناك استدعاءات أيضًا. ضابط الأمن يتّصل بي غالبًا طالبًا استفسارات عن عائلتي. مختار المحلّة يأتي كل يوم إلى بيتنا يسأل. أعضاء الفرقة الحزبيّة استدعوا أبنائي، الاستخبارات العسكريّة تستدعي زوجي أيضًا. فكرتُ في الهروب من العراق، لكن إلى أين؟ لا أحد يمنح العراقيّ لجوءًا.

ليس مهمًّا تفو. الهجرة مؤلمة في كل الاحوال. العراقيّون لم يعتادوا الهجرة. نحن نُخلق لنموت هنا، في مقبرة وادي السلام أو المعظم أو الشيخ معروف أو أبو غريب أو حتّى في الطهارة. المهمّ إنّها طهارة عراقيّة. أردتُ الحصول على جواز سفر، لكنّي وجدت أنه ممنوع عليّ. أضحك، نعم، كنت أضحك مردّدة في نفسي، تفو عليكم. هربت من بغداد وتوجّهت إلى أختي في الموصل، علمتّ أنهم اقتحموا بيتنا في بغداد. أخذوا زوجي وأولادي. تحقيقات مستمرّة. ضربوهم بالكيبلات، جلدوهم، يا ربّ كيف يستطيعون جلد زوجي؟!! وهو مريض جدًّا وضابط؟! كان يرتجف، المسكين، يهزل. حصلوا منه على عنواني في الموصل بكلّ سهولة. زوجي يتّصل وهو يبكي، لم أفهم منه شيئًا، ولا من الأولاد. كنّا نعيش نوعًا عاليًا من الخراب اللفظيّ والفهميّ. الأمخاخ تتوقّف عن معالجة الكلمات، الكلمات ذاتها تهرب، تهرب مثل اللقالق، هل شاهدت اللقالق؟ يوجد إحداهما فوق منارة جامع الشورجة مقابل مطعم كباب لا أتذكّر اسمه. لمَ هذا الضياع والعصافير تغرق واللقالق ترحل والأوساخ تتجمّع بين أسناننا. كلّهم لا يعرفون، لا يعلمون سبب كل هذه الفوضى، أولادي، الزوج، أختي أيضًا والعائلة كلّها. يتصوّرون أنّ لديّ مشكلةً في الدائرة مع إنذارات متتالية بقطع الراتب وإنذارات بالفصل. كنت محاطة، محاطة من كل الاتجاهات. بهم، فيهم، منهم، عليهم. لا تستطيع تصوّر الارتعاش الذي عشت فيه. لا. لا أتستطيع تصوُّر مقدار الارتباك الذي دمّر حياتي.

عندما أوصلتني أختي إلى محطّة القطار، لفّني إحساسٌ غريب وأنا أحمل حقيبتي وصغار الوطن يبيعون العلكة وحب شمس قمر، إحساس أنّي لم أعد أنا، أسير بلخبطات روحي. فكرتُ وقتها لمَ أنا أنثى أصلًا؟ هل سأنتقم؟ ثم أغرق في جموع المسافرين، الأكتاف تدفعني وأنا أهرول وأختي تنظر من بعيد. لم أجرؤ على النظر إليها. كانت تتبخّر، تضيع،

تتلاشى. يا إلهي!! تتلاشى، كيف يحدث هذا؟ لم أتصوّر أنها ستختفي من أمامي كوردة من الضباب أو غيمة صغيرة. لكن هذا ما حصل. مسكينة لم تعرف أنّها لن تراني، وأنا أيضًا، وأضيع في الجموع والجنود والبيريات الحمراء والأسلحة والصواريخ وسجائر بغداد وغازي والأحذية وأفواه باردة وعربات بيع الشلغم واللبلبي و..

أرجع إلى بغداد مهزومة بسبب التهديدات لزوجي. شاهدت عيون الأولاد دامية. زوجي يشرب كل يوم قنينة عرق. لا يتكلّم معي، إنّهم ينظرون لي نظرة قاسية.. أتّصل بوطبان وأحدّد له موعدًا.. هناك مت.

هل قرأت قصة عبد الستار ناصر لا تسرق الوردة رجاءً أو شيء من هذا القبيل؟ لا، لا، ليست تلك الرواية، أقصد هذه بالتأكيد. هل قرأت صيادون في شارع ضيق لجبرا إبراهيم جبرا، لا، ليس هذا أيضًا. لا يمكن أن تحدث الأشياء بهذه الصورة. إنّه عفن. أعرف أني أهذي لكن الهذيان شيء رائع. أرجوك اسمعني إنّي أشبّه بخرير جدول، سقط الخرير وبقي الجدول مستمرًّا في الهذيان، باقٍ مثل الآلهة البابليّة عندما تتوسّد العالم والحضارات والأيام الأولى من هذا الكون. هل قرأت شعر عروة بن الورد أو تأويلات ابن عربيّ؟ أو حتّى السمؤال؟ يا ربّ، لا يمكن أن أكون واحدة من كل هذا، إنّي أهذي وهذياني كبير جدًّا، أكبر من مدينة اليرموك والكرادة وسبع أبكار. أنا لست أكثر من قحبة رئاسية، عاهرة. لا تهمني التسميات، التسميّات دائمًا واحدة ولا تعني المفردات إلا ما تعنيه. إني أمخر في يباب، اليمّ، البحر العربيّ، البدويّ بغير مجاذيف لأنّ المجاذيف كُسرت نهائيًّا وما عليك إلا السباحة، السباحة في أجاج وسلطعونات البحر فوق شفتيك والشمس الأعرابيّة على الضفاف وأباريق العاهرات في القصور الرئاسية تسير في مواكب موت تموز. إنّه السيّد المقدّس وأنا أيضًا. إنّي مقدّسة بالقداسة ذاتها، بالقداسة المتكوّنة من أُجاج الملح والبخور والمر

والمعابد الأنثوية لعبادة الإسقاطات اللَّزِجة على وجوه المتعبِّدين.

تتحدث أمّ وليد بخبال وشعر منثور وعيون سال منها الكمد والبخور والكحل، وفيما الإلهات الوثنيّة ترفع كؤوس المجد لنيرون في جبال الألب والكاربات والالزاس والأولمب تسير الجبال والعهن المنفوش ينسحل والسحايا ترتعش والبط البريّ يطير وطائر ألواق واق يعبر السّموات الكونيّة متّجهًا إلى السلطان السماويّ. فيما أنا أنظر لوجهها وهو يتغيّر كل لحظة سيميائيّة، تدخل الخادمة وتقول: تلفون من الأستاذ. تلفون؟ ماذا، تلفون؟ خرائي عليهم، أبول عليهم، قولي لهم إنني غير موجودة. لم أصل بعدُ. حشرات، مطال، صون، زرجين. إنّهم يأتون، ما الذي أفعله؟ وأنا أريد أن أكمل. وتصرخ وترتعب الخادمة وتتبوّل وينزل البول من دشداشتها الأنكورة وتهرب بسرعة.

أنظر إلى أمّ وليد وأشعر أنّي مهدّد أيضًا. مهدّد بشكل جِدّي، بشكل حيوانيّ، بشكل توراتيّ. يصرخ في داخلي صوت الحيوان البريّ. إنّهم قادمون بالبساط السحريّ والصحون الطائرة والجنّ على طائرات بوينغ يهزجون بأجهزة اللاسلكيّ والهوكي توكي ويتمايلون وأنا أتمايل معهم والبخور كثير والمحرقات تحرق، وترتعش أمّ وليد وتتمسّك بقدمي وتقول: أرجوك جد لي مكانا اختبئ فيه. وأقول لها: أين، أين؟ أرجوك أكملي، أكملي اجتحافاتك كلّها.

تقول أمّ وليد متشبّثة بأصابعي مع صوت طبول كرديّة وزرنات والمبقون على التلال الصفراء واليعاسيب تزحف. كانوا ينقلوني من بيت إلى بيت، من قصر الى آخر. مشاعة حيوانيّة وإرهاصات وصراخ وبكاء، هناك كان صريف الأسنان. يعيرني وطبان - بعد أن يغتصبني بأن يلطّخ الكمرة بالفلفل الحارّ وأنا أصرخ وأتوسّل وهو يضحك - إلى برزان ومنه إلى دهام - ويجب أن أعترف ان هذا الأقنوم كان الأكثر إنسانيّة؛ إذ لم يطلب منّي إلّا

أن..... وأن أنهق مثل الحمار وهو يقول يا حمارتي الجميلة، يا حمارتي الحبيبة. ثم من دهام إلى سبعاوي وسبعاوي يغتصبني مثل الأقانيم الأخرى ويحمل علي مثلما تحمل الجيوش على بعضها البعض الآخر ويمددني ويلحس الاجتراء الجنسيّ لي ويغنّي وملايين العصافير ترفّ وبعد أن يغتصبني يدفع سبطانة مسدسه ويخرجه ثم يلحسه ويريد أن يدخل قدمه فيه ويحاول ولا يتّسع، ثم يتشمّمه ويبول في دشداشته وعقاله منكس ثم يعيرني إلى أخيه الآخر - الأقنوم الآخر - ويصعد هذا على ظهري ويجلدني ويغنّي ويحاول أن يدفع سبطانة رشاشته في حيائي أيضًا ويقول لي غنّي لي الغناء البدويّ وهو ممدد تحتي بملابسه العسكريّة ثم ينهض ويأتي بمعجون الحلاقة ويعصره ويتأمّل ويضحك وينفتح فوه ويستمرّ في الضحك حتى تنتفخ أوداجه وبطنه ويكبر ويتمدّد في الغرفة ويصبح مثل بالون ويرتفع عن الأرض وهو يضحك ويستمرّ في الانتفاخ ويقول هذه بركات وعندما يغدو بكبر الغرفة والغرفة لاتتّسع له ينفجر وتتناثر أشلاؤه وتجمع ويعود مرّة أخرى الأقنوم الثالث أو الرابع، وبعد أن ينتهي من اغتصابي يضربني بالسوط ويتناول رشاشه ويفتح النار على السقف والنوافذ ويتناثر الزجاج وهو يصرخ بهستريا: إلى جهنّم، إلى جهنّم علي حسن المجيد وصدّام كامل المجيد وحسين كامل المجيد ويتناثر اللُّعاب من فمه والمخاط من فتحة أنفه، ويقول كيف يستطيع علي حسن المجيد الحصول على أعلى المناصب وأنا لا؟ كيف تزوّج حسين كامل من ابنة الرئيس؟ سأقتلهم كلهم، سأبيدهم واحدًا بعد الآخر، سأصفّهم إلى الجدار وأرميهم بملايين الطلقات والقذائف. سأستعمل البرنو والكلاشنكوف والموزر وقاذفات اللّهب وال أر بي جي ٧ و١٠ و١٥. لكن هل هناك أر بي جي ١٥ لطفًا؟ لا أدري، يجب على هؤلاء المناويك المسقوف[1] أن

(1) المسقوف: يقصد بهم الروس.

يصنعوا لنا قاذفات أر بي جي ٩٠ و١٠٠ وألف وعشرة آلاف. أريد المزيد من القذائف، أريد المزيد من الرصاص، أريد أن أشبع، أن أرتوي. سأبول على الجميع. السيد الرئيس لا يحبّني، لا يحبّني، وينهار ويبكي، يبكي بحرقة، مثل خنفساء تصعد إلى سارية عَلم، مثل حيوان هلاميّ يقف وسط الأحراش ودموعه مثل ماء نار ويبحلق فيّ، يبحلق بعين متورّمة وقرمزيّة وحمراء وأرجوانيّة وتصيبه حالة من الخبال والشيزوفرينيا والإنهام بالذات والدنس والطهرانيّة والاضطهاد والهربس والزهريّ والطنين والسفلس والسيلان والإيدز ويهرش مثل قرد ويجلس إلى الأرض والساق ممدّة والالتهابات المفصليّة تتفجّر من ركبته وتضربه حالة من الانجعاص الذهنيّ ويتصوّر نفسه أنه الرئيس، الملك، الجوكر. إني أكرههم كلهم، يصرخ ذهنيًّا ومخلبه وفمه تسيل منهما السوائل الجنسيّة ويقول: أكره حسين كامل وصدام كامل وعدنان خيرالله وعلي حسن المجيد.... أرشد ياسين وصباح ميرزا. أريد أن أبول على صباح، من صباح هذا؟ إنه ليس من أهل العوجة، إنه عجميّ قذر، حشرة، ابن متعة، قرادة، أريد أن أنكحه بعضوٍ صوماليّ كبير. ويمددني على الأرض مرة أخرى ويحشو دُبري بالورود ثم يقول لي أخري في الغرفة ويعوي قائلا: خراء، كلهم خراء وأنا خراء أيضًا. منذ أن كنت طفلًا خراء، منذ أن رفضت حمارة آلبو خطاب مضاجعتي. حتّى الحمير لا تقبل بي. أعرف هذا، أعرف ويسير على أربعة والغائط المليء بالورود على الأرض، ويطلب منّي أن أرتدي كل لحظة لباسًا جديدًا ويأخذ كلّ لباس ويتنشقه ويمارس أمامي العادة السريّة ويجمع الحيمن في قدح ثم يسكبه على حيائي والمتبقي يرسم به دوائر ومثلثات على الحائط ويقول صارخًا. بسبب هذا المثلث فصلوني من المدرسة، فصلوني لأنّي حمار. لكنّي أمتلك أكبر أير في العوجة، وهذا يكفي، يكفي، وينظر لعضوه ويداعبه كمن يمسك سبحة ويضحك، ينفلت والصراخ

مستمرّ والشيزفرينيا في أقصى حالاتها وفي النهاية عندما ينهار وتسيل من عضوه خيوط الدم، ينفلق صارخًا وطالبًا من الحرس أن يتدخّل. ويدخل الجنود بهلع ويقيدوني ويبدأ هو بغرز الإبر في جسمي وتكشف عن ذراعها وتريني إبر المخدرات.

هكذا كنت أدور في دائرة الوجع، ودائرة العجز والإفراط الجنسيّ والإستاتيكيّا وتتفجر القنابل الكهروحراريّة وملايين الفولتات تنفلق في الهواء والهوس البهيميّ يموج في الغرفة وأنا مقيدة، يُبعث بي إلى برزان ثم أعود إلى سبعاوي مرّة أخرى – لأنّ برزان أكتفى جنسيًّا من بقرة استوردت له خصيصًا من أستراليا – ويسوطني هذا بسوط كبير، سوط بأطرافه حلقات معدنيّة ويضربني والحرس يتدخّل ويُصاب بموجة من العتوِّ والإستاتيكيّا والإحباط ويطردني عندما تنتابه موجة الكآبة الثلاثيّة الأقطاب ويتكوّرعلى نفسه مثل حيّة والمسدس في يده ويأخذني الجنود إلى الخارج فيما وجهه يتحوّل إلى نعال أبو الإصبع مع دشداشته الطويلة وحزامه الذي يشدّ بطنه ممزّق والكلاشنكوف إلى يمينه. في تلك الشناعة الميكافيليّة والانشطار الذهنيّ والتقيؤ قررتُ أن أعضّه، أن أتحوّل إلى كلب وأعض الجميع. أرجوك، ارحمني، اهرب بي. سنهرب معًا، لدي أموال كافية لأن نعيش في عالم آخر، يا للجحيم!! أين نهرب، إلى أين؟ إلى الشمال إلى الجنوب، ستسلمنا العسس، إلى القمر، ستسلمنا المخلوقات الفضائيّة. أين يمكن لنا أن نذهب وكل العراق رجال أمن ومخبرين وعَسَس ورفاق حزبيّين، حتّى المصريين عملوا منهم مخبرين والسودانيّين والمغاربة وكل أبناء العروبة. سنسلم إلى الأمن والغرف السريّة والفلقات والقناني الفارغة والجلوس عليها والكراسي الدوّارة والأنشوطات الجديدة والمعلّقات المروحيّة وقلع الأظافر واجتثاث الألسن والكهرباء النابضة ووشم الجبهة وقطع الآذان وجدع الأنوف. هنا، هناك لا مفرّ.

الفصل التاسع

جالسون في غرفة حجريّة، المصباح متدلٍّ من السقف - بواير - هزيل، رصاصي، تكوّم عليه الذباب. نجلس بانتظار غودو، بانتظار التآكل الحديديّ لأفواهنا وعقولنا. كلّنا تأمّلات مضطربة. نزو ليلي على الأحاسيس المتهالكة والمرهقة بالنسيان العارم لإنسانيتنا وخوفنا الفيزيقيّ.

نجلس وكلنا اهتزازات روحيّة، أنا وأمي، في الهزيع الأخير لسماوات مضطربة حيث أقشعر وأقول: إني خائف، الخيانة. الكلمة الميثالوجيّة لإبحار الزناة في العالم. أقول مرة أخرى: سيخوننا، صدقيني. أمي تنظر إلى وجهي. أقول: حتّى متى؟ إلى المنتهى الدراقي لسماوات مكشرة وأسنان رجال الأمن تنهشنا. الرفيق الكردي تأخر والفئران، الفئران يا أمي تعبث في الأمكنة المهلوسة بالابتراد والبول. أشعر بقشعريرة تجتاحني أقول يجب أن نغادر الآن، ليس بعد الآن. الهلوسة تطاردني مثل ذئب وأنا كلب معوّج الذنب، لكنّي ارتحل تآسيًا مع الوقت والزمن الحاضر والمستقبل مخبول. تقول أمي: أنا أيضًا بدأت أشعر بالخوف، لكن إلى أين نذهب؟

أقول: على الأقلّ لا نمنحه فرصة تسليمنا. تقول: أنا غير قادرة على اتّخاذ قرار.

أقول: يجب أن نتخذ القرار سريعًا، وسريعًا جدًّا.

سنرحل الآن. تقول أمّي: أشمّ رائحة غريبة، وأنت؟ وأنا أيضًا، أتنفّس هواءً معربدًا ورائحة غريبة تسيل وتتشتّت في فضاء الغرفة ويستولي علينا القلق والحاسة السادسة تعمل بعجالة فريدة، نحسّ بالتآكل كأن أجسادنا تهرشنا ونهرشها مثل قردة ونشعر باحتكاك أجسادنا وتيبسها والرائحة، الرائحة يا أمّي تكبر وتكبر. أحمل كيس الأغراض وأُنْهض أمي ونتّجه إلى الباب. تأتي أم الرفيق الكرديّ مهرولة. تشبه عجائز الغجر بالشعر المجدول والممدود إلى الأكتاف والملابس الغجريّة البرّاقة. نقول لها: إنّا راحلون، راحلون. سلمي لنا على ابنك وتبربر بكرديّة لا نفهمها، ولا نفهمها، لكنّنا نفهم حركات العيون والأصابع وارتعاشات الأنوف الهندو – إيرانيّة المعقوفة. نصل باب البيت وتتشبث أم الرفيق بأذيالنا، تمسك حاجياتنا البسيطة وأشعر بالكره في عينيها وأرى اللؤم عميقًا ومتجذرًا، لا، لا، شكرًا. نقول لها وتصرّ الأم وتتصلّب كفّها ونقول لها بصوت مرتفع إننا سنذهب إلى السوق، إلى البازار حجيّة، ونترك الأغراض ونهرب قِلقين ونصعد سيارة أجرة ونطلب أن نصل إلى كراج كركوك. وفيما نبتعد، نشاهد الرفيق الكرديّ مع مجموعة من الرجال يتكوّمون على بوابة المنزل والأم تؤشّر بذراعها، يمينًا وشمالًا. شرقًا وغربًا والرجال يستنطقونها. والأسلحة مخبوءة في السترات وفي أحزمة البناطيل والعيون صقريّة والإيماءات متالية والعبث فيزيقيّ والدرّاقات السماويّة تتساقط مثل المطر على الأفواه. لكنّنا نبتعد، نبتعد مغايرين الطبيعة الإستاتكيّة للعقل الواهن من الضراعات بالنجاة والوصول إلى بغداد سالمين غير مصدِّقين.

***

حتّى الآن كان الله معنا. ننظر إلى السماء بارتعاش. نستغرب أنّ الشرطة السريّة لم تلاحقنا ونحن في كراج كركوك. جنون العقل الجمعيّ يمارس اضطهاده الجمعيّ أيضًا. الشيطان يضحك على العالم يبخر، يصلّي، يحرق محرقاته ومسمناته. العاصفة قويّة، نتيه في الريح وفي تيّارات الهواء. كل المسمّيات تيه لأنّنا نصل إلى بغداد من كركوك وفي أرواحنا اختلاجات. تقول أمي: هل سنجد إبراهيم في مذخر الأدويّة؟

نسير في بغداد مثل لصوص، نحاول تجنب جنود الانضباط العسكريّ، وفيما نحن نسير تلمح أمي زوجها يقود سيارة بيجو بنّية اللون. تقول أمي: الحقه، ألحقه وأهمّ بالركض مخبولًا، أركض بعجالة ظاهرة ويأس والسيارة تحتشد في شارع السعدون وأنا على الرصيف وأقفز إلى الشارع وأقترب من السيارة ويتحرّك زوجها بسرعة وأستطيع أن أصل النافذة الجانبيّة وأضرب بقبضتي ويرتبك هو ويحاول أن يخرج من الزحام المروريّ وتتحرّك السيارة باضطراب. المنبّهات تصيبُني بالصّمم والفوضى وأصرخ قائلًا: أمّي تريد أن تحدّثك. وأحسّ بصوتي يضيع في الارتباك والبعثرة ويقفز شرطي مرور إلى الشارع ويلحق بي وأركض خلف السيارة محاولًا التمسّك بصندوقها الخلفيّ لكنّي أسقط وأرتمي في الشارع ومنبهات السيارات تعلو بشكل خرافيّ ويترجّل البعض وينظرون إلى جسمي وجراحي ويبتعد الزوج، يبتعد ويتلاشى وأصرخ من على الرصيف بشكل يائس محاولًا إيصال صوتي: يا كلب، يا.....

ويداهمني شعورٌ الخيبة ورائحة ثاني أوكسيد الكربون المنطلق من عوادم السيارات تخنقني وأسعل وأتكوّم على الرصيف. بعد دقائق تصل أمّي لاهثة إلى حيث اتّكئ ومعها قدح ماء وتمسح وجهي، وأتلمّس ارتعاشاتها وكيونونتها المستلبة وتنهضني قائلة: يجب أن نبتعد، أنهض بسرعة، وأنهض ونكمل سيرنا بعجالة ونتوجّه إلى المذخر. حيث نجد

إبراهيم غارقًا بين علب الأدوية والمراهم ورائحة التنتريوك تغلف المكان. يشاهدنا ويهرع باتجاهنا غير مصدّق ويقول: ما الذي حدث؟ ولا نتكلّم وفي لحظة الارتباك والتبعثُر والأحاسيس بالانضغاط النفسيّ تشعر أمي بدوار ويصفرّ وجهُها وتنهار أمامنا. نرفعها عن الأرض ونجعلها تقف قليلًا ونرتقي الدّرج ثم نصل الغرفة - الزاغور - في العلية وأُمدّد أمي على حشية بعيون مُمزّقة ووصال شجِيّ وروح غريبة في الأماكن الطاردة للجنس البشريّ. وتشعر أمّي أنّها تتناءى عنّا وترحل في غيبوبة قصيرة، ثم هلوسة وانثيالات وبزوغ للنور الأوحد مستلقيًا على الأزبال والجرذان المتكتّلة فوق حشية زمن مغادر إلى الفضاء الأضيق. ترتفع حرارتها فجأة ويبدأ هذيان الأكاسيد والزنك والنحاس والأرض مثل الحديد القاتل بشفراته الحادّة والمناجل المتوحّشة لحصاد اختباءاتنا. متوحّشون في علية يمثل المطر بين أيدينا وبين العيون الأكثر تعبًا في العالم، بالهلوسة في ضياع الأحلام والتقرّبات من الشمس الزائلة إلى اغترابات أوجاعنا. وتبحلق أمّي في الفراغ وأمسد فرو روحينا الأليمة وهي تتمخّض في جناب الغرفة والعلية الموحشة المفتوحة على الفضاءات واللّوعة. يقول إبراهيم إنّه سيحاول الحصول على جواز سفر يمنيّ عبر صديق يمنيّ يعمل موظّفًا بالسفارة اليمنيّة. يذهب الآن ونموت انتظارًا.

كم كنا بائسين يا قديم الأيّام ونحن في الانتظار. تهذي أمّي من خلال تسلّلات الحمى وتقول: أريد أن أرى أولادي أرجوك، وتمس أصابعي وأحس بالحرارة العميقة والناشبة أوجاعها في الجسد الواهن. تنظر بعمق في عيني وتقول أريد أن أراهم لأنّي أموت الآن، أموت في الوحشة القدريّة، أرجوك. وتحاول أن تعصر أصابعي وأنظر لوجهها ببهوت. أقول: كيف لي أن أذهب وأتركك؟ تقول: لا تنشغل بي، أريد أن أرى الأطفال، لا تنتظر أكثر.

أترك أمي وأقف في باب العلية. الظلمة كثيفة، الظلمة ناشبة مناجلها القاسية في وجوهنا المتكتّلة على ذاتها. بالبريق اللاهب والضوء النازف من شمعة صغيرة وأمّي على الحشية وذراعها فوق جبهتها تنظر إلى سقف مجهول في عالم خرب تمامًا والمطر يهطل. أهبط إلى المذخر ومنه أخرج إلى العالم. أصوات السيارات منفرة. أحسّ أنّي أواجه كمًّا هائلًا من البشاعة الذهنيّة حيث يختلط أمامي كل شيء، ضجيج السيارات مع ضجيج رنات مجهولة لأجراس غائبة مع بربرة البشر ووحشيتهم وأنا أسير صلدًا، صمدًا، ثقيلًا. ويسير الموت مع الأرجل في الشوارع وتخترقني سهام ملغزة بالهميم، ملغزة بالثرثرة والهمهمات والصراخ والعويل والفرح والموت والاكتئاب وأمراض الانهيار النفسيّ والهجرات الخارجيّة والداخليّة وغزوات منتصف الليل. أشك بإنسانيّتي مع المطر الذي لا ينقطع، أطوف في طوفانات بغداد والمجارير المسدودة والكلاب المتراكضة بين الأجمات المتيبسة في شارع المشجر. وأنا أسير في الشوارع منتهبًا، شاعرًا بانفجار رأسي، أعاني من الصراخ في دماغي، وأمسك جمجمتي وأسير، أحسّ بالموت يترصّدُني وأنا أبحث بعيني عن أيّة واسطة نقل. أصعد باصات وسيّارات نقل صغيرة وأحشر بين الأكتاف والرطوبة وروائح الملابس والأنوف وتقترب منّي الوجوه العجفاء وتلقي نظرة علي وأنا أقف مثل طائر الببغاء أغرد وأحكي ملايين القصص قائلًا: كلكم خراء، كلكم عبارة عن بيانو كبير تضع الأصابع عليه نوتات الحزب ورجال الجيش الشعبيّ وثرثرات القائد الضرورة.

أصل حي العامل حيثُ يقيم أهل زوج أمي وبعد قرع قوي على الباب يخرج أبو الزوج بلباس داخليّ طويل وفانيلة – تعلاقة – أكلها الجَرَب ويحملق في وجهي ويقول: ماذا تريد يا ابن الكلب، وللي، اذهب من هنا وإلا أخبرت الأمن عنك أقول له: اسمع أيّها الخراء، أين الأولاد؟ أمّهم

تريد رؤيتهم. يقول لي مُزمجرًا: أيّ أولاد يا ابن العاهرة؟ لا أولاد لدينا. اذهب وإلّا سأخرج لك – القامة – واقطع عيرك يا حقيرُ، يا شيوعيّ، ويبدأ بالصُّراخ: يا ناس هذا شيوعيّ. وأشعر بالثولان وأهرب ويبدأ هو يرجمني بالحجارة والفانيلة قصيرة وتخرج بطنه العجفاء ووجه يشبه وجه بقرة تُساق إلى الذبح. وأثناء الركض وفيما أنا أبتعد أتعثّر بشيء ما، شيء من الفوضى في الشوارع حيث الحفريات ومياه الأمطار والبعرور والوحول والضفادع وأطمس في بركة صغيرة ويتلوّث حذائي والجوارب والبنطلون بالطّين، فيما الماعز البشريّ يتراكض في جوقات من الفرح ليصل دكاكين بيع البيض والدجاج المستورد.

***

أصل الباب الشرقيّ. أجد إبراهيم جالسًا يدخّن وأمّي ممددة على الحشية وتسعل. أجلس أنا أيضًا بلا كلام. يقول إبراهيم: بشرى رائعة، حصلت على جواز السفر اليمنيّ، ستسافر إلى اليمن الديمقراطيّ، ستساعدها الحكومة اليمنيّة هناك. ترفع أمّي رأسها قليلًا وتقول: أين الأولاد؟ وأقول لها متحيّرًا: طردني جدهم. تقول لي: تكذب، يجب أن أرى الأطفال، يجب أن أراهم الآن، الآن، هل حدث لهم سوء؟ أقول لها: لا، أبدًا. تقول: هل اعتقلهم الأمن. أقول: لا. تقول لي: لمَ لم تجلبهم إذن؟ أقول: جدُّهم هدّدني. تقول: تكذب، تكذب. يقول إبراهيم: بقيت لدينا مشكلة مبلغ الحجز. أقول: ما الذي سنفعله؟ تقول أمي: هل جلبت الأولاد؟ يقول قريبنا: لدي بعض النقود لكنّنا نحتاج إلى المزيد. أقول: دبّرها أنت بمعرفتِك. تقول أمّي: لخاطر الكاظم هل وضعت غطاء كافيًا على جسمي؟ أقول: وضعت كلّ الأغطيّة. تقول: لمَ أقشعر إذن؟ يقول السبع: مَن هذا الزاغور يتدفّق الهواء، ويشير إلى فتحة في أعلى الحائط. أقول: أغلقه، أغلقه. يقول قريبنا: نحتاج إلى ورق مقوّى – كارتون أدوية

– تقول أمّي: العاصفة بدأت وأشعر بأمعائي تتقلّص. يقول قريبنا: يجب تدبير المبلغ بسرعة. أقول: هل ستستطيع السير. تقول أمّي: شاهدتهم وهم يقطعون يد طفل نائم في مهده ويلقم ثدي أمّه المقطوع أيضًا في كركوك. يقول إبراهيم: لا أقدر، لا أقدر، المبلغ الذي نحتاجه كبير. تقول أمّي: الغيمة بعيدة والضباب يهاجر والمطر بعيد. أقول: لمَ كل هذا ياربِّ؟ يقول قريبي: فكّر معي، فكّر بسرعة. تقول أمّي: والعواء شديد والبرد همجيّ وأنا أركض في الممرّات والمرضى يزحفون على بطونهم والأطباء يهربون. يقول قريبي: هل فكرت؟ هل فكرت؟ أقول: كواويد بعثيّة!! يجب الحصول أولًا على كارتون لتغطية الفتحة. يقول قريبنا: سأذهب إلى المخزن وأبحث. تقول أمّي: سليمة تسير وحيدة في الشوارع المدمّاة والجنود بأحذيتهم الطويلة يدوسّون القمر. أقول: بدل الكارتون والمقوّى احصل لنا على إبرة لخفض الحرارة. يقول إبراهيم: لكنّي لا أعرف زرق الإبر. أقول: يجب أن تفعلها، يجب أن تفعلها. تقول أمّي: على نهر الفرات جلسنا وبكينا. أقول أنا: أما زلت تتذكّرين سليمة؟ هل تتذكرينها حقًّا؟ تقول أمّي: هناك بكينا، بكينا بصدق أقول لإبراهيم: هلمّ نزرع زرعًا ونوقظ الطيور الغافية والمراسيم التي تذوب على مجاري الأنهار. تقول أمّي: يَا رَبُّ مَا أَكْثَرَ مُضَايِقِيَّ. كَثِيرُونَ قَائِمُونَ عَلَيَّ. كانت سليمة تقول له: لماذا تجمع حولك الشقاوات وأصحاب السوابق والمجرمين والعتاة. أقول أنا: أما زلت تتذكرين؟ يقول قريبنا: سأذهب لتدبير الإبرة.

أقول: أسرع. تقول أمّي: ونركض في الشوارع المدمّاة مع الاحتشاد، أنا وهي والأنهار البابليّة تهدر والوحوش البريّة تلوغ في الدماء. أقول أنا: أسرع، أسرع. يقول قريبنا: لا أدري، أين وضعت الإبرة. أوقد الجولة البرد هنا قارس. أنحني وأشعل عود الثقاب وتتوهّج الغرفة فجأة وأوقد الجولة ورائحة الكيروسين حادّة وأشعر بالمرارة وتقول أمّي: بِصَوْتِي إِلَى الرَّبِّ

أَصْرُخُ فَيُجِيبُنِي مِنْ جَبَلِ قُدْسِهِ. سِلاَهْ [1]. أقول أنا: أسرع أرجوك، النمور البابليّة تفتح أفواهها والتماسيح تقترب والبرد يمزّق الأمكنة والرؤى والأحلام تفرّ هاربة. يقول إبراهيم ويده ترتجف ويدفع الإبرة عميقًا في زجاجة الدّواء: ربّاه. ربّاه، لمَ شبقتني. تقول أمّي: وكنت أركض من دار إلى دار وأصرخ، لاتقتلوا الأطفال. لكنّهم كانوا يقتلون ويرمون الجثث في الشوارع بعد تمزيقها عام ١٩٥٩. أقول للسبع: يجب أن تنتهي بسرعة، الحرارة أصبحت لا تُطاق. تقول أمّي: قُمْ يَا رَبُّ، خَلِّصْنِي يَا إِلَهِي. لأَنَّكَ ضَرَبْتَ كُلَّ أَعْدَائِي عَلَى الْفَكِّ. هَشَّمْتَ أَسْنَانَ الأَشْرَارِ. ترتعش يد السبع وأنا انظر إليها ويقترب، يقترب، أنا أيضا اقترب، الضوء ضعيف ونار الجولة اخضر بألسنة حمراء داكنة وصخام، صخام في كل مكان، هباب في عيوننا وفي فتحات أنوفنا. تقول أمي: لأَنَّهُ لَيْسَ فِي أَفْوَاهِهِمْ صِدْقٌ. جَوْفُهُمْ هُوَّةٌ. حَلْقُهُمْ قَبْرٌ مَفْتُوحٌ. أَلْسِنَتُهُمْ صَقَلُوهَا، الرفيق رقم واحد يقيم الحفلات في الامباسي وأنا أموت لبيع الجريدة والحصول على التبرعات للحزب. نزرق الإبرة في العضلة وتنظر أمي في عيوننا بارتياع وانفلات وملوك وأمراء وحروب وتهجمات وعواصف وخيل وصحراء وجبال وأنهار تموت ورجال كي جي بي وعصافير تهرب وغربان تنعق وبحار تنشف. يقول: لا أستطيع تدبير المبلغ كله. حاول أنت. أقول: من أين؟ يقول: من الرفاق. يمكن أن تتّصل برفاقها. تقول أمّي: لم تمارسون الدعارة مع الرفيقات وتدفعون الرفاق إلى أن يكونوا جواسيس. أقول: الآن؟ يقول: نعم. أقول واذا اعتذروا؟ . تقول أمّي: تَعِبْتُ فِي تَنَهُّدِي. أُعَوِّمُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ سَرِيرِي بِدُمُوعِي، أُذَوِّبُ فِرَاشِي. يقول قريبنا: لا، لا أعتقد. حالتهم الماديّة جيّدة. أقول: من باب الاحتياط، دبّر أنت أيضًا بعض المال. يقول: سأحاول. أقول: هل اذهب الآن؟ يقول: الآن، ليس لدينا وقت إضافي،

(1) مزامير – الكتاب المقدّس

يجب أن تتم الأمور بسرعة. أقول: سأخرج للعاصفة وسأطوف في المطر. يقول لي: أرجوك، أسرع؛ لأنّ العاصفة على الأبواب.

أخرج صباح اليوم التالي من الغرفة وأتوجّه إلى الكاظميّة، إلى الدكتور سميسم، إلى الهباء الكليّ. العيون هاربة ومكلّلة بالعمى، العصافير مبلّلة على أعمدة الشوارع والأسلاك المعدنيّة معلّقة ومتدليّة، البشر يذوبون في زحام الوقت والأيام والتسوق. الباعة يعرضون بضاعتهم وأنا مثل مهبول، مصاب بالرجة العقليّة. أصل العيادة، أقترب من طاولة الممرض وأطلب مقابلة الدكتور فورًا. يقول الممرض: لا، أستطيع. أقول. نعم ويقول بصراخ: لا، اخرج، اخرج. يظهر الطبيب من غرفته، يعرفني وأصرخ فيما الممرض يدفعني خارجا: دكتور، دكتور، الحقني، أمي بحاجة إلى نقود للسفر. يقول الدكتور: لا أعرفه، لا أعرفه، استدعي الشرطة والامن. يقول الممرض: دعني اقتله وذراعه تطوقني ورأسي ينفلت من الذراع وكأنّي مشنوق، وكأنّي عبارة عن فم وأسنان تخرج من الفم والأذرع تطوّحني. الممرض مع المرضى والهباب والصراخ، يبصقون علي. ها ها ها، أحدهم مدّ يده، مدّ يده وأشاهد كفًّا تضربني، تصفعني وأشعر بالطنين وعشرات الأصوات وصوت يصرخ قائلًا: اخرجوا ابن الكلب، أمّه كلبة أيضًا، كلّهم كلاب، كلاب وأولاد قحبة، إلى جهنّم، تعيش ثورة ١٧ – ٣٠ تموز المجيدة.

أقف عند الناصية، ناصية شارع باب الحوائج الوحشيّ في الكاظميّة مواجهًا محلات الذهب والملابس النسائيّة الداخليّة. هل هناك من هواء؟ لأنّي أشعر بالاختناق، بهسيس يشبه هسيس نجوم بعيدة، إنّه اعتوار، اختراط سيوف توحشيّ، ميتافيزيقيّ، إنّه نعالٌ في وجهك. نعالٌ أسود من صنع مصنع الحسنين في باب الشام. لكنّي لا أشعر بالهسيس بل بالإحجام.

أتركُ الكاظميّة والدكتور سميسم وأتوجّه إلى ضمير الصيدليّ. أصليّ

في عمق غريب لروحي ولحمي وهو يزحف بين الأشواك. أقول إنّه الأمل الأخير. أمل مشفوع بالاضطرابات الذهنيّة وبؤسي الناتج عن تيه المكان والزمان والضياع بين الطرقات. حتّى عندما أسير واهنًا وأصعد الباصات متوجّهًا إلى الباب الشرقيّ، إلى صيدليّة ضمير، يغزوني الأمل الجاف، الأمل الممطر، الأمل الغارب في ثنيّات غيوم المطر الذي تغرق بغداد فيه.

وأنا أهبط وأصعد الباصات، مثل الليوثان في العهد القديم، أشعر بحلقي الجاف. أشعر بفمي وشفتي تتيبسان. أشعربالانتهاب، أشعر برائحة الحيوانات البريّة والغابات ونزيف المطر على ثيابي، أشعر فجأة بانهمار الفكرة التي تقول لي، أنظر إلى ابتآسك. لتُقيّض نفسك بوجلها. كيف تبكي أمّك من أجل أطفالها ولا تبكيك. يجب أن تضحك. أضحك، كركر. تناول الثريد والأكارع من قصعتك، بأصابعك ثم أبصق في تلك القصعة.

أصل الباب الشرقيّ بعد رحلة كوسترات[1] متعبة. خانس، رافعًا يدي إلى السماء قائلًا: أنا المستريب، نواصي القلوص. الأشجار التي فارقتها في الزمن الخابئ، سدرة المنتهى. أستريب وإنا أسير مصطدمًا بالأكتاف واللّعنات في شارع السعدون، بعيدًا إلى الضوء الأخير لذوبان الشمس الشحيح. شمسنا المفتتة كالأحجار، المحاطة بالتنهدات والنذور والعَلكْ والبُطْلّة[2] والقطط والشطار والعيارين في أسواق البزازين والسراجين والوراقين، بلعنات وسباب وكفر، تُسحل إلى ما وراء جسور بغداد العظيمة عندما تتعامد الإشعاعات الكونيّة على زوايا جامع الوزير ومقام الكلّيني وقبر ابن خُرْدَاذْبُه، حيث نكفر بكل سلاطين حياتنا والمُلك المعضوض وما روته زبيدة في أخدار النساء في مشهد الضراط على العالم وعلى الفلسفات عندما لا تجتمع العصافير في بغداد، ولا تشرب الأيائل من

(1) الكوسترات: جمع كوستر، وهو اسم باص نقل، صغير.
(2) البُطْلّة والعلك: وصفة لفك السحر

الغدران، ولا ينام البلبل في بساتين إبراهيم البهرزي[1] هاجسًا من كلّ هذا الاهتزاز وأنا أسمع لعنا تدردم[2] به جدّتي. كفر الجميع وليس جدّتي فقط. كفر صاحب دكان البايسكلات ولاعب الريسس والخبازة وزوجها وسائق الباص وبائع السمسميّة والجابي وبائع السمك والجايجي والجرخجيّ والحفاة والغوغاء وباعة اليانصيب. جرائد ورقيّة مُمزّقة في المزابل، الحانات والخمارات والقحاب وولدان منتصف الليل. البهجة الملعونة ملتوتة بعجيج خفي مُتراكم في عمق أعماقنا. إذ نشعر باللّذة المقدّسة ونحن نبصق بوجه الآلهة البابليّة، كبيرها وصغيرها، أيًّا كان اسمه، صفاته، تشنُّجاته، رغباته الساديّة في التعذيب المُتوحّش على المخلوقات الهزيلة والمركونة إلى متكأ الأفكار الغريبة والجنون. نحن عظام هزيلة تسير، أجساد متّخمة بالغصّات والمعجزات والإشكالات الروحيّة والأخلاقيّة. نجلس إلى أي مكان في العالم ونشعل البخور ونتسور بالعَلك ونبكي اللذة المستنبطة التي لا مفكّ منها للعراقيّ كعرق المستكي، هي النزيف المتوهج والنحيب، وربّما الشجن مع التذكارات المعلّقة فوق الأشجار البهيميّة والصحراء وضفاف نخيل الأنهار السماويّة.

ومن شارع السعدون أتّجه إلى ضمير وفي دماغي تثور الحكايات. أنا مع جدّتي في انبهار الأمطار والضوء الشديد العتمة والليل – الكثيف البياض – وغربتي عن العالم بسبب هجران أمّي لي في مواسيم الليل والنهار والطفولة المؤلمة والانتظارات القاتلة كل يوم خميس لمشهد وجهك الضائع بعد ذلك في انشغالات حياتك العائليّة الجديدة بعيدًا عن التذكارات المؤلمة بشخص نفسي باعتباري فزّاعة الماضي من حياتك.

وأصل صيدلية ضمير وأشعر بنوع من أنَفة توسّله. أقف أمام الصيدليّة

(1) إبراهيم البهرزيّ: شاعر عراقيّ
(2) تدردم: تبربر

وأحاول التقدم. الخطو مرير، يا لهذه الحرب!! استند إلى جدار الصيدلية مدخنًا وبِبُتم شديد، يُتم أنّي أبحث عن المال اللازم لأمّي وسترحل عندئذٍ عبر الغيوم، أفكر أن أعود لأقول لها: إنّ الصيدليّ لم يمنحني أموالًا، أريد أن أكذب لكن شيئًا متعلّقا بمهجتي يصرّ على دخول الصيدليّة وأُقاد مرغمًا مستغلقًا. أريد أن تبقى أمّي بين ثنايا شهواتي الدنيئة وأن أشعر بوجودها قربي حتّى وإن كان ذلك بعيدًا في السجون. أدفع جسمي إلى الصيدليّة وتصفعني رائحة الأدوية. أقف كمشوّه، متلبثأ أمام ضمير المبهور والمرتبك. يسحبني هذا بسرعة إلى غرفة خلفيّة تُسمى غرفة التحضير ويقول لي: ما الذي جاء بك ثانية، ويكفر وأقول له: إنّها بحاجة إلى مبلغ من المال. ويقول لي: لماذا؟ أقول له: حصلت على جواز سفر وهي بحاجة لمبلغ من المال فينبري قائلا: خراء، وما الذي ستستفاده من السفر غير التّشرّد، ويمسح – رواويله – عن فمه ويمدّ يده ويعطيني مبلغًا من المال بشرط إعادته مع الفوائد. وفيما أنا أتوجّه للخروج يقول لي: قل لها إنّها مجنونة. أغلب القيادات سافرت بموافقة الدولة إلى خارج العراق وبعض الكوادر سلّمت نفسها لأجهزة الأمن ومنحوا مبالغ ماليّة ممتازة وسيارات بيجو جديدة. قل لها إنّها ستدمّر حياتها، ستدمّركم، اللعنة على الحزب.

أترك غرفة التحضير وضمير يهذر ويمجّ من بطل عرق ويصرخ عندما أصل الباب أن لا أنسى الفوائد.

***

غيوم الشناعات تهبط هبوطًا الى الأرض. السماء لا تزال تمطر وحشة ودهشة. أشعر بأشياء داخلي تتفاعل لكنّي لا أتعرّفها. إنّها مزيج ملوّث من رغبة مخيفة تشاكسني فأبدو مهلوسًا وكائنًا إلى الخراب.

أصل المذخر وأجد حرارة أمّي مرتفعة مرّة أخرى. يقول إبراهيم وهو

يجلس قربها ويحاول تغطيتها بأردية ومعطف عتيق، إنه زرقها إبرة ثانية.

أقول: ستموت؟ يقول: لا.

تقول أمي: يجب.

يقول: هل جئت بالنقود؟

أقول: ما الذي يجب؟

يقول إبراهيم: إنها تهذي.

تقول أمي: أموت دونهم.

أقول: لمَ تفكرين بهم؟

يقول إبراهيم: يجب أن نجهز كل شيء، يجب أن تسافر بسرعة قبل أن يعرف

زوجها مكانها.

أقول: متى؟

يقول: غدا سأشتري التذكرة.

تبكي أمّي بحرقة وتطير غربان الحقول وتنبح آلاف الكلاب وآلاف الخفافيش والجرذان والقمل. ألمس وجهها، أشعر بشيء غريب داخلي يقترب، يتمدّد، أخاف منه، أخاف فيه، هل هي النبوءة لما أريد؟ إنها تبكي بحدة وتكرهني، أعرف، تكرهني عندما أنظر لأطفالها في حضنها. تكرهني عندما أضرب ابنها. تكرهني عندما تسافر مع أطفالها إلى وارشو والبلاجات دوني، تكرهني عندما يطلقون عليها أم... من دون اسمي وأنا الطفل البكر. تكرهني عندما تشتري لزوجها صناديق البيرة وعشرات أزواج الأحذية وأنا بقندرة واحدة لكل المواسم. شعور النكرة قاتل وأنا أشاهدهم يستلبون الشيء الوحيد الذي لي من هذا العالم، أمّي. فلتخرج إذن كل الدناءات من أظافري ومن قلبي السكاكين والقامات.

***

أنهض وانسرح خارج الغرفة وأشعل سيجارتي وأشهق دخانها بقوة. أنظر إلى الساعة وأحسّ مع القلق أنّ أمّي تراقبني. هل تهجس الشكوك وتداريها بغفوة العقل؟ أفكّر ويرتعش فمي رعشات صفيرة حينما أشُكّ في لحظة المعرفة التي ستصل إليها الآن أو لاحقًا. يصل إبراهيم ويقول: حصلت على التذكرة، السفر غدا صباحا. يلفني فجأة مالايفهم هوعبارة عن خرابيط ذهنيّة وسجالات وضحكات ونظرات مستريبة وعواء وانفلات في دائرة الوسخ والوضاعة. أشعل سيجارة أخرى وأشهق بخبال ثم أدخل الغرفة وأتأمّل أمّي التي تنهض رأسها قليلًا وتقول هل كل شيء بخير؟ ألتفت وأقول: نعم. وأشكّ أنّها تعرف غريزيًّا نوع السماء التي تظللني فأشعر بهمهمة ذهنيّة.

نتحرك في الغرفة بسرعة. نحاول أن نضع بعض قطع الملابس في حقيبة لتبدو ملآنة ولا تثير الشكوك. أصابع أمّي تبحث في حفر الذاكرة عن مشتهيّات ذهنيّة لتسوّل فكرة الحنين إلى الأطفال. تقول: الأصوات تنهكني، هل تسمع؟ لا أتكلّم، أعمل بسرعة ككلب يلعق عظمًا، أضع الملابس، أغلق الحقيبة وأزرّر ثوب أمّي جيّدا. أصابعي تفوح برائحة نتنة. ساعات فقط وربما دقائق أو خطوات، ستنقلنا السيارة إلى المطار وهناك سأواجه المحنة الكبيرة. أتساءل، هل أستطيع أن أقبّل الخدّ وأنهي كل شيء؟

يجب أن لا أنكر أنّي أنا أمام شيء يمكن أن يطلق عليه المواجهة أو العدم، وأفكر بالعدم متسائلًا هل هو الفراغ أم الموت أم الولادة القصريّة، أمّ طفل يفارق الحياة ساعة ولادته؟ أشتهيت موتي في الدقائق المتبقيّة، الساعات وعقارب الوقت تتسلّق رقبتي وتصرّعلى خنقي. يجب أن أهرب، ليس مهمًّا المكان بل الوقت. لم أشعر بسلطة الوقت إلا الآن.

أتنفّسه، يمسك بخناقي، أحسّ بالشدّ العصبيّ على رقبتي. الجميع أخطأ أحاول أن أمسّ رقبتي لأحرّرها، فقط أريد الفرار من ضجيج الأصوات حولي. تقول أمّي والطامّة الكبرى على وشْك الوقوع. الأحلام تُؤلمُني جدًّا، أشاهد ملايين العصافير تهرب وحدها وأنا أجلس تحت سماء منفتحة وكيبلات معلّقة في الهواء ثم أتقدم ببطء نحو حفرة واقف على الشفير، أقف والعيون تنظر في لا مكان. لكنّي أجدُك على الضّفة الأخرى وكأنّي أنادي قائلة: الأطفال، الأطفال. لكن لم تقل أين أنت بعد ذلك؟ .. أنشغل بترتيب الحقيبة والتدخين والفكرة الغريبة التي تنمو في عقلي.

ننزل إلى الشارع فجرًا والبرد قارص. لا شمس هناك، الغيم كثيف، دخان متواصل ينبعث من عوادم سيارات هاربة نحو التفاهة ومن بسطات شواء التّكة. العمارات في الباب الشرقيّ تتحلّل. لا باب شرقيّ في الباب الشرقيّ. فقط ساحة الطيران وخزّان المياه الذي يشبه إله متعجرف. تمثال السعدون يقف وسط البلادة والكسل والانضباطيّة[1] والجرخجيّة[2] مخاط جاف يلتصق على موقف باص 62 المتوقف وسائقه يعلس صمونة مع استكانة شاي بقوة التأمّل الصباحي والكفر. نحن لسنا في فجر بغداد، بل في رحلة استكشاف الذهن واضطراباته ووجوم يغيم على العيون المنهكة برائحة الكيروسين. تقول أمّي بتوتر، إنّها لا تحسّ بالبرد، بل بالضياع والخوف. إنّي أتأمّل حياة كافرة - حياتها - من دوني، بين المقتربات الذهنية وهي تتكافأ مع بوادر ذاكرة ممزقة. نعم، أشعر أن من ينكرني يكفر بالذّات الإلهيّة. هل جربت تمزيق الذاكرة؟ أحاول إشغال عقلي برؤية فجر الباب الشرقيّ، لكنّ اللعنات تنمو على وجهي مثل الطحلب البريّ،

-لماذا؟

(1) الانضباطيّة: الشرطة العسكريّة ومهمتها الرئيسة البحث عن الفارّين من الخدمة العسكريّة.
(2) الجرخجيّة: الحرّاس اللّيليُّون.

تنبثق في عقلي فكرة صغيرة لكنّها مخيفة، ثم تنزلق هذه الفكرة بين المخيخات والتواءات الفصوص الدماغيّة ومحاولاتي استكشاف المناطق الغريزيّة في العقل الدماغيّ ومواصفات الشعور أن جعلت الفكرة قيد التنفيذ. لكن الصباح بارد جدًّا وتمثال السعدون يتكسر من البرد ويعاد نثاره فوق بغداد. يا له من صباح منزوٍ إلى الحديقة الخلفيّة لحياتنا!! نحن نزرع أشواكًا في ممرّات حديقة الأمّة وتماثيل الثورات القديمة تهذي كَنَسر. أمسّ أصابع أمّي، أريد اختباءً. لكنّها تسحبها وتغمغم ساهمة في سماء غائمة: هل انتهى الحزب فعلًا؟ هل أفعلها؟ أقول في سرّ ذاتي. إنّي أحاول أن أجد المسوّغات العقليّة لتنفيذ الفكرة، لا أريدها أن تهاجر، أريدها قربي. نصعد سيارة الأجرة ويتنامى فيّ إحساس التوحش وأخبئ القُبلة في الضباب وأشعر أنّ هناك تماثلًا بين ما أفكر فيه ورغبة أخرى مدفونة في التاريخ. يسير يهوذا أمامي وهو يحمل لي شعلات النّار وأنا في قلعة المصائر التائهة.

هل جربت التشيُّؤ مثلي؟ أسير في المدرسة المتوسطة وسط الضحكات، وسط نظرة شموليّة عنك بأنك فقير جدًّا ويتيم وتمنح أمام عشرات الطلاب قميصًا أبيض. هواء، كراكيع، فسائل النخيل ترتعش عندما أنظر لجدّتي المشعّة وهي تحوقل في عين الطبيب ليقول لها وأنا مُمدّد على السدية' في تساقط الوعول البريّة على أجسادنا البلوريّة، أو نرتكض هلعًا، بأنّي مصاب بالشيزفرينيا، كيف داهمه هذا المرض وهو بهذا العمر الصغير؟ وتقول جدّتي، كل شيء بدأ حُلمًا، كان يحلم دائمًا أنّ أمّه تزوره ثم يبدأ الحديث معها وتقبيلها والنوم في حضنها والتماس المخدّة على أنّها الثدي، ثم تطوّر الامر وخرج من العالم وأصبح يعيش في عالم غريب لا يُوجد به إلّا هو وأمّه. ويهزّ الطبيب رأسه ويقول لماذا لا تجعليه يرى أمّه. وتقول هي: ليس الأمر بيدي، هل هناك من مجال للشفاء؟ ويهزّ الطبيب

رأسه نافيًا وتقول جدّتي: سآخذه إلى الكاظم إذن وأربطه هناك. وينظر الطبيب ساهمًا ويرجع لنا أجرة الفحص وتقودُني جدّتي من يدي ونعبر جسر الشهداء إلى الشواكة ثم من هناك إلى الكاظميّة، وفي حضرة الكاظم بين رصاص الدعاء ورعدات التوسّل والربط بالشبابيك في بهاء الأنس الأشهب، يجتاحك بَلَهُ الطفولة وقُبلات الزُّوّار وقراءات الملالي ورائحة الجواريب وأصابعك المشبوكة في وحدة الموجود الدينيّ. يا له من اضطراب!! ونزور قمبر علي أيضًا وتشعل جدّتي شموعًا وعندما نخرج من الضريح الأخضر أشعر أنّي بحاجة للتبوّل وتسوّر عليّ جدّتي عباءتها وأبول بارتعاشة الخصيّة المتكوّرة المتقلّصة. إنّي أهيم بالتضوّع والهلوسة وليلة القدر وتنكات دهن زبيدة وسينما الخيام وكبّة الكبّة والطبك والعيون الكهربائيّة، بعيدًا عن مطعم همبركر (أبو يونان). إني أمسك صورة أبي وأغرز فيها جطل[1] الطعام الفافون في هلوسة النفور والتقزّز والكره، لأنّ جدّتي غالبًا ماتقول: لن تكون مثله أبداً، كان رائعًا، جميلا - وأكره أبي وأبول على العالم الذي يكرهني مع حبّات كلاجة لوجع الاست والأسنان والظهر والبطن والمحالب والأسقربوط، والقولنج وحلاق يقلع ضرسًا بخيط اللّحاف في الجعيفر[2] ودهن شعر أخضر ومشك، يا له من نزوع شرير!! بنج، ضراط، فساء الحضارة في وجهي.

عشيّة سألني يوحنا اللاهوتيّ عن الخائن، فأبتسم وأقترب رويدا من القُبلة. عليك أن تتذكّر الشتاء ولحافك البارد وإصابتك بالمرض. لأن لا أصابع تمسد وجعك وقتذاك ولا غفوات لرؤوس لذيذة تنام على جوانبها وجوانحها. ما أحقرك في هذا العالم!! كنت أنتظرك، عشيّات كثيرة تحت المطر وبرد كانون ومراط ممزق وعيون متكاسلة ووهج ينطفئ، أنتظرك

(1) الجطل: شوكة الطعام
(2) الجعيفر: منطقة سكنيّة في بغداد

مثل طائر الكاو بعيدًا عن العش، قرب سكة الحديد التي تشطر اليرموك وأنا بانتهابي أنظر إلى الأفق وصوت قاطرة قادم من الضباب. كنت أنتظرك واضعًا الحجر الأبيض والحصى على سكّة القطار وتاليًا أحدّق في اللقالق تعبر سماء مبقعة مثل كلاب صيد في غابات مدفونة عميقًا في الذات.

أنظر إلى وجهك الآن حيث تستعدين للسفر والآذان تلتقط تردّدات غامضة بأن أمنعك. كنت أقول يا لهذا الصوت!! وأشنف الآذان. أترقّب صوت الصليل، البوح، البحّة، الحشرجة، صوت يشبه صوت دحيّة الكلبيّ وهو يوشوش في أذني، يقرأ علي زبور الفراق الكائن والذي سيكون. سأكون مبعدًا أبديًّا وتطلبين أنت من إبراهيم أن يهتمّ لك بالأولاد ويحاول بأيّ طريقة إرسالهم إلى حيث تكونين إمّا أنا الكلب ابن الكلب فأذهب إلى الجحيم.. نتوقّف أمام نقطة تفتيش قبل الدخول إلى المطار وتتقلّص أمي أمام الشرطيّ وتندفع عميقًا إلى المقعد الخلفيّ. داهمتني رغبة قويّة بأن أصرخ بوجه الشرطيّ قائلًا: امسكها، لا تدعها تهرب، أرجوك، ليست لديّ القدرة على إتمام هذا الأمر، أنجز المهمة أنت عنّي، إنّها هاربة وستهجر هذه الأرض، ألا تفهم؟ ستهرب منّي، ستهرب من أرض الخلّ والتمر والعرق والسادة والكشونجيّة والشآبيب والطهور والقلف والدماء والأقبية السريّة ودهاليز المتحف البغداديّ وليفة الحمام الخشنة والقامات والرّايات والتشابيه ومحل المقصّ الذهبيّ وعالم الأطفال عندما رفضت أن تشتري لي طائرة ملوّنة واشترتها لابنها، وتشبُّثي بشراء جوارب هيب هوب وتمرّغي على الأرض وصراخي ورفضها لإرادتي؛ لأنّها ببساطة جوارب بناتيّة ولم تفهم هي معنى تشبُّثي؟، ومدينة الألعاب حيث رفضت أيضًا أن تشتري لي لفّة من الباعة المتجوّلين وبكائي الهستيريّ والنّاس ينظرون إلى هذا الخِبل ثم استسلامها لإرادتي وبعد التهامي اللّفة أصاب بالزحار والإسهال والتحقيقات الجنائيّة والقيء واللصوص والسُّرّاق

والدبيب والمختّثين والعيّارين وشذّاذ الآفاق والدراويش والعاهرات والعسس والهريسة والقيمة والشوارع والأرصفة وعلامات المرور المائلة والبرد وكشف البخت لأبو معشر الفلكي والنساء القاعدات على عتبات الأبواب بدشاديش كيمونة سوداء وبدلعة كبيرة - قبل أن يحلّ الحجاب - والفساء في الأحلام وتفسيره لابن سيرين وعربات الباقلاء بالدهن الحر والنارنج والبصل الأخضر والبورك والفشافيش والأترج والفالوذج والفحم الأسود ومرق الباذنجان والبربين والفانيذ وصياح الديكة على مدار الوقت والبشوش[1] وفنادق علاوي الحلة المترعة بالمخاط على الحائط قرب دكمة الكهرباء السوداء مع بقايا عود بخور والأفرشة المنسولة ورائحة المرحاض وموقف باص ٤ والدبانستري.

يسلم الشرطي جواز السفر المزوّر إلى أمّي. تمدّ أصابعها وتلمس الغلاف وأشعر بالأسف. لم أكن قادرًا على التكلم. كنت مهزومًا ولا يمكنني التحكُّم في عضلات فمي، لا أستطيع. لكن يجب أن تُمسك وتقاد إلى جوف الوطن. تنطلق السيارة مرة أخرى بنثيث المطر، بنثيث الهزء، بنثيث الطين. تنطلق روحي أيضًا مروعة وأنا أسمع داخلي صراخًا وعويلًا وتوقفي في المطر قرب الجدار بقمصلة شتويّة وبيجامة تحت البنطلون أمام منزلها وهي تخرج مع زوجها وأطفالها إلى حفلة بقاعة الشعب. نصل المطار وأهبط من السيارة كملك مهزوم. أسير خلف إبراهيم وأمّي تشكو دوارًا. نسير لكننا نضيع في البخار والابتراد وتقلُّص عضلات وجهي. ندلف إلى الداخل بشفاه مزمومة ووجوه كالحة وعطر السماء يغلفنا.

أمامي دقائق فقط كنت أقول، ليس أكثر من نصف ساعة وأعلن موتي، أعلن ضياع الأم، وتمرّ في ذهني خيالات غريبة، خيالات شديدة ليست لها علاقة بالواقع المحيط بي والمسافرين والبوليس والضجّة العارمة

(1) البشوش: البط

والأصوات المنطلقة من المايكروفونات. فجأة أشعر بصمت هادئ وأحسّ أنّي أغرق في غيمة رماديّة والساق تتقافز بخفّة لذيذة وأقف مثل يوشع. غموض يداهمني مغلفًا برؤى الشيزفرينيا وعوالمها، وأسير ببطء وأقبل خَدّ أمي وأشعر بتيهٍ وخدر، واجد نفسي فجأة أمام شرطيّ، وأبهرُ إذ أقف إزاءه ملتوتًا ومضمخًا باللعنات، لعنات كبيرة وضاجة ومرح وضحك ومدن تتراءى أمامي وصخب جدّتي تعاقبني بنعالها الأسود، ثم صخب المطر والنثيث الذي يغمر وجوهنا ويغمرني فيض رائع من الهلوسة وتدخل أمّي بوابة المسافرين وإبراهيم يلوح لها ثم يقف مستندًا إلى حاجز قصير يدخّن بشراهة ويتلفّت قلقًا. وتتوقّف كاميرا الطفل عند مشهد واحد، نقطة ذهنيّة واحدة وأتوسّلها

– الكاميرا – أن تتحرّك، لكنّها تصرّ على الثبات حيث أرى انسلاخ جسدي وتشكل هيئة ثانية وهي أنا أيضًا، وأعجب إن لكلينا ذات العقل، لكنّه يتميّز بالقوة والانتقام والاندفاع وليس مهزومًا. وتقف جدتي أمامي وهي تكفر بحدّة وتحاول انتزاعي من قرب سكة القطار بانتظار أمّي. وقتها كنت أشعر بالغصّص يتصاعد إلى فمي وأنا أندسّ في الفراش وأُغطّي وجهي باللحاف متثنيًا ببكائي لعدم مجيء أمي وعلي الانتظار أسبوعًا آخر وآخر وآخر وأهسّ هسيسًا إلى الشرطيّ وأغمغم بأنّ فجر إمكانات قهرك أمامه وابكِ طويلًا ومريرًا وبُحْ بالغموض الذي يجللك. افعلها ولو لمرة واحدة في حياتك، انتقامًا من لا مجيئها وانتظارك في الصباحات الباردة وأنت تجلس أمام الباب. منذُ متى وأنت لا تنام؟ تذكّر طفولتك، قسوة الحجر والمدر والطحالب على وجهك والقمر كبير وأنت أمامي مُتوحّدًا. تذكّر أفتأتك وعوز جدتك وفقرها وغرفة النوم المطبخ ورائحة سائل الكيروسين تعبق في الأمكنة والهواجس وصخام يلطخ سقف الغرفة ووجهك وملابسك، تذكّر الصراصر التي تسير على ملابسك وترتديها في

الصباح ذاهبًا إلى مدرستك مُتوحّدًا في ذاتك المنهكة، تذكّر استلاب أمّك من قبل زوجها واغتصابها، تذكّر اليوم المُمطر وأنت في بيتها وتشعر برغبة النوم قربها لكن زوجها يسلبها منك وتسمع هسهسات وضحكات خافتة.

يتحرّك الشخص الآخر وتنظر أمّي من بعيد، من أمام شباك الجوازات وبأصابعها الباردة حتمًا تدفع جوازها. وينظر إبراهيم ويسحق بعصبيّة سيجارته على الأرض وينظر ضابط الجوازات في وجه أمّي، وأهجس حركة شفاه متبادلة وتصلني أصوات غير مفهومة ولا واضحة وأحاول تلمس الكلمات وفك الأحجيّة، لكنّي لست من هذا العالم والحجر الذي رفضه البنّاؤون يقذف به بعيدًا، فجأة اهتزّ عندما يكلّمني الشرطيّ شاعرًا بالهزيمة والقُبلة التي طبعتها على وجه أمّي تنمو كزهرة الراسقي.

يلتفّ حولي رجال بربطات عنق وبدلات رماديّة وسوداء. لا أفهم ما يُقال لي ولا أفهم الصمت أيضًا. أعيش لحظة خرس عميق وانبهات ولا تأثر بالعالِم وهو يموج أمامي. تقول لي الأفواه المفتوحة والمظلمة: هل تعرفها؟ وأُضرب بقبضة على رأسي، لكنّي لا أحسّ. جسمي مرن وأعيش في عالم آخرَ. أبتسم وأنا أطير بانتظار أمي قرب سكة القطار، وفي الطارمة الخارجيّة للبيت قرب السدرة وملايين قطع سكراب السيارات. انتظاري لها في البرد، المطر، الوحول، حُفِر المجاري المملوءة بالماء الآسن والدعاميص، انتظاري أيضًا في وحشة صراخ أطفال المدرسة ورائحة الكيروسين تنسرح وأنا متوحّد مع كتاب القراءة، وأهمل المطر الذي يبللني كشميم راسقي، وفي الصّف الدراسيّ أصاب مثل الآن، بانحشار الزمن وتضخمه، نهايته بأنّك خارج علم الساعة وخارج المكان. لا أسمع صوت المعلم لأني لست من هذا العالم. لمَ لا أُفهم؟ أحلم فقط، أحلم بأنّك بلا أطفال، أحلم بأنّي ابنك الوحيد راكضًا بانفلات الزهد، بعلانيّة الموجود، في مدينة الألعاب وأنت من هناك. من غواية الأمومة المغروسة

فيك كدم، تجرين خلفي وأضحك بقوة سحريّة واستمرّ بالركض والضحك حتّى أسقط على الأرض متشنّجًا مثل مصاب بمرض عضليّ.

يقول ضابط الأمن وهو يمسك ياقتي ويرفعني قليلًا عن الأرض: تعرفها يا كلب؟ لكنّي لست هنا وصائرًا إلى الضحك لأنّك في الطين مثلي، لوحتُنا الشمس والصيف والبهجة والمجرات وأنا معك في سيارتك الموسكوفيتج ونحن نتوقّف أمام (أبو يونان) لشراء الهامبرجر. يكرّر الضابط سؤاله ويصفعني فجأة وأنتقل إلى عالم طنين الوجود خارجًا من الأحلام مثل مريض يشعر باقتراب نهايته، وأُفاجأ بوجودي في هذا المكان. يصرخ بي الضابط مرّة أخرى، وينطلق من فمي الصوت: لا أعرفها. لكنّي استغرب الـ لا وأبحث في عقلي عن الأسباب التي دفعتني لنكرانها. ينمو إلى ذهني أنّه يجب أن أجد تبريرات، والتبريرات جاهزة حينما أغرق ثانية في الانجاز الرائع والضربة الموفّقة التي وجهتها لتمام العالم وتكويني لبؤرة حيّة جديدة لاستمرار الحياة بأشكال مختلفة وإنّي أنجزت الأهم في حياتي، أن لا أدعها تهرب مني هذه المرّة.

هل ما فعلته كان ضروريًّا؟

تنقذف بوجهي ضربة قويّة، تلطمني ويهتزُّ كلُّ شيء. حتّى الأصابع والشعر، شعري الجميل الذي كانت تمسده قبل زواجها. إنّي أتذكّر على نحو مذهل تلك الأصابع الطويلة البيضاء والمليئة بالنّمش وهي تمرّ على خُصلات شعري. يغمرني فجأة شعور الطمأنينة. لا أحسُّ بالضربة الموجّهة إلى فمي وأسناني تنزف. لكن النكران برغم البرد المحيط بالقلب يستمرّ على نحو مذهل، وأعيش حُلم الخداع العقلي قربها قبل زواجها، إذ نزور الأصدقاء وأكون أنا لها المركز والمحيط، الزاوية والأضلاع، ومحض الاهتمام.

كنت أفكر أنّه حتّى لو استمرّ الضابط بالضربات والجامات فأنّي

سأحلم بعيدًا ومُحلقًا في السماوات حيث الآلهة ترعاني وتمدُّني بنسخ ديمومة الحُلم اللذيذ الذي يوصلُني نحو جسدها ورائحتها القويّة. حبّ غريب أشعر به نحوها، لكنّه محطّم وعندما لا أستطع تحطيم زوجها فأنّي أتجه نحو ذاتي.

إنّي أقرأ في عوالم غير العوالم الحاضرة، لأنّي أطير مثل سعلاة في عالم مغاير لهذا العالم وقوانينه، حيث لاجاذبية إلا الحب. ينظرون إلى وجهي، ويحدّق أحدهم فيه. يقترب مع سيجارته والدخان يلتوي على وجهي لأنّ لا هواء في الغرفة، فقط أنفاس تترى مثل الأحلام. أنفاس شهيق وزفير مكتوم. وأنفاسي سريعة التدفّق لكنّ القلب يدفع بي إلى مكان آخر. هو ليس المكان الحالي، لكنّه مكان مكوَّن من قلب واحد يحتضنني أنا وحدي وفجأة أجد نفسي خارج هذا القلب واللوعة تطاردني.

إني أخرج من عالمها إلى عالم آخر بعيد، وحتّى الأحلام لا تريني أصواتها ولا صوت قلبها ولا ولا إصغاء إلى صوت جدّتي باكيًا كوني بلا أب، والآن افقد، أو فقدت، حتى الأم، وأنت لم تزل بعد في سنتك الثانية من الهُزء والعالم وحشة كبيرة ومشاهد ميلودراميّة وكوميديا سوداء.

نحن نضحك ملتوتين، نضحك محنّطين مثل مومياءات. لكنّها الآن تبقى.

أفكّر فيما الضابط يستجوبني وأنكر مرات متعدّدة معرفتي بها. ليس مهمًّا أن تنكرها، المهمّ أن تبقى في عالمك ولو أنّها رحلت إلى البلاد البعيدة سيكون الإحساس بالفقدان أكبر وأعمق وستطلب أطفالها وسيسافرون وأنت ستبقى هنا. ليست المسافات الأرضيّة هي المشكلة، لكنّ المسافات الذهنيّة هي التي يجب الاهتمام بها، يجب الخوف منها.

عندما تذهب إلى السجن سأفكر أنّها ستكون وحدها، ليس مُهمًّا أن تكون في زنزانة. المُهم أنّه ستكون وحدها دون أطفالها. سأتمكّن للمرّة الأولى بعد

مليون عام من اللا حبّ أن أعيد الساعة الرهيبة لما كانت عليه. أخرج من غرفة التحقيق من دون شعور جسمانيّ بالألم. قُدُمًا أسير في الممرّ المؤدّي إلى باب الهروب المبحلق في الكون، وأسمع صوتها يأتي متحجّرًا من غرفة ثانية، مخلوطًا بتحقيقات طويلة. إني أسمع صوتها الآن، لكنّي لا أشعر به، بمعنى أنّي فاقد القدرة التدميريّة التي اجتاحتني للحظات فغيّرت بها العالم، سَمِّه ما شئت، افتئاتًا، رغبة تحطيميّة، نوبة صرع، دمدمة، نوبة مغايرة عقليّة، لأيّهم. إنّي أبحث مرارًا عن توصيف أكثر دقة للاحتشاد الأخرس الذي نكّل بي. منتهبًا مثل أرض، خرافٌ تطير بأجنحتها السماويّة وهي تلتهم الأدمغة البشريّة. لكنّ دماغي لا وجود له، لأنّي منته إلى صفة أكثر التصاقا بذاتي وبنحو غريب فعلًا. باب غرفتها مُوصَد بأقفال ورجال بوليس سريّ وعلنيّ على الأبواب. هنا تدخل في متوازية الانتهاك، غير إنّ هذا الانتهاك ليس قاصرًا على ذاتي، إنّي أوزعه عليها وهو يشبه شعور ضفدع في سبات شَتَوي حيث لانأمة ولا مطر، فقط طين لازب نصنع منه آلهة لنعبدها.

أسمع صوتها قادمًا من الغرفة التي أتوقّف أمامها لحظات لأشعل سيجارتي ثم أسير مندفعًا بلا انقطاع في المطار. أسيرُ رافعًا رأس انتقامي دفعة واحدة كأنّي أبول على الحيطان في مساءات بغداد، وأنا أتناول خمري ورعدي وبولي يُغطّي طرقات العالم الصخريّ

أخطو بلا توقّف في ممرّات المطار، مفكّرًا، ليس تبريرًا لما حدث، ليس أسفًا على ما صار، إذ ترفعني يد الشيطان الذي وسوس لي، يُقبّلني الآن، يمصصني ويربضني على أجنحة النيران مغادرًا العالم القذر إلى بهاء روحه الجميل، إلى صنعة صيغة القصوص وترصيعها يوم خلقت الكروب المظلل وأقمتك على جبل الله المقدّس. كنت بين حجارة النار وتمشيت، أنت كامل في طرقك من يوم خلقت حتّى وجدت فيك إثم[1]- لكنّي لست

(1) الكتاب المقدّس

آثمًا، بل ملعونًا كنت وسأظلّ ملعونًا مطاردًا بالجحيم والسحرة تتبعني، حيث أطير مثل خفّاش متلجلجًا وأحلِّق كحيوان خرافيّ - تنّين - أفعى النار المقدّسة في رؤى السحرة الشامانيّين والعرفان ورجال التصوّف الهنديّ والحاخامات وأسرار الهيكل المقدّس وطيران السادة المحمديّين، في غرغرة مريرة من روحي وأنا اضطهد المسيح، مسيحي الذي رميته الآن بالسهام والدموع والزهرة الميتة على درفات شبّاك مُوصد بوجه الفجر.

أترك بوابة المطار، أخرج من الدرفات، أخرج من المراحيض، أقول يا للسماء!! لمَ كل هذا الخراء في حياتنا. لمَ الخراء أصلًا إذا كنّا مُدنّسين إلى هذه الدرجة العظيمة من السقوط الهيولي في التاريخ.

جلس إلى الرصيف، البرد يجمدني، البرد صحراوي، تكريتيّ، شيوعيّ، يفيض بي وبه، شوارع عمياء ملتوية ومغمّسة بالنفط الأسود المنبثق من الأرض لتكبيلي وقتلي، كل الشوارع مسفلَتة، شوارع وأنا في نهايتها غيمة تعبر أرض جنون خارق للهلوسة، للفكرة المريضة والميّتة مثل كلب أجرب.

لم أكن أريد الانتقام منها فقط، بل من كل الحياة. وصل الموج إلى الحافّة العليا لرقبتي وأنا أدفع كل الحياة نحو متخيّل الموت. أكره ليس الحياة وليس أمّي فقط، إنّما الجميع. أكره كل شيء. كل النساء، كل الرجال، كل الأطفال، كل الشيوخ والحمقى والذئاب، كل الباصات في شارع الرشيد والباب الشرقيّ. أكره كل انتماء لهذه الأرض، لهذا المجتمع الذي فرض على أمي الزواج وأبعدني عنها انصياعًا لعادات المجتمع الذكوريّ الوحشيّ، الهمجي، الذي يدين الأرملة التي لا تتُزوج، أو تبدأ دورة التلفيق على شرفها.

الفصل العاشر

في الطريق إلى بيت قريبي أفكّر بالآتي. هل يمكن أن يُلقى القبض عليّ؟ وحينما أفكر أشعر بقشعريرة في الشوارع الطويلة والمتعرّجة. أنت تسير ليس في شوارع بل في دروب محقونة بالخوف والاحتشاد الذهنيّ يصل إلى مديات كبيرة واليباس العقليّ ينقلك إلى مستويّات من التفكير المشوّش. أصل بيت قريبي وعلى الباب أضع قبضتي الملتهبة والعيون المبحلقة في الظلمة لكنّ دون رؤية شيء. إنّها نستالوجيا الفكر المتخبّط بين جدران الوهم وأنت في القعر تصرخ والشياطين البعثيّة ترميك بالمقالع والنيران أو قذائف المنجنيقات. ألهث وأنا أقف على الباب وأطرق بارتعاب ولا أستطيع إيقاف اللعاب عن الجريان.

يخرج قريبي من وحشة صامتة، من نومه. وينظر إليَ بانفعال ثم يسحبني إلى الدّاخل ويقول: لعنة الله عليك، ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ أقول: هربت، هربت. يسير بملل ويشعل ضوء غرفة الاستقبال وأصرخ به طالبًا الظلمة. لا أستطيع بعد الآنَ أن أعيش في النور. يقول: ما بك؟ تكلّم. يردّد هذه الكلمة عشرات المرات بشكل غبيّ ويخيّل لي أنّي أسمع صداها

بين الجدران. لا أستطيع، أقول لاهثًا، لا أستطيع. ينظر القريب إليّ ويبدأ العبث بسبحة طويلة ويمدّ ساقه على القنفة ويظهر لباسه الأبيض الطويل وخصيّته تتكوّم إلى الجانب. أقول له هربت منها، هربت، هربت. هل تفهم ما أقول؟ إنّي أحاول أن أتكلّم بشكل مقتضب. بعد أن خرجت وفيما أسير مبتعدًا، وصلت سيارات مرسيدس سوداء. فتحت الأبواب على عجل وقفز منها رجال ببدلات وأربطة واتّجهوا فورًا إلى بيت أمّ وليد.

كنت مصابًا بلوثة عقليّة بعد أن انهارت هي أمامي. إنّي أعيش لحظة لا أعرف تسمية صحيحة لها. لم أحاول الاقتراب من البيت، اكتفيت بالتبول على جذع نخلة قريب. بعد دقائق أخرجوا أمّ وليد ضربًا. كانت مستلبة وأظافرها تتشبّث بذراع أحدهم وآخر يرفس مؤخّرتها. أردتُ أن أقول لهم كفى، لكن لا أملك الجرأة والقوة والإرادة، عرفت أنّي جبان وقذر، ليس بالفطرة بل بالتعود، بالممارسة. إنّي مندسٌّ الآن في التجويف الذهنيّ لعقل جمعيّ هارب من الإحساس بالمواطنة، ولا يعني هذا إلّا أنّي مهزوم ومرهق وأشعر أنّ التآكل الحاصل فيَ يزداد ساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم.

علي أن أتذكّر الطفولة التي تحوّلت بعد سنوات من حكم حزب البعث إلى هشاشة نظريّة وعقليّة وإرغام ذاتيّ لأدلجة التنفس والممارسة الحياتيّة، وأنظر إلى أمّ وليد، إنّها منهارة تمامًا وتسحل بقسوة، بلا رأفة كونها امرأة. السلطة قاسية جدًّا. خادمة أم وليد تقف بلا حراك، وتمدّ النظر وتغطّي فمها لتكتم صرخةً مروعةً وبهتاناً عظيماً. نظرت إلى السماء، أردت أن أعبر الأسواق والشوارع، أن أتمدّد على الأنهار الجارية في أرضنا وأن أقول لا، لكنّي أجبن من أن أتفوّه بكلمة ونأمة، وهناك طيور رماديّة تحلّق في فضاء رَصاصيّ. لم أعد أرى شيئًا، ماعدتُ أقوى على التقدّم وأنثال مع تلك الطيور المخيفة وهي تعبر الفضاء.

أدخلوا أمّ وليد في الصندوق الخلفيّ لسيارة وانطلق الموكب بسرعة،

باستدارات، بنزق، بتوهُّج الحصول على الغنيمة، لكن المدينة نائمة بلا انفعال. عندما انتهيت من التبوُّل فوجئتُ أنّي بلت في بنطلوني وليس على نخلة. طرأ إلى ذهني، أن كره الوطن هو كرهٌ للذات. عندما تُخرب الوطن، فأنّك تخرب نفسك. حاولت الاقتراب من البيت، لكن شعرت بانهيار لمنظومتي النفسيّة. بعد ذلك عبرت شوارع المنصور واجتزت الريسس[1] وشارع ١٤ رمضان ومحلات بكزاد من دون انتباه إلى أنّي كنت مخبولًا واللعاب يسيل منّي كذئبٍ جريح.

ينظر قريبي إلى وجهي ويتأفّف ثم يتعوّذ من الشيطان. أركع وأقول له: دبّرني أرجوك. دبّر لي طريقة أخرى للاستفسار عن أمّي. نحن نلهث في الأماكن الضائعة. الله فوق المدن، فوق العيون والحشرجات الموهومة. كل لحظة تهاجمني صور أمّي في تأنيب ضمير مدمِّر، أتخيّل وجودها بين وحوش، وأشعر بانهيار قيمة الإنسان أمام نزعة التعذيب الوحشيّ.

أتوسّل قريبي ثانية وثالثة. ويفكّر على ما يبدو بحلّ مُعيّن، بشهادة للزمن. يقول: أتعبتني قبّحك الله، الوقت مُتأخّر لكن يمكن عمل شيء. ينهض ويذهب إلى الداخل، أسمع زوجته تقول بعصبيّة: رأس واحد قبل أن تذهب.

نخرج إلى الريح والعاصفة بحالة شتاتٍ ذهنيّ، بهالة الترقُّب، نذهب مباشرة إلى فراش الأمن، نعبر شوارع سوداء وأضوية خافتة وصفراء. المدينة تتقيأ وجوهنا وأحاسيسنا من تحت خباء هذا العالم. حتّى السماء وقتها تتحسّس طردها لك. لكنّنا نسير بسيارته المتداعية وبعد ساعة من السير بين الخرائب والدرّابين الملتوية والأزبال نصل ونترجّل.

رائحة المرق تكتسح الشارع. هناك مصابيح ٤٠ واط نائية تتأرجح.

(1) الريسس: مضمار سباق الخيل

نحن نخوض تجربة التحوُّل إلى حثالة بشريّة..

أحسّ بانقباض روحي كلما آتي إلى هذا المكان. يخرج الفرّاش ويتحدّث قريبي معه. أنا أقف متبلّد الحسّ، شاعرًا بخراب وانبهات واقف صامتاً وقريبي هو من يُدير الحوار.

الفرّاش: ماذا؟

قريبي: ألقي القبض على أمّ وليد.

الفرّاش: مستحيل

قريبي: هذا ما حصل.

الفرّاش: والآن؟

قريبي: لا نعلم، دبّرنا.

الفرّاش لا شيء: اذهبوا إلى البيت واشربوا بُطل عرق وصباحًا ينتهي كل شيء.

– لا يمكننا الاصطبار نرجوك دبّرنا، دلّنا على طريق آخر.

ويصفن الفرّاش ويبربر مع ذاته، يصوّر لنا أنّه ذكيّ ويحاول إيجاد مخرج، مخرج لكل شيء، لموضوعنا وللثقب الأسود الذي نحن فيه. وفيما هو صافن وخيول داوود تجري على سواحل البحار، يصرخ قائلا: وجدتها. ويقول: نعم، نعم، إنّه الساحر رضائي. وفيما هو يشرح ويزبد ويعربد، يدخل ابنه الصغير والمرق على دشداشته وفي يده قمع صمونة ملوثًا بالعنبة ويقول: بابا أريد أن أبول وهذا الخراعبد القادر لازك[1] بالمرحاض، فيقول له اذهب إلى الشارع وبُل على صفحة[2].

ويعود إلى الموضوع ويهمهم: ليس أمامكم إلا الذهاب إلى ساحر.

(1) لازك: ملتصق

(2) على صفحه: إلى جنب

ويقول قريبنا: مستحيل، استغفر الله. وأقول أنا: نستطيع إيجاد حيلة شرعيّة.

نترك بيت الفراش وفي اليوم التالي نسير في درابين الشواكة من ناحية رقبة الجسر. الشواكة معدمة ومُحتشدة برائحة القصّابين والمجانين وباعة السمك والكرفس والفجل والكراث والحيوانات المذبوحة والأمعاء والكرشات وخيوط الجنّب والغائط بجانب سياجات البيوت وسيارات موسكوفيج متوقّفة وعاطلة عن العمل ودجاج يركض في الشوارع، وجرذان تلاحق الدجاج، ودجاج يلاحق الصراصير ويصنع البيض، ورائحة العنبة والشريس تفوح وتغرقك في هالة كونيّة من العفن مع رائحة بيض مسلوق وفساء وأطفال بدشاديش بازّة بائسة قصيرة ومقلّمة.

نصل بيت الساحر رضائي ونجد الباب مختومًا بالشمع الأحمر. نسأل، وتقول لنا امرأة مع جوق عسكريّ من الأطفال الملوّثين بما لا نعرفه: طلع إيرانيّ، عجميّ وتم تسفيره، وتنهار باكية وتولول وتقول ما الذي سأفعله الآن، انجدوني، ساعدوني. زوجي يذهب كل يوم إلى القحاب وهذا الإيرانيّ كان يساعدني في فكّ السحر، سأموت دون حجاب وتبكي وتتوسّل أن نجد لها ساحراً آخر. وفيما نهمّ بتركها تصرخ وتقول: انتبهوا لأنّ البيت مراقب، ويقع الخبر على رؤوسنا مثل الصاعقة، مثل القنادر، قنادر الوطن الجميل، ونغادر المحلة بسرعة وندور في شوارع بغداد كمصابين بالحصبة، بأبو خريان. المدينة بائسة وتشعرك بالملل والقرف وتلقي عليك غمامة من اللا فهم. أقول لقريبنا إنّي خائف ولا أريد العودة إلى البيت أوصلني إلى صديقي ماجد. ونصل إلى الدورة بعد استدارات وشوارع وغيبة عن العالم والانهمام بالعقل الفرديّ ومراقبة حالات الوهم الذهنيّ الذي أعيش فيه.

أهبط من السيارة، أسير خطوات مع الظلمة التي حلّت، قرب مزارع أرض حفيف الأجنحة مواقيت نوم الأشجار واضطراب القلب ومصابيح

الشوارع بعيدة وصفراء، نقاط توهج ولؤم، كدرة شفيفة، عرّافون وسط ظلمة. وجهي ينثال بعيدًا وصوتي يخرب. لا أعرف على وجه التحديد بما كنت أفكر، لكن من الواضح أني كنت أعيش آليّة معيّنة من فقدان الذات واكتساحها. أنظر إلى الحقول البعيدة. أتنهّد، أملأ روحي بكاءً وأشعل سيجارة وأبتلع الدخان، ليس استنشاقه، يبدأ لعبان نفس، أسير خطوات وأطرق باب صديقي. بعد دقائق من الانتظار يفتح باب مواجهه لباب بيت صديقي وتخرج امرأة بعباءة تضيع في الليل. تبقى المرأة بالمراقبة وأنا أُسلم على صاحبي وندلف إلى الداخل. بمجرد الدخول أطلب أيّ شيء يجعلني أسكر. أي شيء، عرق، فودكا، سنزانو، بلموكودين، سيكوتين، وأتوسّله أن يتركني مرميًّا على القنفة. إنّي أعيش لحظة تُسمى لحظة الحقيقة الكليّة.

تأتي أنبوبة السيكوتين زاحفة وأشمّ متوترًا. أركض في حقول ذرة بعرانيص تنحني للضوء والعاصفة تهبّ من لا مكان، أقف وسط الحقل، بين الحشرات الضخمة، بين الطلّ الشفيف، بين هلوسة السيكوتين، ومثل قطار الزمن أطير على أجنحة نسور وجنّ وعفاريت، أربض، أحلّق بين سماوات غائيّة في انحياز للعقل الأوّل، في انحياز كليّ للأسطورة التي تنبئ عن موت الملائكة المقرّبين في يوم رهيب. أشمّ ثانية وثالثة أنفاسًا متلاحقة، شهيق وزفير، إنّي أفكّر في الجيل، جيلنا الذي تآكل، ممدّدًا بين رؤى الهلوسة وترنـّحات الأصابع والاعتقالات والنميمة. لكن حتّى الهلوسة لاتنقذني تمامًا من هلوسة المطاردات والشرطة والكوابيس والبوليس السريّ.

أتذكّر ميري الذي ينبثق مع الحشرات الضخمة في الحقول اللا نهائيّة ويقفز إلى ذهني في الوعر، في التيه، في المرمزات من حياتنا. أقول، لمَ أذكره الآن؟ يا إلهي!! نحن نُقيم في مياه الأنهار المرّة ونخوض في اللهاث

بحثًا عن المصير، يا للانتهاب!! يا للاعتوار!! .

أنظر باحثًا عن ساعة، أنهض وأجد واحدة مسمرة على الحائط، حتّى الزمن يسمّر في هذا الوطن. هجست تكتكات هذه القحبة – الساعة – وكأنّما تتحدّث وتشي بالغرابة والاندهام – الدهم – ومن النافذة سواد عميق وكأنه نهايات حياتيّة وانبعاث للموتى، أنظر من النافذة محاطًا بهواجسي، هواجس كثيرة تتآكلني وأضغط أصابع كفّي. أريد أن أشعر في هذا الظلام أنّي لم أزل في هذا العالم وفيما الظلمة تمتدّ على حياتنا، يتراءى لي أنّي أعاني من حالة هياج ذهنيّ، لا أستطيع إيجاد أمّي في كومة الخيوط المتشابكة من الدوائر الأمنيّة، ولا الحقول المتراميّة، كباحث عن حبّة زؤان، أُداس، أعتصر، ملوّحًا بالانهزام في رحلة البحث عنها. لم أكن أتصوّر أن تكون النهاية بهذه الحدّة والشكل، ارتعبت وأردت فقط الاحتفاظ بها لوحدي هنا في هذا الوطن، أدخرها للزمن القادم حيث تحتاجها العيون، عيني أنا منافيًا للاكتمال العاطفيّ الذي يجعلني منتهبًا.

إنّي أعاني نوعًا من التلاشي اللا معقول إذ يتّصل الزمن بالمكان والشيئيّة بالانفلات والخصوصيّة بالانتهاب. معاناة الانتهاب شيء مخيف، لا أستطيع وصفه لكنّه عبارة عن مباح في طور التحوّل إلى هلام بلا شخصيّة محدّدة، حيث تتعرّض للضرب والتحقيق وانتهاك خصوصيّتك واكتساح عواطفك ولا يعني أيضًا إلا الجلوس على تلّة الحظوظ الميّتة بانتظار عودة الأم في صباحات وطن يفترض أنّه جميل وليس قاسيًا إلى هذه الدرجة. وفي عمق الهلوسة أسمع قرقعة تتأتّى من كل اتجاه. أضع رأسي مرة أخرى على القنفة مراعيًا ألّا تكون استفزازات الأحلام والكوابيس مُرَّة إلى الدرجة القصوى بالتفكير في حدث معين. إلا أنّ الدربكة تزداد، تتمحور حول شيء موجود في مكان مجهول، وفجأة تقتحم الباب وتدفع وتنتهك بمرارة أحلامك ويتمّ الولوج إلى خيالاتك بالوطن المفترض جميلًا، وتتناوشك

أيادٍ وأذرع ووجوه وقبضات وبمثل الرعدة المتوفزة تقف مُترنّحًا، إذ ترفعك الأيادي، وفي غمرة الانتهاب والوطن الجميل جدًّا والقاسي تغادر المنزل وأمامك أمّ عليوي البربوك جارة صديقي تشير باتجاهي. إنّي مدمغ بالسيكوتين، لكن يُخيّل لي أنّي أعرف بجسدي يسحل من ذراعي والأقدام خلفي، وأسمع أمّ عليوي تقول: هذا هو المنيوك، عدوّ الحزب. لكن صوتها يمسّ جدران خارجيّة من الوعي ولعابي يسيل وقميصي خارج البنطلون والرغبة في موت وحشيّ تتلاقفني مع الضربات التي تّوجّه إلى فمي.

أجرجرْ سحبًا إلى خارج البيت وأشاهد عشرات الأطفال يتجمّعون ونساءً وأمّ عليوي أمامهم تسير بهلوسة الانتصار، تسير مشحونة بشهوة النميمة والقوة والهلع والخوف كردّ فعل على مقدار اقتحامها روحي وانزلاقها في متعة الدفاع عن الوطن. أُدْفَعُ بهمجيّة إلى داخل سيارة، مع قبضات، لمَ لم أفكر؟ يحيرني السؤال وما بين دوار السيكوتين واضمحلال العالم أشعر بابتذال كبير وأنا بين عضلتين متوحّشتين تضغطان على رأسي وأكتافي. في التشوُّش العقليّ تذكّرت، وعندما وصلت إلى مركز الأمن وقبعت بانتظار التحقيقات، ملايين الأوراق تنثر على رأسي في كرنفال عظيم لأفواه وأصابع وملائكة تهرب ومنجنيقات تضرب وسيوف تنبثق من ظلمة متفجرة، وخيل إليّ أنّي أعبر وحيدًا بحر سول وأعبر الملاط والخوض في برك مملوءة بالتماسيح الإنسانيّة.

أُدفع إلى داخل غرفة التحقيق مع تيه كبير. تمنيتُ بضراعة مطوّلة أن أنتهي من هذا العالم، أن أتحوّل إلى بذرة تموت بعيدًا عن الأنهار، ما الذي يمنحني فرصة البقاء ولمَ أصلًا التفكير في البقاء وأنت تُشبه ضمنيًّا بالكلب وبائس إلى درجة الانحناء وكأنّك مصاب بنوبة اكتئاب. أنظر إلى السقف والمروحة المعلّقة، الجدران العارية والمقشرة والاصفرار البائس

يضمن روحك نمطا غائيا من بعثرة التفكير. في تلك اللحظات لا يسعك التفكير فالعالم يدور بك ويأخذك عُنوة إلى مجريات الملائكة وحركة الأقطاب السماويّة وساعات القبول والاستجابة. تهجس أنك قريب جدًّا من الكائن الأبديّ وتتوسّل بشهوة عارمة إنقاذك من هذا التكوين الهيولي واضطجاعك على سرير الموت بنكبة روحك.

ماعدت أتحسس ولا أفكر في تلك اللحظات الا بإنهمام روحي وبعثرتها، وأنا تحت هاجس الخدر والجدران العارية ويطلب مني أن اجلس على الكرسي أمام المحقق بخذلان كبير ومرارة في الفم، وماعدت أفكر ولا انظر إلا إلى المحقق والسيجارة التي تتحرك بين الأصابع بنرفزة وعصبية وفراغ صبر. أحاول أن استمر في النظر وان اجعله يتوقف عن إحراق السيجارة التي يرتفع دخانها ببطء شديد لتلتوي نهايته. وأتسمر مطرقا بنظري ومتشمما العبق القوي للرائحة. يا لها من رائحة!! أقول مفكّرًا وتتسلّل الرائحة وتتمدّد مثل كابوس لَزِج إلى أنفي وتعبر مجرّات كبيرة وكون في داخلك إلى العقل وتحرقه وتميز أنت رائحة غائط ودخان سجائر وعرق ونجوم عشريّة وانفلات من دائرة الوجع نحو دائرة الاضطرار وأفكر بأنّه لا يمكنني القول ضمنيّا، أنّي أمنح العالم المزيد من القوة، وأضحك متذكّرًا أنّ المصدر الذي أرتوي منه قد نأى وما عاد الآن إلا ظلال وما إن تمرّ دقائق حتّى تستقر على وجهي قبضة عجول وأخرى قويّة لكل كلمة أقولها أو لا أقولها.

في تلك الغرفة الكدرة التي تغطّيها الأتربة والأسمنت الذي لوثت به الأرضيّة بغير ترتيب وضرس أحدهم مرميًّا، يتعقّبني الانتهاك والاستباحة كوني حشرة في بلد القسوة المفرطة وبعثيّين ومحقّقين، حتّى ولو لم يكونوا كذلك؟ يمرّون أمامي، وأنا بمثابة الحجر الذي تقصف على أرضه النكايات والرغبات المتولّدة بفعل اهتزاز أزمنتك كلها.

بين الضربات التي تطوف على وجهي وفمي، تمرّ صور ذهنيّة غريبة وبلا اتفاق أشاهد أُمّي تدور في متلازمة دورانيّة كبيرة، إنّها تدور أيضًا في بئر مملوءة بالأفاعي والحيّات وفتحة البئر مغلقة لكن لماذا كنت أقف على مبعدة ممسكًا برأسي مُغلقا عيني فيما المطر يتساقط بريقًا ونثرًا، ولا أفهم على نحو دقيق أنّ المطر يمكن له أنّ يتساقط بهذه الدرجة من الشدّة والإلهام الذي يزرعه داخلي قادرًا على فهم الترنيمة المتوحّشة لاصطدامه بوجهي واصطدامه أيضًا بصوت أُمّي الذي يخرج من عمق البئر بوتيرة التلهف وربما اليأس الكامل من النجاة والخروج إلى العالم.

كنت أقول هل بالإمكان لمسُ فتحة البئر؟ هل بالإمكان فعلًا استيراد أفكار هروب؟ وأشعر بالعار كون الفكرة – الهروب – بائسة للغاية ولا تنطق عن محتوى الفرار الكبير الذي أتخيّله وأصرخ في العتمة، في أرض مملوءة بالجثث والعظام والألسن والنزيف قائلًا: لا يمكنها الفرار إلى أيّ مكان، لا يمكنها.

مقدّرة التخيّل تنتفي هنا وببأس شديدٍ يتراءى لي انهمامها على ذاتها، يا للموت!! وتصيبني القشعريرة ساعةً أتذكّر أنّه يمكن أن تكون الآن قد حملت سفاحًا من أحد السجّانين وأقشعرّ محاولًا لمس وجهها هنا، أن ألمس الثدي وألتقم بؤرة عميقة من متكوّن الأحاسيس. الارتجاف في فمي غير صادر عن الضربات، إنّما بفعل القوة المدمّرة لابتعاد أُمّي. كنت أحاول أن أجد مقايسات معيّنة يمكن لها أن تعينني، تسوغ لي ماحدث، بيد أنّي أشعر أنّها هي المسؤولة عمّا يجري الآن. مسؤولة بعمق عن التجويف العميق الذي نهبني وأنا مجرد طفل صغير بلا وعي للنزوة الأموميّة،، يا له من هتك مغاير لإنسانيّتي!!!

أُضرب عشرات المرّات، بالمقارع والأكف للتحوّل بعد نصف ساعة من الموت الحيواني إلى شيء هلاميّ، مكتئب، مهان، ذليل وينبت في

عقلك تصوّر أنّ يد الجلاد وضابط الأمن عبارة عن أذرع تتوسّل بقاءها إلى جسدك وفمك وعضوك التناسليّ لتنقذك من الجدل الذهنيّ، وتتساءل في صراخك الحيوانيّ وتقول، أنّك لا تعرف لمَ تم اعتقالك، لكنّ الأكفّ المشققة الكبيرة كبر رغيف خبز الوطن تنحطّ إلى فمك. وبين الصراخ والأنين والعويل والحشرات والوجوه المتقلّصة وكأنّما بفعل غازات الموت الكيمياويّ، ألمح عيون الجلاد متشنّجة، مبحلقة، بعيدًا في تأسيسات وجهي. إنّي أرسم بما ليس له شبه إنسانيّ ولا في عالم فئران التجارب، تلك النظرة الغريبة، التوسُّل الشديد لشقّي إلى نصفين، لكنّ جسدي يهرب ويسقط عندما تلتئم نظرة عيون ضابط الأمن على وجهك وتلوي فمك وتذهب بمقدار الجنون المعاصر للإنسانيّة نحو سيل آخر من التعذيب.

أصرخ متوسّلًا كلّ شيء في هذا العالم، كل العالم دفعة واحدة مستغلًّا رمس الحروف ومخارجها التي تضيع مع كل صفعة جهنميّة وقاتلة. وأُنزل من المروحة واقف متهالك الساقين أمام المحقّق فيما هو يتناول وجبة فشافيش وأتبوّل مع ارتعاش ساقي، ثم أسقط وأُسحل خارج الغرفة. بعد أيام أُدفع إلى بوابة مديريّة الأمن، لأنّهم عرفوا أنّي لست معاديًا للحزب والثورة.

عندما خرجت من عالم الحيّات الكبير والمغلق بأقفال الصوت المكتوم والسلاسل المتلجلجة، تناهبتني مشاعر عالم آخرَ، ليس هو الحريّة، إنّما دخول لعالم القوة المجرّدة عندما تلوكك الأقدار وتذهب إلى نهاية العالم متكأً على قوّة حظّ. فكّرت أنّه كيف لي أن أعيش ثانية الآن، كيف تسنّى لي أن أدخل بحر سوف وأخرج منه حيًّا. لكنّ كلمة حيّ صعب التحقُّق منها. صعب أن تقول إنّك حيّ بعد الآن وماعدت غير نفاية، رقم معين، ملف في دائرة الأمن وبلا أهميّة. ما الذي أعنيه بالنسبة لهذا

العالم؟ ما الذي أعنيه للوطن العراقيّ؟ ولعالم الغرف المغلقة والأسنان المرميّة والقناني وحشرجات المسجونين والظلمة والممرّات السوداء والرماديّة والعالم المتنفّس بطئيا من نوافذ صغير ة ومرتفعة وأسلاك شائكة ورشاشات ووجوه غريبة.

أصبت بعد خروجي من التحقيقات بنوع من الهزال الشديد. صرت إنسانًا ثانيًا، منفيًّا في ذاتي، ببثور في وجهي وخياطات والتهابات. النفي الذّاتيّ أصعب وعندما أسير في شوارع بغداد منتكسًا ومتذكّرًا تحقيقات الرفاق معك واكتشافك في النهاية أنّها دسيسةٌ امرأة، تشعر بعمق التفاهة التي سقط بها الوطن. لكنّي خرجت من عالم الظلمة نحو أصابعي المكتظّة بوحدتي الشديدة والعيون التي تبكي والانحطاط الأخلاقيّ والشجون القاتلة للمساجين. لكنّه ليس أيضًا عالم الحريّة الذي قذفت فيه الآن. إنّه سجن أكبر، ألعن، أشد.

أصل في مسير اللا معنى إلى الصابونجيّة، إلى عالم الحواري والمراقص والدرّابين الضيقة التي تنتهي بتشيؤ للذات وصخام وجوه. أريد أن أرتوي. أملأ بوحي الشخصيّ جدًّا بالشراب والنبيذ والخمر. أريد بُطل عرق سادّة، ليس مُهمًّا أن يكون مغشوشًا لابتلعه كما الأيام تبتلع إنسانيتنا في هذا الوطن الجميل جدًّا والشيوعيّ جدًّا والبعثيّ جدًّا والتكريتيّ جدًّا جدًّا. إنّي مهزوز تمامًا ومصاب بمرض تصلُّب الأطراف واللحاظ والاعتوار واضمحلال العضو الذكوريّ العقليّ، وعندما أدخل بارًا ارتجاليًّا متكوّرًا في نهاية دربونة، أجلس إلى كرسي مرقّع بأسلاك معدنيّة – سيم – وطاولة وَسِخة جدًّا، سوداء جدًّا، تغلفها طبقة دهنيّة وآثار خربشة وقلوب وكيوبيد وكلمات نابية، ولا ذباب رائع تجده في هذه الأمكنة الرطبة، حيث تعيش نوعًا شهوانيًّا من الاتجاه عميقًا إلى رغبة التلاشي، التماهي. لكن ليس إلى العيش إنّما إلى رغبة التخلُّص من حياتك.

أعترف أنّي تغيّرت تمامًا بعد الاعتقال، النزوح الذهنيّ الذي أعانيه غائم وغير واضح المعالم، ومنوّهًا بروح خفيّ جللنني بالنكايات. أستفسر عن قوّة القوانين التي عوقبت بسببها، أعترف متأخّرًا أنه نزعت عنّي رؤية شيء ما في السماء ولم أعد أنا ذاتي وأشبه امرأة تمّت مضاجعتها اللحظة، ترى ما الذي تشعر به؟ إنّ إحساسها القمعيّ متأتٍّ منّا نحن، معشر الهمجيّة واستلاب جسد وروح وعقل. لكنّ الأنثى تغفر ربّما مسألة الانتهاك، لكنّك أنت ومع الشعور بالاجتحاف والقمع والاستباحة والرعونة والخشية، يزايلك شعور الأنثى بالافتضاض.

أولى القواعد التي علمني إيّاها صديق يربّي كلبًا، أن لا تضرب كلبك أبدًا، لأنّه بالضرب ستتغيّر كل الخارطة الذهنيّة له. سيتخربط كل شيء في دماغه. وماذا عني؟ ماذا عن هذا الوطن الجميل جدًّا حيث رفاق البعث ينتشرون مثل ذباب وبعوض في حياتنا، حيث تلسعك كل دقيقة خراطيمهم الماصّة لحياتك.

يأتيني النادل المصريّ بربع عرق. ألطّه[1] وأسفح ذاتي وانثيالي مع البطل. إنّي أتماهى إلى الأبد مع الطعميّة المصريّة المصنوعة من الباقلاء وفي مشروب غريب عاصر كل حياتنا من المهد إلى اللّحد. ماعدتُ أُفكّر، حيث الدماغ لا يقبل أن تنقل له موجات التفكير. إنّي أريد تحليلًا منطقيًّا لما حدث لي من انتهاك وافتضاض وأشعر بالرعب عندما أتصور أنّ أمّي تنام هناك وتعرّضت لهذا اللُّؤم، بل ربّما أكثر.

مع كأس العرق أحلّق في متاهات. كم مرة شعرت بالعري في هذا الوطن؟ لا أدري. وتتكوّن أمامي حياة مضطربة بين فئران وصراصر تدور على وجهي وتمزُّقه وتشوُّهه. إنّي مُشوّه الذات، مُمزّق، متناثر.

(1) ألُطه: تعبير شعبيّ لكلمة – شرب – العرق أو البيرة أو مزاولة الجنس مع الولدان.

فكرة إنقاذ أمي من الهجرة كانت فاشلة تمامًا. لا يمكنني قمع الأفكار ولا الهروب منها. الضغط النفسي هائل بين افتضاضي في التحقيق وبين فكرة افتضاض أمي وربما قتلها. في ليلة ماطرة أتمدّد قربها، غارقًا في رائحة ملابسها والصابون، أيّام قديمة جدًّا ومع اللّطّ المُتواصِل للعرق تبدو رائحة الملابس وكأنّما أشياء بعيدة تزأر وأنا أمامها بلا حول ولا أهوال غير أهوال الذاكرة عندما تضطرب مع نزوع مرير إلى توارد أفكار موت العالم.

أمدّ يدي في ذلك المطر وألمس نوع القماش، وكلّما كان القماش رقيقًا، تحسّ بنشور كلّيّ للجسد وهو يهرب من العالم الميت إلى العالم الحيّ فيّ. وأمدُّ يدي بطيئًا، مثل سلحفاة أو قندس يعبر المياه. أفكّر الآن من جهة الموجبات التي تفرض على الذهن تذكارات مؤلمة، حيث أخوض في بحيرة لا أنا فيها بالغريق ولا النّاجي. كم تشبه بحر سوف، تلد المخاضة من الأوجاع، وعندما أمدُّ يدي أكتشف فتحات الأزرار. لم أفكّر وقتها بفلسفة الأزرار ولا انثيالاتها. إنّما في اليد وهي تلمس إحساسًا غريبًا يولد من بنوّة وأمومة عارية كما الأشباح.

كنت أفكّر وقتها – واضعًا يدي على بطنها وناظرًا إلى وجهها الغافي قربي – بالذي يعنيه أن يفكّر طفل صغير جدًّا عندما تكون الذاكرة متشنّجة إلى الدرجة القصوى وأنت بحاجة إلى تفريغ عالم من الشّحنات. فوجئت وقتها بتسلّل أصابعي كاملة إلى بطنها. لا أستطيع وصف الإحساس الذي سيطر على عقل طفل في السنة الثالثة على أبعد تقدير، غير أنه عندما وضعت أصابعي مكتشفًا دوائر بطنها ظهرت لي ملائكة ترنّم الأناشيد. أستطيع الآن تذكُّر تلك الابتسامة التي منحتها لي أمّي، على نحو فائق الرّقة والنعومة، كدهشة، كرائحة صابون لوكس، كعطر بنات الهند، كرائحة حشائش بريّة، وكأنّما رسمت تأويلات لكلام المطر عندما يزحف مرتعشًا على الأرض.

هل تستطيع تذكّر المزيد؟ أقول لنفسي وأحسّ بانفلاق جوهرة وبركان وومیض ومشاعل حرب وجنود بملابس القتال وأدوات تعذيب مرميّة على الأرض. إني أرتعش وأمسك قدح العرق وألطّه مرة واحدة وأسمع همهمات النّدل وضجيج السكارى وأصوات أطباق المزة وقشور الباقلاء تزحف صامتة على الأرض. هنا أو هناك، أخرج مرتمسًا من ماء نار عندما أتذكّر أنّها طردتني بعد أن تزوّجت، من محيط الدائرة والملائكة. حاولت بعد زواجها أن أرقد قربها وأن أمدّ أصابعي لأصل الأزرار الحمراء لدشداشتها، أو أسيح عميقًا في فكر المتخيّل الذهنيّ لرأسي، لكن عندما وصلت البطن، فتحت عيناها بقوة ونهرتني. صدمت، التهمني الطرد وَفق آليّة احتساب هروب المشاعر واعتوارها وانعقادها لأغدو بعد ذلك بهيميًّا في حياتي كلها. عندما أتذكّر نظرتها المؤنّبة الآن، أصاب بحالة من الانعقاد الذهنيّ، تشوشه، لذّة عارمة في الانتقام والقتل، وعندما مسكت بعد ذلك ذراعي وغرزت فيها عود ثقاب مشتعل تناءى إليّ صوت محير يطلب منّي أن أصعد ارتعاشي، أصَعّده، أرفعه، أعلّيه، أقوّيه، لفكرة الرفض وأن أغرس في ذراعي المزيد من أعواد الثقاب المشتعل وغالبًا أعقاب السجائر.. ليس دونيًّا هو التفكير الذي سيطر عليّ وقتها. أعترف أنّك كليلٌ جدًّا ومهزول وعصبي ومرتعش وبهيميّ. إنك تقتل الحلازين الماشية على وجه روحك يا صديقي، لماذا؟ في الانخطاف العقليّ والدماغيّ؟ يمكن، ولأنّك مطرود منها، بائس.

لكنّي أعود مرة أخرى، مع رشفات وجرعات العرق الأسود واللهيب الذي يشتعل في بطني قاتلًا. أعود متراجعًا حيثما أتذكّر زحفها في ممرّات التعذيب في مديريات الأمن العام حتمًا أو رئاسة المخابرات أو الحاكميّة والجلاد مغطّى الوجه ويضرب بالانكال والعراقيب والكيبلات ومئات أدوات التعذيب في مختبر الوطن الشفيف جدًّا والغامض جدًّا، جسدها

وروحها وبطنها وتقتلع العيون والألسن والأظافر وكيّ الأعضاء الجنسيّة. أقشعرّ، عقلي العضويّ يموت كليًّا، أنظر متأسّفًا له. أنفجر مثل حوصلة دجاجة، مثل كبد طائر بأجنحة فوق غيم سماء أسود. والعرق لم يعُد يفيد. هل يفيد الطيور أن لا تُهاجر إلى المستنقعات الحسيّة حيث الأمطار نار والكبريت يشتعل؟ لا، لا تنفع المحاولات فأخرج مُمزّقًا من الحانة.

***

مرّة أخرى أرجع تائهًا سائرًا في الشوارع، منتقّلًا بين السيّارات العاوية والأرصفة. سيارات جديدة مستوردة من فرنسا واليابان والسويد وأنا في حالة الهياج الذهنيّ أشاهد أصدقاء أمّي وهم يعبرون سماء بغداد بسياراتهم الفرنسية الجديدة التي منحها لهم رعاع وطني وسادتها الجُدُد في وهج الشمس وهي تفرّ هاربة نحو أنابيب سيكوتين ممزوجة بالبنزين. أنا أستنشق والوطن كله مخدّر بما فيها القطط الهاربة سراعًا والفئران التي تلاحق الكلاب والبعثيُّون الذين يلاحقون انشداد أرواحنا إلى المقصلة.

أصل علاوي الحلة مهاجرًا من جانب الرصافة إلى الأحياء الحلزونيّة والفئران والاستلئام الذهنيّ، وأجد عند مطعم باجة صديقي ميري وهو يهذي قائلًا: إنّه أُصيب بالسفلس والزهريّ الذهنيّ. وأنّه الآن أشبه بصنم بابلي والملائكة الساقطة تتلقّفه من الشوارع الباهتة. أسير معه وهو يحمل أوراق مشروعه الفلسفيّ. نسير مثقّلين بكؤوس العرق المستكيّة، لكنّه فجأة يعاني وبعد سقوطه على الأرض يصرخ، أنّه مصاب بمتلازمة عقليّة ويقول: إننا في الزمن الخطأ والكان الخطأ والوطن الخطأ والثقافة الخطأ. وأحمله بين الأصابع، كدُودة، كأمّ، كنَسر، كحشرة نادرة والسماء تلتهب، تبرق، تتغيّر ثم تبرد ولا ضوء، لا ضوء مع انحسار النظر وتحوّله إلى خيط واهن، ضعيف، شفّاف، دبق وأملس، وأصل به إلى البيت وينهار عندما أضعه على الأرض أمام جدّتي، أمام نظراتها، أمام هوسي وتلعثُمي

واحتشادي وينتبه إلى ميتافيزيقا الحزن اللّاذع في وجه الجدّة ويصرخ ثانية وتعمل له جدّتي كمادة دهن خروع ويقول لي: إنّه خرج مطرودًا من اتحاد الأدباء بعد استحلال واستذئاب واستضراط واستحمار واستحياء وإخصاء وابتلاع واستلئام وفشار وقذع حثالات البعث المقدّسة من الأدباء، ولأنّه أراد طرح مشروعه الفلسفيّ هناك، مشروعه عن الحياة المتخيّلة والفلسفة عندما تدخل تكوين العقل الجمعيّ العراقيّ. أصرّت الحثالة وعشرات من خصيان الاتحاد وأربابه ومستذئبيه ولوطيّته ومستضعفيه، على أن تكون كل فلسفة نابعة ليس من تراث فكر البعث، إنّما من عقل القائد. ويزداد السعار واللوكيميا وفقر الدم المعرفيّ.

لوكيميا في كل شيء، في العقل والحياة والوجوه والأصابع والأذرع، ويخيّل لي أنّي أمام عفاريت وسحرة ومشعوذين وحلقات هنود حمر ترقص حول الضحيّة، والضحيّة ميري والذئاب تنتظر والذئاب تعوي وتبكي ودموعها مثل شقائق النعمان وورد الجوري والجوري أحمر وشيوعيّ وبعثيّ وطز في حزب البعث وثقافته وتراثه ومفكّريه، حيث إنّك أمام فكر القائد المستوحد الواحد الأحد الصمد، الفوهرر حادي الركب ومضرط الحجارة ولو أنّه بإمكانهم الانقلاب على لله، لانقلبوا عليه وحطّموه ووضعوا بدلًا منه فكر القائد. وعليك تخيّل الميلودراما التي ستحدث عندما يحكم هذ ا الشيء – القائد الدودة – ويرسلنا جميعًا إلى الجحيم وبحيرة الكبريت المتّقدة، لأنّنا لم نمجّد عقله وطيزه ولأنّنا لم نسبّحه هو هو، ونهابه هو هو، ونسجد له، ولابنه وابن ابنه وأخوته من أمّه ومن أبيه وأبناء عمّه وعمّاته وخالاته وكل عورات أبناء قبيلته ومنطقته وخصيانهم.

ويبكي ميري، يبكي على ضياع الفلسفة والغباء والاستقلاب ويمسك أوراق مشروعه الفلسفيّ ويمزّقه وينثره وينقعه بالماء البارد والمطر

والعاصفة والحيونة والتماهي ويشربه مبلولًا ولا بائل على حائط. يا للجحيم!! نحن في الهباء، في الصفير، في العاصفة، في اللا شي واللا شي مطلق في الحيز، والحيز يولد ويتضخم ويغزو مقتربات عقولنا وأذهاننا ونمرّ مطرودين ومداسين بالنعل والأحذية وأنت تسأل كل لحظة في الهباء المعرفيّ للحياة عن انتمائك للبعث.

وأترك ميري مسجيًّا على ابتلاع العالم له، على استمنائه لعقله ليقذف حيامن تفكيره على الأرجاء المترعة بالخزّي في حياتنا الدونيّة وأخرج إلى الشارع، أشعر أنّي أريد أن أتنفّس، يا للجحيم!! الهواء والريح والتراب والغباء، ولا أعرف أين يمكن لي أن اذهب مع تفسُّخي من لوثة ميري وأم وليد وأمي. ومع التيه الذي يصيبني أذهب إلى قريبي وأتوسّل مساعدته للذهاب مرة أخرى إلى فراش الأمن، لكنّي أُطرد من قِبل زوجته وأعود إلى البيت وأجد ميري قد هرب وأشعر بالقلق عليه وتقول جدّتي: كان يهذي مردّدًا أنّه سيقتلهم بفلسفته، سيُناور مثل ربّان على سفينة الخراء هذه، سيحارب مثل فوكنر وسبينوزا ونصيف الناصريّ وسعد جاسم وجليل القيسي ومحمد خضير وهنري ميللروصباح العزاوي وأراغون وكافكا وأقول لجدّتي، ماذا؟ هل قال كافكا؟ وتصرخ متوترة نعم، كافكا، كافكا. وأصرخ بدوري: فوكنر، فوكنر وتقول: لا، لا، كافكا كافكا. دم، دم.

***

أصل اتحاد الأدباء هاذيًا ويقال لي، إن ميري خرج قبل قليل. أبحث تجد، اسأل تُجَب، اطرق يفتح لك. مت فيُبال عليك. أين أجده إذن؟ يا للخصاء!! وأجد ميري مرميًّا كحصان عربة نفط مقابل مطعم إحسان أبو الكبّة في ساحة الأندلس وجهه ممرود، رموه خارج الاتحاد عندما أراد أن يقرأ شذرات من مشروعه اللُّغوي والمعرفيّ عن تكوينات الثقافة في أزمنة العواء الكلبيّ والارتكاض في ساحات وهميّة من الجوع والهستيريا. أبناء

القحبة قذفوه بلا رحمة كحيمن، كمحرمة نسائيّة. أطلقوا عليه رَصاصهم الكلاميّ. إنّه مصاب، جريح، ملفق، يتوسّل الجنون في اشتهاء مهبليّ عميق..

ندخل بارًا لا على التعيين. حميد وعبد الأمير وحقي ولطيف ونوري وثلّة من الشيوعيّين الأوّلين والمتملّقين تاليًا، رموا ميري باللّعنات وطردوه من الاتحاد، من اتحاد أهلهم البعثيّين والشيوعيّين السابقين الذين تحوّلوا إلى بعثيّين أكثر من البعثيّين أنفسهم. إنّا نرتكز إلى المغالطة الأبديّة في حياتنا. يقول لي ميري: أرجوك، أتوسّلك، اذهب بي إلى مستشفى الأمراض العقليّة. لا أحتمل، لا أحتمل وأحمله مكلّلا باللّعنات والاستنباطات وأجول به في باص مصلحة نقل الركاب ونصل مستشفى الكرامة، قسم الأمراض العقليّة وأتركه هناك. أتركه كأمير بين رعيّة، فراشة بين العناكب، شبه نور يكاد زيته يُضيء ولو لم تمسسه نارٌ.

البيت بعيد ولا أملك نقودًا. أسير عابرًا المنصور. أسير بجنب سياج مخابراتهم وتلفونات مخابراتهم وحياة مخابراتهم وخراء مخابراتهم أكاد أنفلق من فرط إحساس عدم إيجاد أمّي، أريد أخبارًا عنها. كل شيء مغلق، مغلق بين عشرات محلات المخابرات في المنصور التي تبيع الطرشي والكتب والكيك والجرائد والطائرات الورقيّة والصوصج واللوف والصمون الفرنسيّ الذي لم نعد نستمتع به، إنّها دائرة مغلقة.

أصل البيت منهكًا وأجد قريبي في انتظاري. أهمله لأنّي أشعر بانغلاق عقلي وتبلُّد المشاعر. لأنّه هكذا تبتدئ الأوجاع، لأنّه هكذا كُتب في العقل الجمعيّ، أن يجري الناس مثل الوحوش ليقبِّلوا الوحش وسمته وسمتُه فوق رؤوسنا، على الجباه والوجوه. يجري قريبي نحوي ويقول: هناك سيد في الكاظم يمكن أن يساعدنا. وجهي إلى الأسفل: هاطل، ممدود، مجزّأ، أعاني من هلوسة. إنها هلوسة ما قبل انفلاق الوجدان مع إحساس عارم

باللا جدوى. يقول: اسمع لنذهب ونسأل عنها مرة أخرى في السجون، لنجرب، لنجرب. وأصرخ بوجهه، أصرخ كطائر أبي الحناء، كأبن عرس، كعضو جنسيّ يتنمّل، كأعرابي يقرفص محاطًا بعباءته من أجل التبوّل. المصير هو عقل عدميّ ولا مسؤول يُسيّر العالم نحو الهاوية والانسداد الذاتيّ للشرايين بفعل النهلستيّة والعدميّة، وأسكت بعد الصراخ، لا أجيب. عيناي فقط تنظران إلى السراب. وجهي هاطل، ممدود، ببوز طويل يقترب في طوله من طول بوز أخوة الرئيس. إنه زمن التنهدات والقذى يفرّ من عينيك وفمك إلى الأصقاع الثلجيّة، يهرب حيث السناجب والطيور على أنواعها تصرخ، الجميع يصرخ بك يجب أن تصاب بالرهاب العراقيّ. هل جربت الرهاب العراقيّ؟ أشكّ. إنه رهاب غريب، متماسك، بلا فجوات. إنّي أعاني منه ومن تموّج ذهنيّ، انفلاق ذاتيّ، قنبلة موقوتة في ساحة الرشيد أو الباب المعظم أو السنك أو شارع الأميرات او الصابونجيّة. آه أيها الموت أين لسعتك؟! تسقط جدران كبيرة على رأسك، إنك مهموم، طولي، عرضي، ناتج ثانويّ في الوطن.

فقط التكارتة وأخوة الرئيس والرئيس، والرئيس عندما كان نائبًا، هم ناتج لا عرضي. أمّا أنت والوطن فنتاج قذر. يجب أن تضحك على نفسك أمام المرآة لأنّك عراقيّ، مُهان. إنّي أشعر بالاستنكاف، بالإهانة حتّى لو كنت في قمقم شيطانيّ وتطير عبر البحار لتصل إلى أبراج أورشليم وسليمان الحكيم والعرب العاربة والمستعربة والمنحطة بالقتل. سفلس، فوكنر، كافكا. طيران في موجة الارتعاد.

لماذا تضحك يا صديقي؟ إنّي أشفق على جيلي، أشفق لأنّنا نضحك في صمت الأمكنة والثقافة البعثيّة الهستيريّة، ثقافة سبعاوي وبرزان ووطبان ودهام. وخير الله. وآه وطبان، وأنت تلهج بثقافة البعث لتنتج زراب طاهر وصون مقدّس في مدرسة الحيوان البعثيّ حيث مكاتب التجنيد

وصريف الأسنان ورجال المخابرات.. أطير كنَسر، كثعلب، كابن آوى. أولاد قحبة في الوطن العراقيّ يقدّمون لك مع ضرب الأحذية والبساطيل جرعة موت نرجسيّة، نرجسيّة أهل العوجة والرئيس والسيد النائب عندما تحوّل بقوة شيطانيّة عظيمة إلى رئيس في دمار الأوبئة والأمراض ووجع الأسنان وقلع الأظافر على الطريقة الستالينيّة والشيوعيّة. مغارات علي بابا تفتح وتبتلعك فجأة. مهلوسين في الفضاء الآيونيّ للاضطهاد، مهلوسين نشرب الحثالة البائسة للكؤوس المترعة بالحزن أمام أبواب مراكز الشرطة والشعب يهذي والمغنون يغنون للقائد في مهرجانات موسيقيّة كبيرة لروح انثيال روحه إلى الأعالي، إلى الشمس، إلى الخلود، في اضطراب العيون المتوحشة وهي تقرأ قصائد الزيف وأبواب الأمن والمخابرات تبتلعك إلى الأبد. إنّي أنعي الوطن وكل الحشرات الطيارة مثلي، عندما نُداس بالنعال على وجوهنا، عندما تذهب لتسأل عن أمّك في السجون التوراتيّة والقماقم والعفاريت. أنت تسأل عن أمواتك والقتلة يبصقون عليك.

أترك قريبي الذي يتوسّلني وتقول جدّتي بتبرم: اذهب وأحضر لنا بطاطا وطماطماً وبصلاً وبيضاً، هناك أزمة. أزمة يا أبناء القحبة في بلد متّخم بالنفط. إنّي أصاب بعقدة اسمها عقدة التفاعل مع الضحك الهستيريّ وأضحك كأكبر ضاحك في نرجسيّة البعثيّين وقبلهم الشيوعيّين، الذين علموا العالم القتل الاحترافيّ والتسقيط الأخلاقيّ والنرجسيّة وأسموها نزق الثوار. أترك قريبي يشرب الشاي مع جدّتي وأترك المنزل والغرفة والمطر المؤدلج والحميميّة المفتعلة ووجه جدّتي الناحل، إلى طيور التسمّم في الوطن بذروق البهاء الأخير لشمس التعود على إخراج الطيز أمام الجميع. أصرخ هللويا أيّها الوطن الجميل. وعندما أكون في نزق الشارع مارًّا ببناية الفرقة الحزبيّة أشاهد سعداً المخبّل يغازل قرينته المجنونة أيضًا عبر سياج البيت وأصرخ به. سعد، سعد، بارود سكّين وملح ويلتفت فزعًا ويترك

قرينته، يترك مغازلاته الدينوسيّة واضطراب العقل الجمعيّ في استرضاء الزمن السماويّ ويركض خلفي وفيما سعد المخبل يركض، أفكّر فيك يا أمي، أفكر بتيبس حلقي وأنّي في الزمن الخطأ والوقت الخطأ والإله الخطأ والأرض الخطأ وكل الخطأ إذ أعيش وأقفز إلى باص يسير ويتعب سعد ويتوقّف وأشاهد وجهه يتضخّم، يعوي والسكين في يده ويمرّ باص نقل ركاب ويبدأ مرة أخرى في الركض، لكنّه يتركُني ويتسلّق الباص ويقتل أوّل رجل وأوّل امرأة وأوّل طفل وأوّل حُلم وأوّل انتقام وأوّل هباءً وأوّل أنبوبة سيكوتين وأوّل عصفور وأوّل تحقيق وأوّل مَن اعترضه صارخًا: مجنون، مجنون، اقتلوه، اسحلوه، اقطعوا رقبته وعضوه الحيوانيّ وأذنه واجدعوا أنفه، اترك الفوضى التي أحدثها سعد وأبحث كذبابة روث عن محالّ بيع البطاطا، عن البيض، عن لاءات تجرُّدنا. أيّ محل خضراوات أدخله يقولون لي لا بطاطا في الوطن ولا بيض. أسير وكل خبزي ذهب وخمري وبذلت ظهري للضاربين وخدّي للناتفين، أصعد باصًا آخروأنظر إلى الوطن بنظرة مهلوسة، فلسفيّة، نائية. عوائيّة، لا شيء يشغل فكري إلا البيض والبطاطا والبصل، أريد، أريد، وفيما الباص يسير أشاهد طابورًا أمام أحد المحالّ وأهبط وأندفع بين الحشود بعد انهيار الطابور. تدافع، حشرجة، قتال بالأيدي، بالأذرع، بالمناكب. عجينة إنسانيّة مكوَّنة من الرجال والأطفال والنساء واصل بعد ساعة إلى شباك التوزيع من دون أن أعرف ما يوزّعون، وأمام الشباك يصرخ بي البائع والناس والحشرجة والتأويل والصراع والضرب، واستلم طبقة بيض مع كتاب خير الله طلفاح. إني أشعر بالانهزاميّة، وعندما أريد الخروج يسقط البيض على الأرض وتدوسه الأقدام وأُداس أنا وأصرخ: يا أبناء القحبة، وفي النهاية أستطيع الخروج من المعركة بلا بيض، فقط كتاب خير الله طلفاح.

أمام باب جامع أقف. أنظر إلى الوراء والجوانب وأضع الكتاب على

السلم، إلا أنّي أخاف وأرجع لآخذه، أشاهد ومعي الكتاب معركة أخرى، تدافع آخر، بعثرة ثانية، زحام شديد، لعنات، انسحاق، تمرُّد، اعتوار، صراخ، هلوسة، تدافع. أدخل المعركة بلا تفكير، التفكير تركته. أنا الآن عبارة عن حيوان فقريّ، لبنيّ، هلوسيّ، اندثاريّ، من أصحاب الدم البارد. من ذوات الدم الأزرق، الكستنائي. أتدافع، أبعد الآخرين بمنكبي، أضع كتفي في أفواه الآخرين، أدوس على الأقدام وأضرب الركب وأندفع بلا هوادة، أصل الشباك وأجدهم يوزّعون قيمر المصلحة. البائع يسبّ المشترين وهم يسبّونه. الزمن مخصيّ ولا تستطيع أن تلعن مَن تشاء. هناك أشياء محدودة يمكن لعنها فقط من بينها الدين، وحتّى الأنبياء، لكن ليس القيادة السياسيّة، ولا ثورة ١٧ - ٣٠ تموز، القائد الرمز. يمنح البائع يدي التي تندفع من خلال ثقب في جدار دون أن يستطيع رؤية وجهي، قدح قيمر وكتاب آخر لخير الله طلفاح، وفي طريق الأوبة انحني إلى الأرض وأخرج من بين الأرجل والأقدام والأرض، وعندما أصل خارج الكومة البشريّة أجد القيمر أنسكب ولم يبق إلا قدح فارغ وكتاب خيرالله. المهم هو، أني أصرخ متوجّهًا إلى السماء قائلًا: هو، هو. ويتصوّر أحدهم أنّي أكفر فيضحك بفم كبير وأنياب وأنف مثل مغارة بلا أبواب ولا حجر، فأدخل إلى الصخرة وأختبئ في التراب. تراب، تراب، أرض من تراب ووطن من أجهزة واعتقالات ونساء يوشوشن في آذان بعولتهنّ ورجال دين يحرقون مسمناتهم على باب البعث.

إننا نعيش في العصر الميتاني أو العصر الحديديّ. في شارع صغير مكوّن من عشرة بيوت، تسعة منها تابعة للأمن والعاشر أنا صنم متوحّد وإعاقة ذهنيّة. كلنا بعثيّون وإن لم ننتسب للحزب. إنّي أعيش الآن ما يسمى بلحظة الاعتراف الكليّ للعقل المسنودة بجدائل الذوب القاتل والانتهاك المرّ لخصخصة ذاتك. انتهاك واقتحام وتفلش المفردة الواصفة

لنزوع شهوة روحك لأن تعيش في وطن يحفظك وليس في وطن ينتهكك ويقتحمك ويهينك من الصباح إلى المساء. أغاني، أناشيد طوال الليل والنهار وشعارات في كل مكان ضمن عقل الانتهاب لتحويلك إلى حيوان قندس، فراشة في درجة الموت، خفّاش ليليّ. عارٍ أنا الآن، ملابسي ممزّقة. أعيش اللحظة الكونيّة بلا أزرار للقميص، بائسٌ، حاملًا كتب خير الله طلفاح ولا أستطيع التخلُّص منها.

أعود مهشّمًا إلى البيت. أضع الكتب أمامي. إنّها تقتلني، تولد المغص القاتل والصاعق في تبدّلات الزمن وتحوّلاته الأودينسيّة وتنظر جدّتي نحوي بالريبة، بالشكّ. أفهم نظراتِها التي تؤرجحني بين المقولات الفلسفيّة الأولى في الكون لتقول لي: إنك ... وتضرب وجهها وتغسله بالماء لتقول كل لحظة: فاشل، فاشل، لم تستطع الحصول على طبقة بيض ولا قيمر ولا بصل في الوطن الأكثر غنى في العالم. نحن نطير مثل الخفافيش، وأروي لها إن الشعب كله في الشوارع يبحث عن البيض. يسيرون مخدّرين. وتصرخ بقوة الخرالوجيا، الاست لوجيا: قم لعنة الله عليك، اخرج ثانية وابحث لنا عن بطاطا وبصل وبيض، وأصرخ أنا أيضًا، أصرخ بوجه جدّتي وأقول لها سأخرج، سأخرج، لكن ليس للبحث عن البصل والبطاطا إنما بفكرة الذهاب إلى الجحيم، إلى الجحيم، إلى قسم الأمراض النفسيّة والعصبيّة في مستشفى الكرامة. وأخرج ضاربًا الباب بساقي وساقي بمؤخّرتي ومؤخّرتي تنفث سمومًا وضراطًا بكبر الوطن.

الفصل الحادي عشر

شوارع اليرموك باهتة. لا مزيد من الضباب، بل عرق مستكيّ، تهتك وخبال بفكرة التوائم الذهنيّة والتناص المعرفيّ والبحث عميقًا في الذات. تقفز إلى ذهنيّ وأنا أتسكّع، صورة، خيال، سعد المخبّل، أشعر بالافتقاد، أتلهف لرؤيته، مشافهته. أقف على ناصية قريبًا من بيت سعد، تصلني أصوات بعيدة، أحدّق في الاتجاه نحو الشمس. طلائع حزب البعث تجري تمرينات على الأسلحة، أطفال في ملابس مرسوم عليها خارطة الوطن العربي، أشرطة ملوّنة، قبّعات، دود مثل دود القبور على الوجوه. الضحكات الهزيلة تتنافى مع الوضع الإنسانيّ. أشاهد وجوههم وهم يضربون بأحذيتهم الأرض، ضربات أرجل. هزّات سيرهم العسكري تولّد في داخلي هاجسًا للنّحر. لا أستطيع الابتسام، فمي لايتمدّد بما فيه الكفاية لأرسم ابتسامة. الرفاق في الجيش الشعبيّ يجرون أيضًا تمارين السير العسكريّ. أصوات الأرجل والأحذية العسكريّة تعبث بداخلي مثل عاهرة.

أينما تذهب تطحنك الشعارات، شعارات وهلاهل ولا مَن يمسح

دمعتك في هذا الوطن والمظاهرات المؤيّدة للسلطة وجنون شعراء عُراة في البرد الأخلاقيّ يتدثّرون بالمنح الرئاسيّة التي تتفجّر عليهم أموالًا وسلطة. أقف أمام منزل سعد مع إحساس بالطيران أو الانسحاق بالأرض، لا فرق. أفكر فيك يا سعد، أفكّر بالبارود والسكين والملح. شعار البعثيّين والشيوعيّين في مرحلة ولادتك الستينيّة. أنا لا أفكر بسعد فقط. إنّما بميري وأمّي وأمّ وليد أيضًا. إنّي حزين على الطريقة التايوانيّة والصينيّة والهنديّة والكنفوشيوسيّة لموت الفلسفة. بوذا في داخلي يؤرجح الزمن وأنا في أرجوحة الوقت والوقت ضائع، متراخ، هزيل، مستوحش. يصل الباص مترنّحًا، إنّه باص إيكاروس طويل جدًّا ومؤخّرته تشحط الأسفلت وأنظر إلى الناس من حيث أكون، أصل الحيدرخانة، مع الشهوة المتجذّرة في....

أقف في نهاية شارع المتنبي وأقوم بطقوس غريبة، طقوس البلادة أمام البنايات، أمام القشلة، أمام مجمع المحاكم. إنّي أقدّسكم أيّها الإنكليز. دجلة نائم، أحسده، أحسده لأنّه يسمع وينسى، أمّا نحن فلا ننسى. يجب أن ننسى، يجب أن نصاب بمتلازمة داون، والزهايمر والشلل الرعاشيّ ومرض التوحُّد. يجب أن نضع الأسلاك الكهربائيّة حول رؤوسنا. نريد أن ننسى، نريد أن نذوب إلى الأبد في مجاري المياه القذرة. تبتلعنا ماسورات المياه وتداهمنا المجارير وتسكبنا قرب جسر ديالى حيث نعقم ونعاد من جديد، بوجوه مغسولة، ليستطيع التكارتة نكاحنا من جديد. أشعر بالشفقة علينا، بالخذلان كوننا أعلنّا الثورة على الإنكليز- الكفرة - نحن نريد أن نظلّ مأسورين، نشرب الارتغاءات البعثيّة والشيوعيّة والبدويّة وهي تؤطر حياتنا. اشتراكيّة ودكتاتوريّة وانهزاميّة وتغوّل ومعتقلات. أبوس طيزكم أيُّها الإنكليز وآسف جدًّا وأقدم اعتذاري أمام الجميع كوني شاركت في هدم تمثال مود. آه مود، لمَ تبكتني بالأحلام؟ لمَ تبكتني بقضيب شديد وتدمر حياتي كعاهرة؟ كامرأة مشتركة، كعاملة جنس. أسير وأعبر جسر

الشهداء وأصل علاوي الحلة وأتشمّم الروائح الحامضة للتعفنات. إنّي أتنقّل مثل ذبابة في بغداد، بين الجيف المكوّمة في الشوارع. في علاوي الحلّة في النهضة، حيث تضربك دائمًا رائحة القاذورات والحشرات الميّتة والجيف المنتهبة.. عند مكتبة صغيرة أجد ميري، مستحيل.

أصرخ به: حبيبي وأنحني أمامه مثل بوذا. لكنّه مشغول، أشبه بحيوان تحت المطر. يقف تحت هلوسته والظنون. اسأله عشرات الأسئلة، ملايين الإشارات من عيني وفمي. أتموَّج مثل دائرة نار حوله وبه. لكن ميري ينظر نظرات باردة، يسوطني، لا يعيرني أهمية. لا أفكّر، لا أريد أن أفكّر إن كان يعرفني، أشاهد كدمات صغيرة على وجهه. يستمرّ في تقليب مجلة، عينه ثابتة تعكس ألقًا أخّاذًا ولا اهتمام بالعالم. ميري ضحيّة أخرى مثل أمي لشنق تمثال مود في بغداد. يتركني وحيدًا ليطلب الانتجاع. كفّه في جيب سترته وشعره منثور بين الرياح والمآتم الحلزونيّة. ألحقه، إنه يسير مثل رجل تحت المطر - يتدهده - إلى بيمارستان الكرامة، حفظك الله، وطول الطريق يُصرّ على الخرس، نصل البيمارستان بعد أن نمرّ بين التنكجيّة وباعة الدجاج والحيوانات الصغيرة وقناني مياه معالجة المغص. ندخل المستشفى معاً ونتّجه إلى قسم الأمراض العقليّة. أقف أمام الصالة الخارجيّة منبهرًا، يقف ميري دقائق وينظر في عيني مباشرة دون كلام، دون نأمة، دون ارتعاشه، دون خفقان. إنّه مصاب بصمم العالم وانقطاع الألسن في الزمن التكريتيّ.. أتوسّل دكتورة جميلة وصغيرةً ومثيرة أن تدخلني إلى القاعة وأمثّل لها دور المصاب بالشيزوفرينيا والصرع والليشمانيا والكآبة ثلاثيّة الأقطاب وسحجات على وجهي وتورُّمات في أطرافي وخدوش على شفتيّ. أدلف في الممرّات البيضاء بين روائح الأقطاب الكهربائيّة والمعقّمات وصرخات مهلوسة تنفجر.

أركض بين المتراكضين وأشم الجنون ككلب، وتسحبني يد وتدخلني

إلى القاعة الموسيقيّة، القاعة الحيوانيّة. أفاجأ، يا إلهي، من؟ مستحيل!! أم عليوي البربوك، سعد المخبل، دكتور سميسم، ضمير الصيدليّ، أبو كفاح، معلم التربية الرياضية البعثيّ، أنا، أمّ وليد، إمام الجامع. أصرخ وأضرب باب القاووش، هل من مزيد يا أبناء القحبة، وتندفع مجموعة كبيرة من الممرضين. نحن نتراكض في القاعة مثل دجاج منفلِت، بين أنابيب السيكوتين والممرضين خلفنا يجلدوننا بالسياط (ستسبح الوحوش المفترسة عبر الأنهار وستحشد الجيوش في منخفض الدانوب) هكذا تكلّم نوسترادامو‌س، نضحك. إننا نتساوى بين الغيمة والسياط. الممرضون يضربوننا بالسياط وجلودنا تلتهب. إنّها ليست ثورة. نقف في طابور طويل، طابور معجون بصخام الأيام والإسوداد الذهنيّ والعرق المتصبّب من أصداغنا ونتناول الحبوب المهدّئة، وبعد ساعة ننعم بالألق الشفاف لغيوم تسير في حياتنا ووجوه خرافيّة تنبثق من خلال الأحلام ونضحك ملء الروح، ملء الوجوه المطاردة في الصبوات الصباحيّة والإشراق الكليانيّ لحياة مبجّلة.

أرتمي على الأرض مثل ملاك وأتقيّأ سعادة تلوح من كل أرجاء الوطن، مع البعثيّين والشيوعيّين والنظريات البرجوازيّة والطبقة الكادحة والطبقة الكادحة الوسخة والعيون الجاحظة والأفواه المتقيّحة والأسنان الساقطة والعويل اللاذع، وعندما أشعر بالدوخة الكليانيّة والانبطاح على الأرض الباردة، أتبوّل على نفسي، أتبوّل بشكل غريب وأغرق في بحيرة صغيرة من هذا الناتج العرضيّ في حياتي ويأتي المُمرّضون ويشاهدونني منبطحًا على الأرض وينهال عليّ أحدهم بقبضته، والغريب أنّي لا أحسّ، لا أحس بالعالم ولا أشعر بالعار ولاردَّ فعل يصدر من جسمي. إني أنفلت باستسلام مُذهل لبواهظ الأثقال وسؤدد التفاهة وانهيار التدبير العقليّ، وكل ماهو آتٍ آت. يتحوّل نظر الجميع إليَ. أصدقائي المجانين معتكفون

برعب على أَسرَّتهم والممرضون فوقي وأنا أغرق تسحبني خطوط البلاط إلى ألم من الدقائق التكتونيّة والنمل الذي ألمحه يسير على وجهي وتنمّل غريب يضرب فكّي.

أُترك غارقًا في البول ويتقدّم أحد أصدقائي ويمنحني قطعة صمون، أجلس القرفصاء على بولي وألوك، أنظر إلى طرف القاووش حيث صورة الرئيس تشبع روحك وعينك، ما جدوى وجودها بين مجانين؟ وأشعر بالتوسّل له وملايين المشاعر المختلفة تتصارع في ذاتي ولا أفهم، لا أفهم تكوين روحي الجديد والغرق مع الأدويّة النفسيّة في برك من الدموع المنزلة من العيون المتوسّلة، يساعدني صديق ونتّجه نحو صورة الرئيس، أقول له خذني إلى هناك حيث حذائي يغرق في البول وعيني ترفّ وفمي يسيل منه اللعاب. أريد أن اقترب من الصورة أكثر، أريد أن أراق في حبيبات التصوير (أسجد لقرد السوء في زمانه)، وأقف شاعرًا بالهزيمة والتوسُّل. أصعد سريرًا وأقترب من الصورة ثم أنزعها وآتي بها إلى فراشي. يحدث ضجيج وتتطاير الوجوه كريشٍ منثور، نجوم متوحّدة تنفلق فجأة في النار، غربان تطير إلى نقطة جوهريّة في السماء، وأجد هنا في القاعة كميّة كبيرة من السوائل التي تهرب من الأفواه ويتراكض الممرضون، وأضرب بالنعل والأحذيّة، وتؤخذ مني الصورة وأقول لهم أريد أن أُقبّلها فقط ولا من مُصدّق، وأبناء داعرات وأهددهم بقبضتي لكنّي أضحك في داخلي، لا أحد يمنحني فرصة استثنائيّة لأن أغيّر مكوّنات روحي والبهاء الأرق في وجهي، ويقودني ممرض إلى خارج القاعة، ويقف على بوابة القسم ويقول لي: اذهب إلى بيتك يا ابن القحبة، لا نريد مشاكل. أشعر بالمرارة والأسى وأنحني له وأقول: قل أيّ شيء لكن لا تقل ابن قحبة، فأنت لا تعرف ويرشقني برشقة شتائم، ولا أهتم. يقول اذهب من هنا قبل أن يتمّ إبلاغ الشرطة عنك. وأقول له: لكنّي أردت أن أُقبّل الصورة فقط. أنت لا

تفهم ما تعنيه لي؟ يتأفّف ويقول صارخًا: اذهب لخاطر الكاظم، اذهب إلى أيّ مكان. اترك قسم الأمراض العقليّة والنفسيّة واتّجه إلى باب المستشفى. في المدخل أجلس قرب امرأة قادمة من مدينة الثورة تبيع قناني ماء وجع البطن. لا أتحدّث، فقط أجلس شاعرًا بخيبة كبيرة، شاعرًا بهزيمة وانسحاق وأحسّ بنوع من الحياة وأنا أقترب من علاوي الحلة، أدور بين الهزيمة النفسيّة وبين الشوارع الوَسِخة وروائح التخمر مبثوثة في كل مكان، في العيون والوجوه والبيوت العتيقة والأطفال الذين يلعبون لعبة الشرطة واللصوص والحرب. أنا أحارب أيضًا ولكن على طريقتي الخاصّة في اجتراح ذاتيّ وهي تعبر فوق أرض الحرب والانهزام والخسارة الكبرى والهذيان. لا أستطيع أن أفكّر، ولمَ التفكير أصلًا؟ حيث لا تحتاج إلا إلى الاستسلام وعدم النهوض.. أقف قرب كشك لبيع الجرائد، لا تزال الهزيمة مُرّة، الشعور بالهزيمة صعب، الشعور بأنك كائن خرافي يوحي لك أنك فوق هذا العالم.

أنظر إلى سيّارات الشرطة، إلى سيّارات رجال المخابرات، أريد أن أقترب منهم، كلّا أريد الاقتراب، أريد فقط أن أعيش في عالم مصنوع من الوهم والوهم هو أنت بكامل قياساتك الكونيّة والفكريّة. فكرت أن أذهب إلى البيت، لكنّ شعور الوحدة الذي ينام في داخلي يؤرجحني بين هذه وتلك من الأفكار. أريد أن أضيع في بغداد. أصل كراج علاوي الحلة. أجلس على رصيف قذر، لا أهتم بملابسي. الشيء الوحيد الذي أريده، أن أنظر إلى البشر وهم يفرّون في العوالم الما ورائيّة والنغمات الساحرة لصوت بريق سماوي، أفكّر قائلًا في ذاتي " مَنْ صَعِدَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَنَزَلَ؟ مَنْ جَمَعَ الرِّيحَ في حَفْنَتَيْهِ؟ مَنْ صَرَّ الْمِيَاهَ في ثَوْبٍ؟ مَنْ ثَبَّتَ جَمِيعَ أَطْرَافِ الأَرْضِ؟[1] وأضحك.

(1) مقطع من العهد القديم – الكتاب المُقدّس

أصل البيت وأرتمي على السرير من دون أن أكلّم جدّتي التي تقف أمامي، أمام حياتي، منكسرة، صامتة وكاتمة وجعها وهي ترى حفيدها مرميًّا بالقتل والبهجة مصادرة. لكن المطر ينفجر، يا للكارثة!! ، ينفجر وتغرق بغداد في مياه المجارير. أندفن في السرير، اخترقه كما لو أنّي مثقب ولحافي على الوجه، وتقول جدّتي: وماذا بعد؟ . ماذا بعد؟ لا شيء يا جدّتي، لا شيء، حتمًا، لا شيء مؤكّد، كل شئ غامض، مريب. إنّي أفكّر في جارنا والجار الآخر والآخر، كلّهم يعملون في الأجهزة الأمنيّة. غريبٌ جدًّا هوس السلطة هذا الذي نتمتّع به كعرب بمحض الإرادة للحاكم.. لا يا جدّتي لا أريد، يئست من هذا الوطن. أريد فقط أن أدفن رأسي، وجهي، لأنّي لا أريد أن أشاهد العالم مع الاندحار الذي أعيشه وضياع أمي في بحر القلق والتعذيب. أكاد اشتعل كل لحظة أو انطفئ، لا فرق. كلّما كانت المرارة واسعة، تفقد قدرة الأحلام وتتحول إلى الكوابيس ويبدأ العقل بصناعة تركيبات مؤلمة لوجع، لاضطهاد، لتقيؤ. إنّي أعجب للخداع العقليّ، كيف يحوِّل أهل العوجة إلى كلاب، وأنا أتذكّر حكايات أمّ وليد عن وطبان وبرزان وخريان وسبعاوي ودهام، وهم يتلوون أمامها ويدفعون الأزهار والياس وأغلى أنواع العطور في مؤخّرتها، ويصرخون ملء العالم: إنا هستيريّون، ملعونون، مبجلون ومقدّسون، القداسة الميكافيليّة للانحطاط البشريّ. لا أستطيع وغير قادر على تخيُّل وطن بدون تكارتة وشيوعيّين وانهزاميّين وشعب مليء بالمخبرين السريّين، وفيما أنا أفكّر بالوطن، بالأمّ، بميري، بسعد المخبل بأمّ وليد وأفكّر في أهل العوجة الذين يكرهون كلّ شيء بما فيه أنفسهم، وتصلني أصوات دربكة، صراخ، ركع بيبان، رصاص، سبّ، لعن وبُصاق وصوت جدّتي يقول: من أنتم؟ من أنتم. وتنطلق بصقة وصفعة وارتطام جسد ويعود الصوت خفيضًا: إلى أين؟ ويهدر صوت من بين الأسلحة والصفعات والبُصاق والتفال وشحط الأرجل.

هل ابن القحبة موجود؟ نقول لك هل هو موجود؟ عملاء..

وأسمع ارتكاضًا وهمهمة ولهاثًا وثغاءً وعفاطًا واحتكاكًا بالحائط وأسلحة ومواسير وسحل وجارتنا تنشر الملابس على حبل الحديقة، ونبراس يكشّ الطيور عن السطح، وستار يلعب الجعاب في الطارمة وكيبلات، وأحدهم يتبوّل على الحائط وتقتحم الغرفة مجموعة من رجال الأمن. وأختبئ تحت اللحاف وأدخل خزانة وأعطى مخبئًا وتكون الرئاسة على كتفي والعويل يستمرّ والمسامير تخرج من الحيطان ويقشعر البدن وأسمع اختراط الأسلحة والأصوات الآمرة، وأختبئ بعيدًا عن العيون. وفيما أنا أعدّ على الأصابع محاولًا تذكّر أرقام التقويم القمري ودورة البدلاء وغطيط الشمس واهتياج القمر وساعة الحظّ ولحظة النحس، تمتدّ أذرع وأنوف وتسحبني خارج الغرفة وأُصعد سيّارة الفرقة الحزبيّة وأهدئ سحجات وضربات على الفك والعين، وتسير السيارة بين المنعطفات بين الوهدات، في الشوارع الضبابيّة نستدير إلى اليمين والى اليمين الأقصى وأنا أتمايل، ويقال لي: ابن قحبة. نعم ابن قحبة، ابن قحبة ناضلت بكل حياتها من أجل الشعب والشعب أنكرها. الشعب مسكين برغم كثرة اللوكيّة فيه، برغم كثرة المرتزقة عليه، برغم كثرة المتزلفين والشعراء الذين مجّدوا القائد والقائد يمنحهم الفتات والعظام ويضحك عليهم.

إننا نعيش ربع الساعة الأخير، قبل أن يسدل الله الستار وتنتهي الحفلة التنكريّة. إنّي أهذي وسيارة الفرقة الحزبيّة تدخل كل لحظة في متاهة معينة ولا يغطّون عيني، لأنّه لا حاجة تستدعي ولأنّهم ليسوا خونة ولا لصوصًا ولايفعلون شيئًا يستحون منه.

وأثناء حديثنا الهمجيّ في رحلة المليون ميل، تتفجرّ الحرب على إيران مثل بالون مليء بالغائط، وأشاهد رصاص المضادات الجويّة وأناسًا يتراكضون في الشوارع ومسدسات وظلمة وطائرات إيرانيّة وأكياس عنبة صفراء..... وأمواس جوليت وصابون رقي وجمال وعطور وجنابر

منثورة وقياطين أحذية ولاستيك بجامات بازة مقلمة ودوة حمام لهلس الشعر وزنبك لتشنّج العضلات وحمام نائم ومطيرجيّة وباعة أرصفة وطعم لاذع وفلافل في الشوارع وطرشي بالعنبة وطرشي النجف وزيتون مصلاويّ ولبن إربيل.

كله في الشوارع والوجوه والشلغم ودكاكين مغلقة وعجائز يلطمن وعميان وعوران ومشلولين يزحفون وقحاب في الكرادة وفروخ في قمارات لوريات الحمل وحليب نستله محلى وبسكويت الجميلي وسيرلاك وأطفال بالمخاط وانقطاع كهرباء وأشباح في الشوارع وجيش شعبيّ وسيارات ملوّثة بالطين وساحات مليئة بالخيم وجنائزعلى الأرض ولافتات سوداء وهجومات كونيّة ومدافع وراجمات صواريخ وبيانات القيادة العامة وتلفزيونات مشوّشة وكلاب تتبوّل في حديقة الأمة وكتّاب يلوذن بخيمة القائد وهروب شعراء من الحرب وجنود يحرقون وفرق إعدامات خلف الخطوط ودبّابات تنفجر.

على باب غرفة بائسة بجانب رجال الحزب أقف. رائحة الإسفنيك تنبعث من المكان وأسمع صراخًا ينبثق من الغرف الأخرى وتوسُّلات، أرتعش وأشعر بالآلام في بطني. أسأل الحراس للذهاب إلى المراحيض لكن دون فائدة. الأمعاء تُقطع والغائط يقترب من فتحة الدُّبر. أحتضن ركبتي واضعًا رأسي بين ساقي. إني أشعر بالكلبيّة والهزال والتورّم ورائحة غريبة تفوح من الأمكنة السريّة والأبواب المغلقة وأعقاب السجائر تملأ الأرض. أفكّر على نحو مشوّش بالمغص، أفكّر بارتعاش للخاصرة وهي تتماوج في تقاسيم الليل والنهار، أنظر إلى الممرّ، إنّه طويل وأقبع أنا في نهايته ونهايته الأخرى بلا نهاية وبقعة ضوء تتدحرج وتمنح الحياة صفة الغرابة واللزوجة والبلاط أسود من دعس أعقاب السجائر. والأشخاص الذين يتمّ التحقيق معهم يسحلون. إني أشاهد وطنًا آخر هنا، وطنًا بوهيميًّا

وغريبًا حتّى على عالم الأشباح الظلاميّة وبذرة زهرة بنت الصبح التي سقطت على صحراء قريش فأزهرت وأينعت. وتتردّد هذه العبارة في ذهني، وعندما أريد أن أنهض أرفس بقوة من قبل المطيّ الذي يحرسني وأنظر إلى وجهه محاولًا فهم كائنات الليل هذه. لماذا أشعر بأنّي عصفور؟ ما الذي يدفعني إلى هذه الملابسة.

أهذي هنا على الأرضيّة الباردة والطين المتساقط من الأحذية يتطاير إلى وجهي وأنحني أكثر، فأكثر، إلى الناحية الأكثر إيلامًا في حياتي. أتذكّر كلمات سليمة حزقيل في تنائي الليل وانصراف النهار، أردت أن أعرف سبب انهمار الثلج على وجهي، سبب الابتراد، لكنّ المغص يعربد في بطني وأشعر أن خروج الغائط بآليّاته الموسيقيّة سوف يحدث الآن، بعد قليل، دقائق، حيث الزمن نسبيّ والمطلق هو وجودك في هذا المكان بين الصيحات الهستيريّة ولوي الأصابع وتقطيع الرموش والجلوس على البطل وتمزق طيزك.

أرتعش كلّما أتذكّر أنّي الآن في بناية الحزب أو بناية الأمن، لا فرق. هنا سيحطمونك تتاليًا، تباعدًا، سيحطمون كبرياءك وأضحك، هل بقي من كبرياء؟ هل بقي شيء من كرامتك؟ إني مهزوز وأريد أن أعرف لمَ أنا هنا؟ في المفهوم الفلسفيّ للوجود وفي ثنائيّات تفكير عقلك وعقلك الباطن.

أسمع أصوات تكسُّر العظام، أتذكّر يوم أعلنوا أنهم أغلقوا قصر النهاية، وفرحت أمي وفرحت معها دون أن أفهم، ثم نفاجأ أنهم فتحوا بعد ذلك عشرات القصور. الشيء الوحيد الذي يهمّني الآن أن أعرف بأي جرم أنا هنا؟ لكن صوتًا يقول لي: لا تسأل، إذ لا أحد سوف يجيبك وعليك أن تمصّ لعابك بنفسك وتعالج ذاتيًّا تيبس فمك. وأسمع أحدهم يصرخ بي ويرفعني الحرس وأفعلها بالبنطلون وتهرب العصافير الضاجّة وأتلوّى ورأسي إلى الأسفل في طأطأة الحياة الغائيّة.

ويدفع بي إلى غرفة التحقيق وأنتظر بهلع مؤكّد الضربات التي ستنهال على ظهري، لكنّي أُفاجأ إذ يرمي المحقّق بوجهي ورقة قائلًا: وقّع هنا ويشير بقلمه ودائرًا وجهه عنّي. أوقع وأقول: ماهذه الورقة؟ ولا يُجيب. أحمل النسخة الثانية وأخرج ويدفع بي إلى الممرّ وأخطو بالوحشة والدهاليز الملتويّة.. أجد نفسي بعد دقائق خارج البناية، خارج الزمن. أسير وأنا أقرأ الورقة التي سُلّمت لي. أقرأ بصعوبة، أقرأ إقرارًا منّي بأني عرفت منهم بأن أمي تم إعدامها، أمّا الجثّة فلا إشارة عنها.

ليس مهمًّا الجثة يا أبناء القحبة. ليس مهمًّا بعد أن تسير القطط على الأسلاك والكيبلات المعدنيّة، ليس مهمًّا عندما تعبر الغربان حياتك مودعة وتاركة عيونك المبحلقة في السماء، ليس مهمًّا أن تركض في وطن الأزبال وتماثيل هارون الرشيد وزبيدة والخيزران وعلي بابا والقائد. مغارات الدهشة المستيقظة على ابتلاعك ورميك إلى مزاريب الموت الأحمر والأخضر والأبيض والأسود، مزاريب المطر، والمطر لايسقط في العراق ولاينهمر في بغداد ولا يتساقط في الرياح. ابتلاعك وانبهارك وأنت أمام الأوراق تقرأ عالمك وهو يرحل بك عبر الزمن المتوحّش إلى الزمن الكلبيّ. عواصف من الرمال وعواصف من السّموم والقيظ اللاهب والصحراء المجتحفة بسيل الجفاف الفمويّ.. أشعر أنّي لا أفهم ما يدور وما الذي يدور فعلًا؟ ولم يدور اصلاً؟ . أقول هللويا أيّها العراق، هللويا وأنت تسفحنا على المنصات الرئاسيّة وصوت القنابل والحروب والشهداء والشعب الفرح بموت الأبناء، لأنّ بموتهم تنال العائلة سيارة جديدة مكرّمة من القيادة ويزداد النهلستيون ويزداد المخبرون السريّون. الوطن يغصّ، يفيض بالعسس والأدباء والأمن والشرطة وأضيف شيئًا جديدًا، هو الانضباط العسكريّ – الشرطة العسكريّة – المبثوثون مثل الصراصر، المبثوثين مثل الكوابيس، برؤوس حمراء، في الزوايا والشوارع والأركان

والساحات والمبولات والخانات والفنادق وفي شارع الرشيد وفي شارع النّضال والباب الشرقيّ وأمام المطعم الهنديّ في نفق ساحة التحرير، وأشعر بالخيبة الكليّة لروحي في وجود الانضباطيّة في نفق ساحة التحرير وأصرخ أين يمكن أن نبول بعد الآن؟ أين تذهب عندما تخرج من البار وتريد التبول؟ بغداد مملوءة الآن بالشرطة وأخوة وأبناء الرئيس والجيش الشعبيّ والانضباطيّة والأمن والمخابرات والجهاز الحزبيّ وشيوعيّون يتاجرون حتّى بعِرضِك ووجهك ونعلك ومربطك ومبلغك ومنتهاك.

بغداد كومة من الزنابير الملوّنة بسخافة حياتك وأشعر بالرهبة، أشعر بالرهبة للطريق الذي وضُعنا عليه، لسكك القطارات الملتوية التي لا تستمر في حياتنا، للطيور الواهنة التي ماعادت تطير في هذا الوطن والانسحاق كلما أقرأ في الأوراق الإشارة إلى إعدام أمي. أتذكّر أقوالك يا سليمة حزقيل، أتذكّر هروبك المخيف عبر ديالى وخانقين والسليمانيّة ثم إيران ومن طهران إلى إسرائيل حيث تعيشين الآن التذكارات المؤلمة عن بغداد والفرهود. لقد غادرتِ حياتنا مثل طائر الرخ، أمّا نحن فنغرق هنا، نموج بالحروب وأقوال القائد والقائد عندما كان نائبًا والاعتقالات العشوائيّة والسِفاح وزِنا المحارم وكتب الماديّة التاريخيّة والبيان الشيوعيّ والبارات والقصخونَ والملالي وقرّاء المقام والموالد المحمديّة والمتصوّفة وحفّارو القبور يدورون في المقابر يبحثون عن أيّة مساحة ممكنة لدفن القتلى.

أدور في شارع الرشيد وقنبر علي والميدان والصابونجيّة وعكد الجام والبتاوين وسيد سلطان علي وأمر على القشلة وباعة لفات لسان بقر مع الطماطة في صناديقهم الزجاجيّة البيضاء والعاهرات البائسات يجلسن على عتبات البيوت وأقول أبوس طيزكم أيها الإنكليز، لأنّكم حلمتم يومًا ما بأن تجعلوننا ليبراليين مثلكم، لكنّنا لا نستحق.

أسير في شارع الرشيد متردّدا واهمًا بعد أن أعبر محال خياطة الملابس

العسكريّة وأتجه إلى الأورزدي باك، وهناك بين الحشا والحشايا، بين التي واللتيا، بين الطيور وهي تهرب من صوت رصاص الصياد وبين الغيوم المنفلتة على انبساط الهباء الصحراويّ، أجد الآلاف يحتشدون أمام بوابة الأورزدي باك، أقف وأنظر للهياج والتدافع والتقاتل، وتفتح بوابات الأورزدي ويصرخ الناس وتعمّ الفوضى والهياج والتدافع والضرب بالأكتاف والأذرع، ويدخل الناس في همجيّة الحضارة البائسة القائمة على التحوّل إلى الدور الحيوانيّ بعد المرور بمرحلة الأيدلوجيّات، ويخرج الناس من الأورزدي وهم يحملون الأغراض في لهفة غريبة وانتصار شيطانيّ. ألهث، ألهث وأنا أتأمل الجماهير الرثة فرحة بالحصول على قنينة عرق لبنانيّ وسيجار واحد ولباس داخليّ وعصير راوخ. فرحة بالفول والفلافل والطعميّة وليس لسان البقر لأن باعة هذه السندويشات ذهبوا إلى الحرب ولن يعودوا منها أبدًا. لكنّي لا أفعل أي شيء أمام هذه السيكوباثيّة. وما الذي تستطيع فعله؟ لا عليك، دع كل شيء. حل تجة بنطلونك واجلس إلى الشطّ وفكّر في النوم بلا أحلام ولا كوابيس ولا طائر الكاو ولا أغاني ديمس روسوس وباري وايت وحديقة الزوراء والأمة وفؤاد مسعود وسينما الوطنيّ.. ما الذي بقي إذن؟ أوجّه السؤال إلى نفسي مدركًا أن لا جواب، ولمَ الإجابة أصلًا؟ طالما تعرف أنك لا تعرف قبر أمك لتقرأ على روحها سورة يس وتأكل الجِرَك وتتأمّل الوطن؟!

Hamilton.on

April 16- 2011

المؤلف

صلاح صلاح
من مواليد بغداد – الكرادة الشرقيّة 1962.
البريد الإلكترونيّ

salah352@hotmail.com

النشاطات والجوائز
عضو اتّحاد الأدباء والكتّاب في العراق 1992
عضو اتّحاد الأدباء والكتّاب العرب 1994
عضو اتّحاد الكتاب الكنديّين 2005
عضو رابطة القلم الدوليّة 2006
جائزة راديو فرنسا الدُّوليّ 1994
جائزة ناجي نعمان للإبداع 2007
الإصدارات
تحت ظلّ المطر – قصص قصيرة – 1993 بغداد – طبعة خاصّة

تحت سماء الكلاب – رواية – 2005 – المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنشر– بيروت

بوهيميّا الخراب – رواية – 2009 – دار التّنوير – بيروت

أوراق الزّمن الدّاعر – رواية – 2010 – دار التّنوير – بيروت

مكان لممارسة الحُلم – قصص قصيرة – 2010 دار الحضارة – القاهرة